

375

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

العقرب وقصص أخرى

(الجزء الأول)

تأليف: بول بولز
ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام
مراجعة: د. سليمان خالد الرباح

ديسمبر 2008



الفنانة: سامية السيد عمر

بدون عنوان

زيت على قماش - ٥٠×٦٠ سم

من كتالوج مختارات تشكيلية

من مقتنيات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



العقرب
وقصص أخرى
(الجزء الأول)

تـــألـــيـــف: بول بولز
ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام
مـــراجـــعـــة: د. سليمان خالد الرياح

العدد 375 ديسمبر 2008



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
بدر سيد عبد الوهاب الرفاعي

هيئة التحرير:
د. زبيدة علي أشكناني
د. سعاد عبد الوهاب عبد الرحمن
د. سليمان خالد الرياح
د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. محمد المنصف الشنوفي

سكرتيرة التحرير
لمياء القبندي

التنضيد والإخراج والتنفيذ:
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت	
للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك
دول الخليج	
للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك
الدول العربية الأخرى	
للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	
للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٠٧٨
ردمك: ٩-٢٥٧-٠-٩٩٩٠٦

• العقرب وقصص أخرى
(الجزء الأول)

العنوان الأصلي:

Stories

by: Paul Bowles

Penguin Books 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2008م

إبداعات عالمية - العدد 375

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)



مقدمة المترجم

بين يدي قارئ هذه المجموعة أجمل ما أبدعته مخيلة الكاتب الأمريكي بول بولز من قصص قصيرة. وقصة «العقرب» التي تحمل المجموعة عنوانها، المنشورة في العام ١٩٤٥، هي القصة الأولى التي جذبت انتباه النقاد إلى بولز بوصفه قاصا متميزا. تضم المجموعة أروع ما كتب بولز من قصص، وأيضا أشهر القصص المكتوبة باللغة الإنجليزية في القرن العشرين، مثل «فريسة رقيقة، صفحات من النقطة الباردة، حادث قديم» وغيرها.

بدأ بولز التأليف الأدبي، شعرا وقصة ورواية، في منتصف القرن العشرين تقريبا، وظل إنتاجه في التدفق بشكل متواصل على مدى أربعين سنة تقريبا، كتب فيها أربع روايات، أشهرها «السماء الواقية»، وأكثر من بضع وخمسين قصة، نشرت جميعها في مجلات أدبية متعددة، قبل أن تصدر في مجموعات مختلفة في الفترة ما بين ١٩٥٠ و١٩٨٦. وقد حملت المجموعات العناوين التالية على الترتيب: «مائة جمل في الفناء» و«صفحات من النقطة الباردة» و«قداس منتصف الليل» و«قصص مختارة».

تتميز كتابة بولز بالوصف المكثف البسيط والمباشر سواء للأحداث أو الشخصيات، وهو وصف حيادي تماما، من دون

أن يورط مشاعره - كقاص - أدنى توريط في ما يرويه، ومن دون أدنى تعاطف من جانبه مع الشخصيات أو مصائرها أو إصدار أي أحكام. ويمتاز وصفه التقريري هذا بالترابط المحكم والانسياب الشديد، وهو، إن شئنا الدقة، وصف درامي تتقدم فيه الأحداث بشكل هادئ منخفض النبرة، حتى عندما يصف أكثر المشاهد عنفا وحدّة. ودائما ما يتعمد بولز في قصصه الابتعاد عن الجمل الطويلة والألفاظ أو المفردات الصعبة المركبة، وكذلك تغييب السارد بصيغة المتكلم غيابا شبه كلي، ونلحظ هذا في أغلب قصص هذه المجموعة، ربما باستثناء آخر قصة في المجموعة التي جاءت في شكل رسائل متبادلة، وتحمل عنوان «كلمات غير محببة».

كما تتسم كتابة بولز بصفة عامة، وهذه المجموعة بصفة خاصة، بالاغتراب والحس الوجودي العميق، بالإضافة إلى العنف الفني الجميل غير المباشر. والعالم الذي تدور في فلكه شخصياته شديد الخصوصية، سواء كان في المغرب أو الصحراء الكبرى أو أفريقيا أو أمريكا الجنوبية، عالم يتداخل فيه العنف والقسوة، والبراءة، التي تقترب من السذاجة في أحيان كثيرة. إن ما تؤكده شخصياته دائما هو الوحدة والانعزال، والاندفاع الأخرق نحو المجهول، بوعي أو من دون وعي، وكذلك الضياع سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي؛ فهي شخصيات هروبية مستسلمة، ليست مقاتلة

أو محاربة على الإطلاق. ونرى هذا جليا في عدة قصص منها على سبيل المثال: «توقف قصير في كورازون» و«القس دوو في تاكيت» و«تابياما». وقصته النموذجية في هذا الصدد هي المعنونة بـ «حادث قديم»؛ حيث يسمح أستاذ في اللهجات الجديدة لنفسه بأن يؤخذ أو يستدرج إلى ظلام الصحراء. هذه الإشارة المتميزة إلى القبول والإذعان («الانطلاق البشع» كما يدعوها بولز في قصة أخرى)، تعرضه بسهولة شديدة إلى عنف وحشي مهلك؛ فقد قطع لسانه، ثم اتخذ عبدا، وأكره على الغناء والرقص لآسريه بعدما ألبسوه كساء شديد الغرابة من علب الصفيح. وكانت هذه القصة خير تجسيد لكيفية رؤية بولز للإنسان: كطريدة أو فريسة رقيقة وهشة عرضة للهجوم والانتهاك الوحشي.

دائما ما نجد عند بولز شخصيات تنتمي إلى ثقافات أو بيئات غير متوافقة. وهذا هو موضوعه الفكري الأساسي، وموضوع كثير من قصص هذه المجموعة، وخير مثال على ذلك قصة «وقت للصداقة». وعن ذلك قال بولز في حوار معه: «إنني فقط أريد إظهار كيف أن الإنسان الغربي مهيأ على نحو سيئ للتداعي أو الانهيار عندما يقابل ثقافات هو لا يعرف... أو فقط يعتقد أنه يعرف عنها الكثير، وأنه كلما حاول اختراقها، ازدادت وعورة وصعوبة، فالرجل البدائي يحتفظ بأشياء أضاعها الرجل الغربي، وبإمكان البدائي أن

يشتغل في، ويتفاعل مع، البيئة المحيطة به. الأمريكيون أقل استعدادا ومقدرة من الأوربيين في مثل هذه الظروف؛ لأنهم يعتقدون أن كل شخص يجب أن يتصرف وفق الطريقة الأمريكية؛ لذلك كان من الصعب عليهم إقامة تواصل حقيقي مع الآخرين».

ومن هنا كان تركيزه المتعمد على الأماكن أو الخلفيات البيئية التي تدور فيها أحداث قصصه، ربما أكثر من تركيزه على الشخصيات نفسها؛ فالبيئة والاحتكاك بها وبثقافتها بمنزلة الشرارة المحفزة، وهي المتسببة في نشوء الصراع أو الصدام الحتمي، الذي دائما ما ينتهي إلى انهزام الإنسان الغربي «المتحضر» أمام الإنسان «البدائي». وإنسان الغرب عند بولز تائه ضائع، عليه أن يبحث ويرتحل، وغالبا ما ينتهي بحثه وارتحاله إلى لا شيء. وسواء كان في الغابة أو وسط الصحراء أو بين الجموع نجده دائما ضحية للبيئة البدائية أو الصحراء أو الجموع وثقافتها، وبولز من جانبه لا يوجه إدانة لأي منها، بقدر ما يوجه إدانته إلى القادم أو الوافد أو الغريب على هذه البيئات أو الثقافات وناسها، بل يعد ردود أفعالها ردودا سوية تماما، متناسقة ومتناسبة مع طبيعتها وبيئتها.

أود أن أشير في النهاية إلى أنني لم أتطرق إلى كل قصة من قصص هذه المجموعة على حدة وبصورة مفصلة،

كما يحدث في كثير من المقدمات المخصصة للمجموعات القصصية والروايات، وذلك لرغبتي الشديدة في أن يطالعها كل قارئ وفقا لخلفيته الخاصة، ويخرج منها بما يعن له. كما تجنبت، أيضا، سرد سيرة بولز الذاتية لعدة أسباب، من بينها، كثرة ما كتب ونشر عنه وعن حياته، سواء في مقدمة مجموعة «البستان» للمترجم القدير إبراهيم الخطيب، أو مقدمة رواية «السماء الواقية»، أو الكتاب المهم للقاص والمبدع القدير محمد شكري بعنوان «بول بولز وعزلة طنجة»، إلى جانب كثير من المقالات والحوارات المنشورة له، إضافة إلى أن هناك بالفعل عدة قصص في هذه المجموعة سلطت الضوء على سيرته، وإن كان بشكل فني، مثل، «توقف قصير في كورازون»، و«حقول صقيعية»، والأهم من هذا كله هو ما قاله «بولز» نفسه:

«الكتابة أهم من حياتي. لا أهمية لحياة الكاتب. إن عمق تفكيري موجود في كتاباتي وموسيقاي».

محمد هاشم عبد السلام



مقدمة

بقلم: جيمس لاسدان[1]

من هو بول بولز؟ لا توحي الحقائق المعروفة عن حياته بالكثير جدا عن شخصية شهيرة كانت نقطة انطلاق ثقافية ذائعة الصيت، نقطة تقاطع حيث التقى بصورة غير محتملة عدد كبير من الاتجاهات الفنية الرئيسة للقرن في بؤرة واحدة.

طفل وحيد نضج أدبيا على نحو مبكر، كتب سلسلة من قصص الجريمة عندما كان في الخامسة، وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره قبلت أول قصيدة منشورة له في المجلة السريالية الدولية التي كان يشرف عليها يوجين إيولاس، والتي كان اسمها «التحول». وفي التاسعة عشرة، قرر أن يكون مؤلفا موسيقيا بالإضافة إلى كونه كاتبا، فدرس على يد آرون كوبلاند، الذي احتضنه بسرعة كشخص يتمتع برعايته وتشجيعه الخاص. وبعد سنتين، في العام ١٩٣١، رحل بولز إلى باريس، وتحت تأثير جاذبيته التي لا تقاوم، لقي اهتماما وعناية من جانب جيرترود ستاين، والتقى إزرا باوند، وجان كوكتو، وأندريه جيد، ثم انتقل إلى برلين حيث كان يقضي فترات بعد الظهر في مقهى «دي ويستينز» مع

---

(١) جيمس لاسدان: أديب وأستاذ جامعي، نشر مجموعتي قصص وديواني شعر. ودرّس في جامعات كولومبيا، وبرنستون، ونيويورك.

كريستوفر إيشيroوود وستيفن سبندر. وبعد زيارته للمغرب بناء على اقتراح من ستاين، عاد إلى مزاولة مهنة الموسيقى في الولايات المتحدة، بتزكية من آرون كوبلاند وفيرجيل طومسون، وصار يتلقى أموالا مقابل أعمال يكلف بها مثل كتابته لباليه لصالح لينكولن كيرشتين، وأوبرا لليونارد برنشتين، وموسيقى مصاحبة لمسرحيات كل من أورسون ويلز، وويليام سارويان، وتينيسي ويليامز. وفي العام ١٩٣٨ تزوج بالروائية جين آور (التي عرفت بعد ذلك بجين بولز). وسافر الاثنان إلى أمريكا الوسطى، ثم انتقلا للعيش في منزل دبليو. إتش. أودين في بروكلين، مع بنيامين بريتين وبيتر بيرس. قرر بولز بعد الحرب العالمية الثانية أن ينقل طاقاته الإبداعية من الموسيقى إلى الأدب، وعاد إلى طنجة. بعكس ما يمكن توقعه له من النضوب هناك، يبدو أن بعده الجغرافي قد شحذ قدرته على التقدم تدريجيا وباطراد. لحق به بعد ذلك في المغرب كل من ترومان كابوت وجور فيدال، ووليام بروز، وألن جينسبرج، وبرناردو بيرتولوتشي، كلهم قاموا بتلبية رغباتهم في زيارته بالمغرب تقديرا له، وهلم جرا.

إن التناقض الظاهري الذي ما ينفك يتردد في هذه الترتيلة أو صلاة الابتهال المتكرر هو أن الاتجاه المميز للكاتب والمرتبط به من بين عدة سلوكيات كان هو الانعزال، وفي

الوقت نفسه نجد أن الحال أو الوضع المفضل لدى معظم شخصياته هو تلك الوحدة. «لا يمكنك أن تقضي شهر العسل بمفردك»، يقول بطل الكاتب في قصة «زيارة قصيرة إلى كورازون»، «تستطيع أنت»، وترد هكذا الزوجة الشبيهة بجين بولز بحجة معاكسة وحاسمة. ربما يكون بولز واحدا من أكبر اللامنتمين أو المغتربين في زمننا، لكن عزلته كانت اختيارية، وكانت معرفته واطلاعه على الثقافة التي تركها وراء ظهره هي بوضوح لشخص منغمس في مجتمعه ومغرق في انغماسه هذا. في وقت مبكر اتضح أنه لم يكن قد أبهر الناس كثيرا بأي شيء كتبه (لم يكن قد نشر أي إنتاج أدبي عندما قابلته جيرترود ستاين، وقد كرهت شعره)، بل بما يتعلق بصفات فطرية معينة متأصلة فيه - طريقة معينة خاصة به للعيش في العالم. «إنه رجل حر للغاية كما تنامى إلى علمي»، هكذا كتب فيرجيل طومسون. كان انجذاب ستاين، كما يتذكر بولز نفسه بمرح في سيرته الذاتية المعنونة «بدون توقف»، ربما بشكل حدسي أو استبصاري، وإن كان أقل رومانسية: «قمت في اللقاء الأول لي معها باستعراض الظواهر الاجتماعية المعاصرة التي كانت نادرة حينها ثم صارت الأكثر شيوعا في الوقت الراهن، أطفال الضواحي الأمريكية بكآبتهم القاسية الحاقدة... كنت من أكثر الشباب الذين رأتهم هي في أي وقت فسادا وبرودا، وانغماسا في

الملذات، وقد هالها رضاي الذاتي واقتناعي الهائل برفض جميع القيم. لكنها قالت وهي تبتسم في استمتاع... «لو كنت شخصا نموذجيا وقدوة، لكانت هذه نهاية حضارتنا»، ثم قالت لي: «أنت همجي مصطنع».

من دون محاولة متعمدة من جانبه، بدا أنه قد أبرز واحدة من أكثر الخصائص تميزا في نظر فناني القرن العشرين، ألا وهي الجمع بين الطهارة أو النقاء وتجسيد الجنوح أو كسر القانون. عندما تحول بولز إلى ممارسة الأدب، عبرت هذه الخاصية عن نفسها كموهبة أكيدة بلا حدود عنده وذلك في حدود الحركة المنحدرة أو المناهضة بل الهادمة للنظام الاجتماعي. في هذا الصدد، بدا بولز في منطقة ما متوسطة تقريبا بين اثنين آخرين من أعظم كتاب الرحلات في قرننا: دي.إتش. لورانس ووليام بروز (الذي ضم يوميات خط السير في رحلاته، عدا الأجزاء المقابلة من الكرة الأرضية (مثل أستراليا)، ومزجها في عمله بطريقة أو أخرى). ومثل لورانس عندما كتب «سانت ماور» أو «المرأة التي مضت بعيدا»، كتب بولز في الغالب عن الأوروبيين أو الأمريكيين المثقلين بالروحانية، الذين يزجون بأنفسهم باندفاع فيه طيش أو تهور في ثقافات بدائية أجنبية غريبة عنهم. لكن في الوقت الذي كان ينظر فيه لورانس إلى ذلك بعين الاعتبار كخطوة في اتجاه إعادة الإحياء وبعث الأمل، صاغ بولز ذلك في قالب

درامي على نطاق واسع وبشكل كبير داخل إطار كارثة حتمية، وكان اهتمامه منصبا أكثر على تفاصيل هذا الدمار أكثر منه على أي تحرر أو خلاص قد يعقبه. وقصته النموذجية في هذا الصدد هي المعنونة بـ «حادث قديم»، حيث يسمح أستاذ في اللهجات الجديدة لنفسه بأن يؤخذ أو يستدرج إلى ظلام الصحراء. هذه الإشارة المتميزة إلى القبول والإذعان («الانطلاق البشع» كما يدعوها بولز في قصة أخرى)، تعرضه بسهولة شديدة إلى عنف وحشي مهلك. فقد قطع لسانه، ثم اتخذ عبدا، وأكره على الغناء والرقص لآسريه في كساء غريب من الصفيح. الصورة الأخيرة للأستاذ المختل وهو يجري صارخا، وتصلصل ملابسه، نحو موته، ربما أُبدعت لتصور وتجسد فكرة جيرترود ستاين عن «الهمجي المصطنع». وقد احتلت القصة مكانها بالتأكيد كأحد أكثر التوجسات المزعجة عن انهيار حياتنا.

من ناحية أخرى، على الرغم من اشتراك بولز مع بروز في الاستمتاع بخبرة استيعاب عمليات التفكك والانهيار الاجتماعي والنفسي (العنف العشوائي، والمخدرات، والحمى والقلق، كسر المحرمات الجنسية بأنواعها كافة وجميعها وجدت طريقها إلى قصصه)، فإنه نادرا ما كان يسمح لروح التشوه أن تخترق وتنفذ إلى روح راوي القصة نفسها. ليست هناك قطع (تجزيئات أو أعمال كولاج)، بالإضافة إلى أن

استخداماته لـ «الكيف» كعامل مساعد للإلهام، قليلة جدا على أي حال وعلى سبيل التجريب في الشكل. وفي أغلب الأحيان، تظل حكاياته مترابطة بشكل رائع، بل وتقليدية.

هذا التوتر بين الطبيعة الحادة المتطرفة للأفعال التي عليها الشخصيات، والمنطق الهادئ الذي تظهره عيانا من دون موارية هو ما يعطي هذه الحكايات بشكل جزئي فتنتها أو سحرها الفريد المميز، فلا يقرأها المرء إلاّ ويستسلم لها. إن قصصه تبدأ بالبساطة أو السهولة الموضوعية نفسها الموجودة بالحكايات الشعبية - «عاشت امرأة عجوز في الكهف الذي كان أولادها قد قاموا بتجويفه في جرف طفلي قرب ينبوع ماء...»، وقبل أن تتعرف على مضمون القصة تنساق إلى عالم حيث يبدو ليس فقط معقولا ومقبولا وجديرا بالتصديق بل يتعذر اجتنابه إلى حد ما، حيث ينبغي أن يتحول إنسان إلى ثعبان، وأن يغوي صبي والده، وأن يشوه جسد أحد رجال القبائل الصحراوية ويغتصب أحد رفاقه في السفر.

إلى حد ما أو بشكل جزئي هذه مسألة متعلقة بالتقنية. وعلى الرغم من أن بولز كثيرا ما زعم اعتماده على التقنيات السريالية في الكتابة، حيث الذهن الخالي من الأفكار المسبقة وأسلوب التأليف التلقائي العفوي، («أكتب بطريقة لا واعية، من دون أن أعرف ما الذي أقوم بكتابته»)، فإن

قصصه معقدة جدا من ناحية الصنعة، وأبنيته ذات تأثيرات معيارية ومهارات ذات حذق وبراعة وتنظيم. بالنسبة إلى شخص ما وزع نفسه بشكل مستمر بين شيئين «مهنتين، قارتين، تكيفين جنسيين صريحين»، فربما ليس من قبيل المفاجأة أن تجد هذه الانعكاسات، والتغيرات المتكررة الساحرة ليست فقط في موضوعات العديد من قصصه، بل أيضا في الأدوات المهنية المستخدمة في بناء هذه القصص. «سنيور أونج وسنيور ها» جرى بناؤها على سلسلة من التبادلات تعمل على إبراز العملات المعدنية الفضية، والرمل الفضي، مسحوق الكوكايين الأبيض الخاص بالسنيور أونج، والشعر الأبيض للفتاة المصابة بالبهاق، التي تدعى لووز. تكرر الفعل أو العمل العدواني من جانب الفتاة، بما في ذلك المياه المتفجرة في قوة وعنف، في قصة «الصدى»، والتي كان هديرها الصاخب يتردد صداه على الفور في الوادي الضيق شديد الانحدار أسفل بيت أمها. (هذا التدخل والاحتفاء الشكلي المحكم، ربما يعزى في معظمه نوعا ما إلى ماضي بولز كمؤلف موسيقي، حيث في واقع الحال يكون الشكل في الموسيقى هو كل شيء تقريبا). وفي قصة «أنتِ لستِ أنا»، استخدام لصيغة المتكلم على لسان فتاة مجنونة، وهي تمثل سبقا على بعض قصص «إيان ماك يوان»، والتبدل النهائي للهويات جرى الترتيب له بطريقة جميلة منذ اللحظة

التي دخلت فيها إيثيل المخادعة من جديد إلى بيت أختها «وراحت تتذكر» الأشياء من الماضي إلى الحاضر (بطريقة استرجاعية)، «تبينت على الفور أنها قد غيرت وجددت كل شيء، لكن بطريقة عكسية».

من ناحية الأسلوب، يميل بولز إلى نوع من الشفافية المحايدة، بتفضيله عدم التعبير الأكثر دلالة على شخصيته، وعدم الإكثار من استخدام المصطلحات المركبة، بخلاف معاصريه من الكتاب. مما أفضى إلى سمو متميز في تعبيراته من خلال إعطاء القصص نوعا من الجسدانية والطبيعية وحقيقة الوجود الموضوعي الشيئي، بفضل توظيف الكلمات التي تعمل فقط كنوافذ مفتوحة على الأحداث التي تحتويها القصة. وفي بعض الأحيان تقرأ هذه القصص إلى حد كبير مثل الترجمات، ترجمات مثالية لنصوص مفعمة بالحيوية، فيندر أن نجد الزخارف البيانية الاستعارية أو الوصف بالمحسنات البديعية السافرة، ومع ذلك عندما يرد أي منهما، فإنه يرد غير أجوف بل يرد مثقلا بمعان كثيفة لكن في حذر وتعقل لأنه يتناول الحقائق الحسية. من الملامح الجديرة بالاعتبار الحس المشترك المتزامن لـ «تتابع دفعات صغيرة خافتة من الصوت»، الذي يستحضر سماع طفلين في الخلاء لصوت تدريب البنادق الآلية في الريف، أو التلطيف المرح من خطر وتهديد التمساح الصغير النشط

على ذراع الفتاة في قصة «القس دوو في تاكيت». وعلى المنوال نفسه نجد، استخدام التفاصيل لاستدعاء أو تجسيد مكان وزمان مشهد، هذا الاستخدام يميل إلى الاقتصاد وعدم الإسهاب، ولكن مع اختيار بارع ومتقن لها: الأشجار المترامية على امتداد الممر المائي الضيق التي تعوق المركب الذي يقل العروسين ذوي الحظ السيئ في «زيارة قصيرة إلى كورازون»، الفناء الخلفي للفندق الذي نزل فيه الأستاذ في قصة «حادث قديم»، «مليء بالنفايات والبراميل، حيث كانت هناك غزالتان تتجولان».

نحن بالطبع لا نقرأ بولز أو أي كاتب آخر لأجل براعتهم التقنية. فالتكنيك لا يمكن أن يكون غاية، ويمكن له تجميع أو صنع قصة «مشغولة» بكل ما تحمله كلمة آلي من معنى (وبعض من قصص بولز الأقل من حيث المستوى، وهي ليست موجودة، في هذه المجموعة، ينطبق عليها ذلك بحذافيره بل وأكثر قليلا)، لكن ما يجعل المرء مهتما بمواصلة القراءة هو التفرد في نفاذ البصيرة لدى الكاتب، وحدسه، وشجاعته في الفهم والتخيل، باختصار، حساسية قصصه. والجو المقلق لأعمال بولز لا نظير له، هذا الاضطراب الشامل، والمنظور غير البشري المتكرر للمسائل الإنسانية، والإحساس بالكارثة المحدقة (حتى عندما لا تحدث) هي كلها ما نستخلصه من عمله. كان بولز قد تحدث عن كتاباته كشيء «علاجي»،

والتكرار المفرط للموضوعات يوحي فعلا بالحاجة إلى مواجهة تجارب معينة مزعجة بشكل جوهري. إذا كان الأمر كذلك، إذن احتكاما إلى سيرته الذاتية، يكون من المحتمل النظر إلى علاقته بأبيه على أنها الأصل. يتذكر بولز أن العلاقة المتبادلة بينه وبين والده (والتي يعود إليها في قصته القصيرة التي تعتبر شبه سيرة ذاتية «حقول صقيعية»)، كانت عدائية، أقل تقدير. «كان والدك يريد أن يقتلك»، يتذكر بولز أن جدته لأمه أخبرته بهذا عندما كان ولدا صغيرا. «أقسمت أن أكرّس حياتي لتدميره»، يشير إلى مناسبة لاحقة عندما ضربه والده وصادر منه مفكراته، (يبدو أن بولز الأب قد راوده الشك في ممارسة ابنه للعادة السرية في الحمّام). وفي التاسعة عشرة من عمره رمى بول والده بسكين اللحم.

في رد فعله على هذه العداوة المتعذر فهمها بشكل واضح، بدأ بول مبكرا في تبني وتعهد حالة من الانفصال البارد، وصفها بأوصاف متنوعة كشكل من أشكال اللامبالاة - «قلت مذكرا نفسي أنه نظرا لعدم وجود شيء حقيقي، فإن الأمر لا يهم كثيرا» - وكنوع من إرجاء الرغبة، والذي به، مثلما كان بالكثير جدا من إبداعاته اللاحقة، كان قادرا على القيام بأكثر الأفعال اللامنطقية اعتقادا منه أنه لم يكن لديه خيار آخر. رحيله الأول إلى أوروبا، الذي كان وليد اللحظة كان - هكذا يقول لنا - نتيجة لواحدة من هذه

الخبرات الإجبارية: «رجعت إلى حجرتي ذات مرة في الغسق، وعندما فتحت الباب، عرفت على الفور، على الرغم من أنه لم تكن لديّ أي فكرة عما كان سيحدث، أنني كنت على وشك القيام بشيء ما انفجاري ونهائي لا رجعة فيه... أخرجت عملة معدنية وأجريت قرعة... جاء الوجه... وكان الظهر يعني أنني من الممكن أن أتناول زجاجة ألونال في تلك الليلة ولا أترك أي ملاحظة مكتوبة. لكن الوجه كان يعني أنني سأرحل إلى أوروبا بأسرع ما يمكن».

ليس هذا في حد ذاته بعيدا جدا عن السلوك المسرحي المتكلف لأي مراهق يعذب ويشعر بالألم والكرب، وبصفة خاصة لشخص ذي ميول أدبية (كان بولز في ذلك الوقت مأخوذا إلى حد كبير بمفهوم أندريه جيد عن «الفعل المجاني»). وما يجعل الأمر ممتعا هو أنه بدلا من حب الظهور استنادا إلى نظرية إدراك الأنا لذاتها فقط، والذي كان من المحتمل أن يركن إليه كاتب آخر بتربيته الغريبة والمؤلمة، فإن بولز استخدم الفكرة كوسيلة للدخول إلى العالم الرحب. يشعر المرء بضغط الفكرة وتأثيرها فيه، ليس فقط من خلال تفسيره لحب الاستطلاع الشديد الذي لديه نحو الثقافات الأخرى التي بخلاف ثقافته هو - «كان عندي إيمان راسخ أنه من الأفضل لي أن أعيش وسط أناس لا أفهم دوافعهم» - لكن أيضا لما اكتشفه

بنفسه هناك. كتب في إحدى قصصه «في الصحراء، حيث الهواء، والضوء، وحتى السماء توحي بكوكب ما لم تطأه قدم حتى تلك اللحظة، لا يكون من الغريب أن تجد أنماطا من السلوك البشري غير مألوفة هي الأخرى... إذا أتاحت الظروف الفرصة للهجوم والسلب، وهو عمل متوقع، وواقع بالطبع، فإن العادة تقتضيه». عالم لا رحمة فيه، لكن ليس على أي حال بعيدا جدا بدرجة كبيرة عن العالم الذي تركه وراء ظهره: «عقلية نيو إنجلاند[٢] التي وفقا لها يجب أن تلازم التعويضات الانتهاكات».

بالضبط مثلما احتال كافكا على الأمر فأوجد الوسيلة لتحويل تصلب والده إلى قلاع أو حصون، وبوابات ذات قضبان وعقبات بشرية لا تقهر ظهرت في الروايات والقصص، كذلك لخص بولز ظروفه الشخصية في مشاهد تعبيرية جسدية وأخلاقية جاءت غريبة بصورة مخيفة ومألوفة بصورة غريبة أيضا. وهذه هي علامة دالة على فنان كبير ورائد.

---

(٢) منطقة في شمال شرق الولايات المتحدة الأمريكية. [المترجم]

العقرب

عاشت امرأة عجوز في الكهف الذي كان أولادها قد قاموا بتجويفه في جرف طفلي قرب ينبوع ماء، قبل ذهابهم بعيدا إلى المدينة، حيث يعيش العديد من الناس. لم تكن سعيدة ولا حزينة لكونها هناك؛ لأنها كانت تعرف أن نهاية حياتها كانت قريبة وأن أولادها لن يحبوا أو يتمكنوا من العودة بأي شكل مهما كانت الأسباب، ففي المدينة هناك دائما العديد من الأشياء لعملها، وعليهم أن يقوموا بها، غير مبالين بتذكرهم للوقت الذي كانوا قد عاشوا فيه في التلال يخدمون المرأة العجوز ولا يبخلون عليها بالرعاية.

عند مدخل الكهف، وفي أوقات معينة من السنة، كانت هناك ستارة من الماء المتساقط أمامه حيث يجب على المرأة العجوز عبورها للدخول. كان الماء ينحدر إلى أسفل المنحدر من النباتات الموجودة أعلاه ويقطر نحو الطمي الموجود في الأسفل، لذا فقد عودت المرأة العجوز نفسها على الجلوس منحنية من دون حركة في الكهف لفترات طويلة من الوقت لكي تبقى جافة وبعيدة من البلل قدر المستطاع. في الخارج عبر قطرات المياه المتساقطة كانت ترى الأرض الجرداء تلمع بفعل السماء الرمادية، وأحيانا كانت أوراق النبات الكبيرة الجافة تطير من أمامها بفعل دفع الرياح لها؛ تلك التي تأتي من الأجزاء المرتفعة من الأرض.

اعتاد القليل من الناس على المرور من وقت إلى آخر على امتداد الطريق، ليس بعيدا منها. ولأن الينبوع كان على مقربة، فإن القادمين منهم الذين يعرفون أن عين الماء موجودة، لكن لا

يعرفــون بالضبط أين كانت توجــد. أحيانا ما كانوا يقتربون من الكهف قبل اكتشــافهم أن العين ليســت هناك. المرأة العجوز لم تكن تتحدث إليهم أبدا. كانت تراقبهم فقط بينما يقتربون وفجأة يرونها. ثم تواصل مراقبتهــا لهم وهم عائدون وهم يذهبون في اتجاهات شتّى أخرى بحثا عن الماء لكي يشربوا.

كان هنــاك الكثيــر بخصوص هذه الحياة التــي تحبها المرأة العجــوز. لم تعد مجبرة - بعــد الآن - على الجدال مع أولادها لجعلهم يجيئون بالخشــب لفرن الحطــب. كانت حرة في التنقل هنا وهناك في الليل للبحث عن الطعام. كان في إمكانها أكل أي شيء تجده من دون أي مشاركة من أحد. لم تكن مدينة للغير بأي جميل تشكره عليه لشيء نالته في حياتها.

اعتاد رجل عجوز على المجيء من القرية إلى أســفل الوادي، والجلوس على صخرة قريبة بقدر كاف من الكهف بحيث يمكنها أن تــدرك وجوده. عرفت أنــه كان مــدركا لوجودها هناك في الكهــف، وعلى الرغم مــن أنها لم تكن تعلم هــذا، فإنها كرهته لعدم إعطائه أي إشــارة يُعبِّر فيها عــن أنها موجودة هناك. بدا لها أنــه لديه فرصة غيــر عادلة ضدها ويســتخدمها بطريقة غيــر مهذبة. فكَّرت في العديد من الأفــكار لمضايقته إذا حاول الاقتراب أكثر من هذا، لكنه كان دائما يمر على نفس المســافة، متوقفا لبعــض الوقت للجلوس فوق الصخرة، غالبا عندما يريد أن يحدق مباشرة نحو الكهف. ثم بعد ذلك يستأنف سيره ببطء، كان يبــدو دائما للمرأة العجوز كما لو أنه يذهب ببطء أكثر عما كان قبل استراحته.

كانت هناك عقارب في الكهف طوال تلك السنين، لكن الأهم كان وجود العقارب خلال الأيام السابقة مباشرة لابتداء النباتات في جعل الماء يتساقط. كان لدى المرأة العجوز كومة ضخمة من الخرق والأسمال البالية، وكانت تمسح بها الحوائط وتنظف السقف من هذه العقارب لتسحقهم في سرعة بكعب قدمها العاري القوي. أحيانا بين الفينة والفينة كان أحد الطيور أو الحيوانات البرية يضل طريقه إلى داخل المدخل، لكنها لم تكن أبدا سريعة بما يكفي لتقتله، وسرعان ما كانت تقلع عن المحاولة.

في يوم قاتم مملوء بالسحب نظرت فوجدت أحد أبنائها يقف عند المدخل. لم تذكر أيا من أولادها هو، لكنها اعتقدت أنه كان ذلك الذي ركب الجواد إلى أسفل قاع النهر الجاف، وربما مات مقتولا على الأرجح. نظرت إلى يده لترى ما إن كانت هي يده. لكنها لم تكن كذلك.

بدأ التحدث قائلا: «هل هذا أنت؟»

- «نعم».
- «هل أنتِ بصحة جيدة؟»
- «نعم».
- «هل كل شيء على ما يرام؟»
- «كل شيء على ما يرام».
- «أنت موجودة هنا؟»
- «بإمكانك أن ترى هذا»
- «نعم».

ساد بعض الصمت. نظرت المرأة في ما هنا وهناك داخل الكهف وكانت غاضبة لرؤية ذلك الرجل عند المدخل وقد حال بالفعل من دون نفاذ الضوء إلى الداخل. راحت تشغل نفسها بمحاولة تمييز الأشياء المتنوعة التي لديها: عصاها، جرة الماء، علبتها المصنوعة من الصفيح، طول حبلها. كانت متجهمة من فرط المجهود. تحدث الرجل مرة ثانية:

- «هل تسمحين لي بالدخول؟»

- لم تعط إجابة.

تراجع مبتعدا عن المدخل، وراح ينفض قطرات الماء عن ثيابه. كان في موقف يسمح له بقول شيء مهين، هكذا فكرت المرأة العجوز، التي، على الرغم من ذلك لم تعرف من يكون ولا ماذا كان يريد أن يقول، وتذكرت ما سوف يفعله.

قررت أن تتكلم.

- «ماذا؟» قالت.

أحنى رأسه إلى الأمام عبر ستارة المياه وكرر سؤاله.

- «هل بإمكاني الدخول؟»

- «ما الذي تريده؟»

- «لا شيء».

أضافت: لا يوجد متسع هنا.

تراجع مرة ثانية، ومسح رأسه. اعتقدت المرأة أنه ربما يكون ذاهبا، ولم تكن متأكدة إن كانت تريده أن يفعل. أيا كان، لم يكن هناك شيء آخر في إمكانه أن يفعله، فكرت. سمعته وهو يجلس في الأسفل خارج الكهف، ثم اشتمت رائحة تبغ.

لم يكن هناك صوت سوى صوت المياه المتساقطة فوق الطمي. بعد فترة زمنية قصيرة سمعته ينهض. وقف مرة ثانية خارج المدخل.

- «سوف أدخل».

لم تُجِب.

انحنى واندفع إلى الداخل. كان الكهف واطئا جدا بالنسبة إليه كي يقف. نظر متفحصا في ما حوله وبصق على الأرض وقال:

- «تعالي».
- «أين؟»
- «معي».
- «لِمَ؟»
- «لأنه عليكِ أن تأتي».

انتظرت لفترة قصيرة، ثم قالت بارتياب: إلى أين ستذهب؟
أشار بلا مبالاة تجاه الوادي، وقال: أسفل ذلك الطريق.

- «إلى البلدة؟»
- «أو أبعد؟»
- «لن أذهب»
- «عليكِ المجيء»
- «لا»
- التقط عصاها وناولها إياها
- «غدا»
- «الآن»

- قالت ينبغي عليَّ أن أنام، وعادت لترقد فوق كومة أسمالها.

- حسنا. سأنتظر في الخارج. أجاب، وذهب إلى الخارج.

دخلت المرأة العجوز في النوم على الفور. حلمت أن المدينة كانت واسعة جدا. ممتدة إلى ما لا نهاية وشوارعها مملوءة بالناس الذين يرتدون ملابس جديدة. كان للكنيسة برج عال ذو أجراس عديدة كانت تدق طوال الوقت. كانت تمشي في الشوارع طوال يوم كامل، محاطة بالناس. لم تكن متأكدة إن كانوا كلهم أبناءها أم لا. سألت بعضا منهم: هل أنتم أبنائي؟ لم يكن في استطاعتهم الإجابة، لكنها اعتقدت أنهم إن كانوا قادرين على الإجابة، فسوف يقولون: نعم. وعندما حل الليل وجدت بيتا بابه مشرع. في الداخل كان هناك ضوء وبعض نساء جالسات في أحد الأركان. نهضن عندما دخلت. وقلن: لديكِ حجرة هنا. لم تكن راغبة في رؤيتها، لكنهن ظللن يدفعنها حتى دخلتها، وأغلقن الباب. وجدت نفسها فتاة صغيرة وكانت تبكي. أجراس الكنيسة في الخارج عالية جدا، وتخيلت أنها تملأ السماء. كانت هناك مساحة مفتوحة في أعلى الحائط فوقها. كان في إمكانها رؤية النجوم من خلالها، وقد ألقت النجوم بالضوء داخل غرفتها. عبر البوص والغاب الذي يتشكل منه السقف جاء عقرب يزحف، نزل على الحائط ببطء تجاهها. توقفت عن البكاء وراقبته. ذيله منحن إلى أعلى فوق ظهره ويتحرك قليلا من جانب إلى آخر بينما كان يزحف. بحثت سريعا عن شيء ما تزيحه به، ونظرا إلى أنه لم يكن هناك شيء بالغرفة فقد استخدمت يدها. لكن

حركتها كانت بطيئة، وأمسـك العقـرب إصبعها بكلابتيه، وظل ممسـكا به بإحكام على الرغم من أنها حركت ذراعها وهي تهزه بقوة في جميـع الاتجاهات. ثم أدركت أنه لـن يلدغها. غمرها إحسـاس طاغ بالسـعادة. رفعت إصبعهـا إلى شـفتيها لتُقبِّلُ العقرب. توقفت الأجراس عن الرنين. بخطوات بطيئة كان ذلك العقرب قد تحرك إلى داخل فمها. أحسـت بقشرته أو محارته الصلبة وأرجله الكلاَّبية الصغيرة خلال شـفتيها وعبر لسـانها. كان يزحف ببطء إلى أسـفل حلقها واسـتقر هناك. استيقظت وصرخت بدهشة.

رد ابنها: «ما الأمر؟»

- «أنا مستعدة»

- «بهذه السرعة؟»

وقف بالخارج حتى جاءت عبر ستارة المياه، متكئة على عصاها. ثم بدأ يخطو خطوات قليلة إلى الأمام منها نحو الطريق.

- «سوف تمطر»، قال ابنها.

- «هل الرحلة طويلة».

- «ثلاثة أيام»، قال، وهو ينظر إلى قدميها الخائرتين.

أومأت برأسـها، ثم لاحظـت الرجل العجـوز الجالس على الصخـرة. كان قد انطبع على وجهه تعبير عميق من الدهشـة، كما لـو أن هناك معجزة قد حدثت لتوها. كان فمه فاغرا بينما يحـدق في المرأة العجـوز. وعندما وصلا قبالـة الصخرة أنعم النظر عن قصد أكثر مما سـبق إلـى وجهها. تظاهرت بأنها لم تلحظه. بينما كانا يمشـيان في طريقهما ببطء أسفل التل على

امتداد الطريق الحجري، ســمعا الصوت الواهن للرجل العجوز من خلفهما يحمله الهواء.

- «مع السلامة».

- «من هذا؟» سأل ابنها.

- «أنا لا أعرف».

نظر ابنها إلى الوراء نحوها باكفهرار وقال:

- «أنتِ كاذبة».

عند الماء

يسيل الثلج المنصهر من الشرفات ويسرع الناس عبر الشارع الصغير الذي تشتم فيه دائما رائحة السمك المقلي. من وقت إلى آخر كان أحد طيور اللقلق ينقض إلى أسفل، جارا خلفه أو تحته رجليه اللتين تشبهان العصا. وكانت الجرامفونات الصغيرة تصرصر ليلا نهارا خلف جدران المحل الذي كان يعمل الشاب عمَّار فيه ويعيش. كانت هناك أماكن قليلة في المدينة حيث يزاح دائما الثلج عنها، ولم تكن هذه إحداها. لذا فإنه يتجمع على مدار أشهر الشتاء، ويتراكم أمام أبواب المحلات.

لكن الشتاء الآن أوشك على الانتهاء؛ والشمس صارت أكثر دفئا. كان الربيع على وشك القدوم، حيث تضطرب القلوب وتذوب الثلوج. ولكون عمَّار وحيدا في العالم، فقد قرر أن هذا هو الوقت المناسب لزيارة إحدى المدن المجاورة لمدينته حيث أخبره والده ذات مرة أن بعض أبناء العم يعيشون هناك.

في الصباح الباكر ذهب إلى محطة الباص. الظلام لا يزال موجودا، وجاءت الحافلة الخاوية بينما كان يحتسي القهوة الساخنة. كان الطريق يلتوي خلال الجبال طوال المسافة. عندما وصل إلى المدينة الأخرى كان الظلام قد حلَّ بالفعل. هنا كان مستوى الثلج أكثر عمقا في الشوارع، والجو أكثر برودة، ولأنه لم يأت إلى هنا من قبل، فلم يتوقع عمَّار هذا، وضايقه كونه مُجبرا على أن يلف نفسه مرات كثيرة بالبرنس الذي كان يرتديه بإحكام منذ أن غادر محطة الأوتوبيس. كانت مدينة عدوانية، بإمكانه

أن يكتشف ذلك على الفور. يمشي الرجال ورؤوسهم محنية إلى الأمام، وإذا ما مر بهم عابر سبيل أمامهم فإنهم غالبا لا يرفعون بصرهم تجاهه.

عدا الشـــارع الرئيســـي، الذي توجد فيه مصابيح على هيئة أقــواس كل عدة أمتار، هناك بــدا أنه لم تكن ثمة إضاءة أخرى، والأزقة التي تبدأ من كلا الجانبين تقبع في ظلام دامس؛ وأشباح الناس المتشحة بالبياض تختفي فيها على الفور.

«مدينة ســيئة» قال عمَّار بصوت خافت. شعر بالفخر لكونه قادما من مدينة أكبر وأحسن، لكن سعادته اختلطت بقلقه بشأن قضـــاء الليل في مثل هذا المكان المعادي. تخلى عن فكرة محاولة العثور على أبناء عمه قبل قدوم الصباح، وبدأ البحث عن فندق(٣) أو حمّـــام حيث يكون بمقدوره النوم حتى الفجر. فقط مســـافة قصيـــرة إلى الأمام وانتهى الشـــارع المنتظم الإضاءة، وبعد ذلك، ظهر الشـــارع منحدرا بحدة وضائعا فـــي الظلام. كان الثلج هنا عميقا باتســـاق، وغير منزوح مقارنـــة بما كان عليه قرب محطة الباص. قلَّص شـــفتيه ونفخ أمامه مكونا سحبا قليلة من البخار. بينما كان يعبر المنطقة المظلمة سمع بضع نغمات موسيقية واهنة كانت تعزف على العود. جاءت الموســيقى من مدخل طرقة على يســـاره. توقف عمّار وأنصت. اقترب شـــخص ما من المدخل من الجهة المقابلة وسأل من يبدو أنه الرجل عازف العود، ما إذا كان «الوقت متأخرا جدا».

«لا»، أجاب الموسيقي، وعزف عدة ألحان أخرى.

---

(٣) وردت بالعربية - المترجم.

اقترب عمَّار أكثر من الباب.

«ألا يزال هناك متسع من الوقت؟»

«نعم».

مشـــى إلى الداخل عبر البـــاب. لم يكن هناك ضوء، لكن كان في إمكانه الشعور بالهواء الدافئ يهبُ على وجهه من الممر الذي على يمينه. واصل سيره، جاعلا يده تجري على امتداد الحائط المبتل بجانبه. بعد فترة قصيرة أصبح داخل حجرة واســـعة قليلة الإضـــاءة أرضيتها من البـــلاط. هنا وهنـــاك، كان في مختلف الزوايا، أشباح تســـتلقي نائمة، ملتفة ببطاطين رمادية. في ركن بعيد مجموعة من الرجال، نصف عراة، يجلســـون حول محرقة مشـــتعلة، يحتسون الشـــاي ويتحدثون بنبرات منخفضة. اقترب عمَّار ببطء، لئلا يطأ أحدا من النائمين.

كان الهواء مملوءا بالحرارة المقبضة والرطوبة.

«أين الحمَّام؟» قال عمَّار.

«هناك إلى أســـفل»، أجاب رجل من المجموعة، من دون حتى أن يرفـــع نظـــره إلى أعلى. أشـــار إلى الركن المظلـــم الذي على يســـاره، وبالطبع، الآن وقد ركَّز عمَّار تفكيره على المكان، بدا له أن تيـــار الهواء الدافئ قادم من هذا الجـــزء من الحجرة. ذهب في اتجاه الركن المظلم، خلع ملابســـه، وتـــرك هذه الملابس في كومة منظمة على قطعة من حصير القش، ومشـــى تجاه الدفء. كان يفكر في ســـوء الحظ الذي صادفه بوصوله إلى المدينة عند الغســـق، وشعر بالقلق إن كانت ملابسه ستسرق أثناء غيابه. كان قد وضع نقوده في المحفظـــة الجلدية التي تدلت من حبل معلق

في رقبته. شـعر بعدم الارتياح بسبب كيس المال الموضوع أسفل ذقنه، اسـتدار عائدا مرة ثانية ليلقي نظرة على ملابسه. لم يبد أن أحدا قد لاحظه بينما كان يخلع ملابسـه. اسـتمر. لن يكون الارتياب الشـديد مفيدا له وسـوف يتورط بسرعة شديدة في شجار لن ينتهي في مصلحته في أغلب الأحوال.

اندفـع صبـي صغير خرج مـن الظلام تجاهه وهـو ينادي: «اتبعني، سوف أقودك إلى الحمَّام»، كان قذرا جدا ورث الثياب، ويبدو أكثر شـبها إلى حد ما بقزم منه بطفل. تقدم الصبي وراح يثرثر بينما كانا يهبطان السلالم الزلقة الدافئة في الظلام. «هل ستنادي على إبراهيم عندما تريد احتساء الشاي؟ أنت غريب. لديك مال كثير...».

قاطعه عمَّار بسرعة. «سـتنال عملاتك المعدنية عندما تأتي لتوقظني في الصباح. ولن تحصل عليها الليلة».

«لكن، سيدي[٤]! غير مسموح لي بالوجود في الغرفة الكبيرة. أنا أبقى عند المدخل وأصحب الرجال إلى أسـفل حيث الحمَّام. ثم أعود مرة أخرى إلى المدخل. لا يمكنني أن أوقظك».

«سأنام قرب المدخل. إنه أدفأ هناك، على أي حال».

«سيغضب لازراج وستحدث أمور فظيعة. ولن يمكنني العودة للبيت ثانية، أو إن حدث ورجعت فربما أصبح طائرا وعندئذ لن يتعـرف عليَّ أبي وأمي. هذا هو ما يفعلـه لازراج عندما يصبح غاضبا».

«لازراج؟»

---

(٤) وردت بالعربية - المترجم.

«إن هذا المكان ملك له. ستراه. إنه لا يخرج أبدا. إذا حدث وخرج فستحرقه الشمس في ثانية واحدة، مثل قشة في النار. سيسقط في الشارع محترقا وقد تحول إلى قطعة من السواد في الدقيقة التي سيخطو فيها خارج الباب. لقد ولِدَ هنا في الأسفل في الكهف».

لم يعر عمَّار انتباها كاملا لثرثرة الولد التافهة. كانا ينزلان الصخر المنحدر المبتل، مُبدَّلين ببطء في الظلام القدم إثر الأخرى، ويتحسسان الحائط الخشِن برفق بينما يتقدمان. كان هناك صوت ارتطام مياه وأصوات بشرية أمامهما.

«هذا حمَّام[٥] غريب» قال عمَّار. «هل هناك مسبح مملوء بالماء؟»

«مسبح! ألم تسمع من قبل أبدا عن كهف لازراج. إنه موجود إلى الأبد، وهو قائم على المياه الدافئة العميقة».

بينما تكلم الولد كانا قد وصلا إلى شرفة صخرية تعلو بأمتار قليلة بداية بحيرة أو بركة ماء واسعة مضاءة، تحت مكان وقوفهما بوساطة مصباحين كهربيين كبيرين عاريين بلا غلاف زجاجي ومتوهجي الإضاءة، وتمتد إضاءتهما إلى مسافة بعيدة خلال العتمة في ما وراء الظلام الكلي.

كانت هناك أجزاء من السطح منحنية إلى أسفل، «تبدو مثل عروق أو كتل جليد رمادية متدلية»، هكذا فكَّر عمَّار، بينما كان يتفحصه بتعجب. لكن المكان هنا كان دافئا جدا حيث حجاب رقيق من البخار منتشر فوق صفحة المياه، يتصاعد باستمرار في

---

(٥) وردت بالعربية - المترجم.

حلقات حلزونية نحو السقف الصخري. ركض رجل يقطر الماء منه عابرا إياهما وغطس في الماء. آخرون كثيرون كانوا يسبحون هنا وهناك في المنطقة الساطعة قرب الأضواء، ولم يشردوا إلى الوراء نحو المنطقة المظلمة. وكان الغطس والصياح يحدثان أصداء عنيفة تحت السقف المنخفض.

عمَّار ليس سباحا جيدا. التفت ليسأل الولد: «هل هذه المياه عميقة؟» لكنه كان قد اختفى بالفعل عائدا إلى أعلى المنحدر. رجع إلى الوراء عدة خطوات واتكأ على الحائط الصخري. كان هناك كرسي واطئ إلى يمينه، وبدا له في الضوء المملوء بالضباب أن هناك شكلا بشريا كان قريبا من الكرسي. راح عمّار يراقب المستحمين لدقائق قليلة. هؤلاء يقفون عند حافة الماء يغسل بعضهم بعضا بالصابون في اجتهاد؛ وهؤلاء الذين في الماء يسبحون ذهابا وإيابا في المسافة القوسية القصيرة تحت الأضواء. فجأة تحدث صوت عميق على القرب منه. نظر إلى أسفل عندما سمعه، كان الصوت يقول: «من أنت؟».

كان مخلوقا ذا رأس ضخمة؛ وكان جسده صغيرا وليس له أرجل أو أذرع. والجزء الأسفل من الجذع كان ينتهي بزعنفتين تبدوان كقطع من اللحم البشري. من الكتفين نمت كلاَّبات قصيرة. كان ذلك الجسد رجلا، وكان ينظر إليه من الأرض حيث يقبع.

«من أنت؟» قال الجسد ثانية، وكانت نبرته جلية واضحة العداء. تردد عمَّار. «جئت لأستحم وأنام»، قال أخيرا.

«من سمح لك بهذا؟»

«الرجل الذي عند المدخل».

«اخرج من هنا. أنا لا أعرفك».

امتلأ عمَّار بالغضب، ثم نظر باحتقار إلى أسفل حيث الكائن الضئيل، واتجه بعيدا منه ليشـارك الرجال الذين يغسل بعضهم بعضـا عند حافة الميـاه. لكن المخلوق الغريـب اندفع أكثر منه، تحرك بسـرعة، وتمكن من دحرجة نفسـه على امتداد الأرض حتى صار أمامه، ليرفع نفسه مرة أخرى ويقول:

«تعتقد أنه في مقدورك الاستحمام بينما آمرك بالخروج من هنـا؟» وضحك ضحكة قصيرة، في صوت رفيع، لكنه عميق في طبقته. ثم تحرك مقتربا، ودفع برأسـه قبالة رجلي عمَّار. أرجع عمَّار قدمه إلى الوراء ورفس الرأس، ليس في قوة شـديدة، لكن بعزم كاف للإخلال بتوازن هذا الجسد.

تدحرج الشـيء في صمت، باذلا مجهودات برقبته ليتحاشى الوصول إلى حافة الرصيف، لكن من دون جدوى.

وارتفعـت نظرات الرجال كلهم. كانت علامات الدهشـة قد اعتلـت وجوههم أثناء تدحرج ذلك المخلوق الضئيل فوق الحافة، خصوصا أنه كان يصرخ. كان الارتطام في الماء يبدو مثل ارتطام حجر كبير. كان هناك رجلان في المياه راحا يسـبحان بسـرعة ناحية المـكان، حيث حدث الارتطام. انطلق الآخرون وراء عمَّار، وهم يصيحون: «لقد ضرب لازراج!»

بارتباك ورعب، اسـتدار عمَّار وجرى عائدا إلى المنحدر. زلت قدمه وهو صاعد في الظلام إلى أعلى. وخدش جزء من

الحائط فخذه العاري. كانــت الأصوات من خلفه تزداد علوا وهياجا.

وصل الغرفــة التي كان قد ترك ملابســه فيها. لم يتغير شــيء. مازال الرجال جالســين حول المنقد يتحدثون. انتزع بسرعة كومة ثيابه، واندس في البرنس، ثم جرى ناحية الباب المؤدي إلى الشــارع، وقد تأبطت بقية ملابســه تحت ذراعه. الرجــل الذي عند المدخل صاحب العود نظر إليه بوجه مروع وانطلق في أثره. جرى عمَّار حافي القدمين إلى الشارع المؤدي إلى وســط المدينة. أراد أن يكون في مــكان توجد فيه بعض الإضاءة القوية. الناس القليلون الذين كانوا سائرين لم يعيروه انتباهــا، عندما وصل إلى محطــة الباص كانت مغلقة. ذهب إلــى حديقة عامــة صغيرة مقابلة لها، حيــث تنتصب منصة حديدية عميقة وسط الثلج.

جلــس هناك فوق حجر بارد وألبس نفســه مــن دون هندمة قدر الإمكان، مستخدما برنسه كستار. كان يرتجف، ويفكر مليا بمرارة وسخرية في حظه التعس، وتمنى لو كان لم يغادر مدينته، عندما دنا منه شبح صغير وسط الإضاءة الشاحبة الضعيفة.

«سيدي»، قال الشبح، «تعال معي. لازراج يبحث عنك».

«إلــى أين؟» قال عمَّار، بعدما عرف أنه الولد المتشــرد الذي كان في الحمَّام.

«إلى بيت جدي».

بدأ الصبي في العدو، مشــيرا له أن يتبعه. مرا خلال الأزقة والأنفاق، نحو الجزء الأكثر ازدحاما في المدينة. لم يزعج الصبي

نفســه بالنظر خلفه، لكن عمَّار كان منشــغلا بهــذا. في النهاية عبرا خلال باب صغير في جانب ممر ضيق. طرق الصبي بقوة. جاء من الداخل صوت أجش قائلا: «من الطارق؟ [٦]»

«أنا! [٧]» صاح الصبي.

بتأن شــديد أدار الرجل العجوز الباب فاتحا إياه ووقف ينظر إلى عمَّار.

«ادخــلا»، قال أخيــرا؛ وأقفل الباب خلفهمــا وقادهما عبر ســاحة مملوءة بالماعــز نحو غرفة داخلية حيــث يتراقص ضوء واهن. وأخذ يحدق بصرامة في وجه عمَّار.

«إنه يريد البقاء هنا الليلة» هكذا قال الصبي.

«هل يعتقد أن هذا فندق؟»

«إنه لديه مال»، قال إبراهيم بحماس.

«مــال!» صاح الرجل العجــوز باحتقار. «هذا هــو ما تتعلمه في الحمَّام! كيف تســرق المــال! كيف تأخذ المــال من محافظ الرجــال! الآن تحضرهــم إلى هنا! ما الــذي تريدني أن أفعله؟ أقتله وأستولي على محفظته من أجلك؟ هل هو يستعصي عليك؟ ليــس في إمكانك القيام بهذا بمفــردك؟ هل الأمر كذلك؟» كان صــوت الرجل العجــوز قد وصل إلى درجة الصراخ الهســتيري وإيماءاته صارت تزداد إثــارة واهتياجا. جلس على الأرض فوق وســادة بصعوبة وصَمَتَ للحظة. وفي النهاية قال مكررا «مال».

«دعه يذهب إلــى فندق أو حمَّام. لماذا أنت غير موجود الآن في

---

(٦) وردت بالعربية، (أيش كون؟) - المترجم.

(٧) وردت بالعربية، (أناة) - المترجم.

الحمَّام؟» ونظر إلى حفيده بارتياب. فتشبث الصبي بكم صديقه.

«تعال»، قال الصبي، وهو يجذبه إلى الخارج نحو الساحة.

«خذه إلى حمَّام!» صاح الرجل العجوز. «دعه ينفق ماله هناك!»

عاد الاثنان إلى الشوارع المظلمة.

«لازراج يبحث عنك»، قال الصبي: «عشرون رجلا ينتشرون في المدينة للإمساك بك وإعادتك إليه. إنه غاضب جدا وسوف يُحوِّلُكَ إلى طائر».

«إلى أين نحن ذاهبان الآن؟ سأل عمَّار بحدة. كان متعبا جدا ويشعر بالبرودة، وبالرغم من كونه غير مصدق لقصة الصبي، فإنه تمنى مغادرة المدينة العدائية.

«يجب علينا أن نبعد من هنا قدر الإمكان، طوال الليل. في الصباح سنكون قد ابتعدنا في الجبال، ولن يعثروا علينا. في إمكاننا الذهاب إلى مدينتك».

لم يجب عمَّار. كان ممتنا لأن الصبي أراد البقاء معه، لكنه لم يعتقد أنه من المناسب قول هذا. سارا في طريق منحن نحو سفح التل إلى أن اجتازا كافة المنازل خلفهما وصارا في الريف المفتوح. بعد قليل أفضى بهما الطريق إلى أسفل واد ضيق بارز للعيان، ومتصل بالطريق السريع عند إحدى نهايتي جسر صغير. هناك كان الثلج متراكما على طريق المركبات العام، لكنه كان متصلبا خشنا بفعل سير المركبات، ووجدا أنه من السهل جدا السير فيه. عندما كانا يهبطان الطريق، وبعد أن استغرق هذا ربما الساعة وسط البرد الآخذ في التزايد،

وصلــت شــاحنة كبيرة تهدر في ســيرها، وتوقفــت أمامهما تقريبا، وعرض السائق العربي عليهما أن يركبا في الصندوق. تسلقا الشــاحنة وصنعا لنفســيهما مأوى من بعض الأجولة. كان الولد ســعيدا جدا لكونه محمــولا ومندفعا خلال الهواء في ظلام الليــل، والجبال والنجوم تدور فوق رأســه، وراحت الشــاحنة تصدر ضوضــاء قوية أثناء ارتحالهــا عبر الطريق السريع الخالي.

«لازراج عثر علينــا وحوّلنا إلى طيور»، بكى الصبي عندما لم يكن في مقدوره الاحتفاظ بســروره لفترة طويلة. «لا أحد على الإطلاق ســوف يعرفنا ثانية». علا شخير عمَّار وسرعان ما ســقط فــي النوم. لكن الصبي راقب الســماء والأشــجار والمنحدرات الصخرية لفترة طويلة قبل أن يغلق عينيه لينام.

فــي وقت ما قبل حلــول الصباح توقفت الشــاحنة للتزود بالماء. اســتيقظ الصبي في هدأة الســكون. سمع صياح ديك في الخلاء، وعندئذ ســمع الســائق يصب الماء. صاح الديك ثانيــة، بصوت حزين بــدأ منخفضا وارتفع ثــم انخفض في الظلمــة الممتــدة. لم يطلع النهار بعد. دفن نفســه عميقا في كومة الأجولة والخرق البالية، وشــعر بدفء عمَّار عندما أخذ في النوم.

عندما طلع ضوء النهار كانا في شــطر آخر من الأرض. لم يكن هناك ثلج. وبدلا من ذلك كانت هناك أشــجار لوز مزهرة على جوانب التلال التي كانوا يعبرونها ســريعا. صار الطريق مســتقيما بينما كان ينحدر أسفل فأسفل، إلى أن صار فجأة

خـــارج التلال في مكان منخفض حيـــث يوجد تحته على نحو باهر خلاء برَّاق شاســـع. لاحظ عمَّار والصبي هذا، وقال كل منهما للآخر إنه لابد وأن يكون هذا هو البحر، يتلألأ في ضوء الصباح.

دفعـــت رياح الربيـــع الزبد عن الأمواج على امتداد الشـــاطئ؛ وجعلـــت ملابس عمَّـــار والصبي ترفرف نحو اليابســـة بينما كانا يمشـــيان على حافة الماء. وجدا أخيرا مكانـــا آمنا بين الصخور، ونزعا ملابسهما، وتركا الملابس على الرمال. كان الصبي خائفا من النـــزول إلى الماء، فاكتفى بالإثارة الناتجة عن الأمواج التي تتحطم عند قدميه، لكن عمَّار حاول أن يسحبه إلى مسافة أبعد.

«كلا كلا!»

«تعال»، استحثه عمَّار.

نظر عمَّار إلى أسفل. كان يقترب منه من الجنب سرطان بحر ضخـــم حيث كان يزحف ببطء خارجا من مكان ما بين الصخور. وثب عمَّار إلى الخلف في رعب، ففقد توازنه، وســـقط ســـقطة شـــديدة، وارتطمت رأســـه بجلمود صخري كبيـــر. كان الصبي واقفا تماما مازال يراقب الحيوان وهو يتخذ طريقه الحذر تجاه عمَّار عبر ألســـنة الأمواج المتكســـرة. كان عمَّار يرقد بلا حركة، نُهيرات وحبيبات من الماء والرمال تصطدم في وجهه. عندما بلغ الســـرطان قدميه، قفز الصبي في الهواء، وبصوت جعله اليأس وفقدان الأمل أجش، صرخ «لازراج».

هرب الســـرطان بسرعة فجائية إلى خلف الصخور واختفى. صـــار وجه الصبـــي متوهجا. واندفـــع نحو عمَّار، رافعا رأســـه

لئلا يصيبها تكسر الأمواج المتجدد، ولطم خدي عمَّار بنوع من الانفعال.

«عمَّار! لقد جعلته يذهب بعيدا!» صاح. «لقد أنقذتك!»

إذا لم يتحرك، فإن الألم لا يصبح مبرحا. لذا فقد بقي عمَّار راقدا، وهو يشعر بأشعة الشمس الدافئة، والمياه الناعمة تغمره، والريح الباردة اللطيفة، التي كانت تأتي من البحر. وكان في وسعه أن يشعر أيضا بارتجاف الصبي من فرط المجهود الذي بذله ليبقي رأسه مرفوعا فوق الأمواج، وسمعه يقول ويكرر مرات عديدة: «أنا أنقذتك، يا عمَّار».

وبعد فترة طويلة أجابه قائلا: «نعم».

حادثٌ قديم

في الأسبوع الذي كانت الشمس فيه أكثر حمرة وقت الغروب في شهر سبتمبر قرر الأستاذ زيارة قرية عين تادورت، التي تقع في الريف الدافئ. هبط من المنطقة العالية المنبسطة في المساء بوساطة الحافلة، حاملا معه حقيبتين صغيرتين من حقائب الرحلات ممتلئتين بالخرائط، وكريمات الحماية من الشمس والأدوية. منذ عشر سنوات مضت كان قد قضى في القرية ثلاثة أيام، طويلة بالقدر الكافي لعقد صداقة وطيدة نوعا ما مع صاحب المقهى، الذي راسله عدة مرات خلال السنة الأولى التي تلت زيارته، ولو أن رسائله انقطعت تماما منذ ذلك الحين. «حسّان راماني». قال الأستاذ مكررا، بينما ترتج الحافلة نحو الأرض عبر طبقات من الهواء الدافئة. الآن في مواجهة السماء الملتهبة في الغرب، وفي مواجهة الجبال الحادة، تبعت السيارة الممر الترابي إلى أسفل الأودية الضيقة في الجو الذي بدأ يبعث برائحة الأشياء الأخرى إلى جانب هواء المرتفعات اللانهائي المنعش، روائح زهور البرتقال، والفلفل، والبراز الذي حمصته الشمس، وزيت الزيتون المحترق، والفاكهة الفاسدة. أغلق عينيه بسعادة وعاش اللحظة في عالم من الروائح النقية. استعاد الماضي البعيد - أي جزء منه، لم يستطع أن يحدد.

السائق، الذي يشاركه الأستاذ المقعد الأمامي، تحدث إليه من دون أن تحيد عيناه عن الطريق:

«هل أنت جيولوجي؟ [٨] » سأل.

«جيولوجي؟ آه، لا! أنا عالم لغوي».

«لا توجد هنا أي لغات. لهجات فقط».

«بالضبط. أنا أقوم بمسح شامل لاختلافات اللهجة المغربية».

كان السائق مستهزئا بهذا. «استمر في الذهاب إلى الجنوب»، قال. «سوف تجد بعض لغات لم تسمع عنها من قبل أبدا».

بمجرد عبورهم إلى داخل بوابة البلدة، ظهرت الأسراب المعتادة من صغار المتشردين، برزوا فجأة للعيان من التراب وتعالت صيحاتهم وهم يجرون إلى جانب الحافلة. طوى الأستاذ نظارته الشمسية، ووضعها في جيبه، وبمجرد توقف الحافلة تماما قفز خارجها، وراح يشق طريق بين الأولاد الساخطين الذين تعلقوا بأمتعته من غير جدوى، وسار مسرعا إلى داخل فندق سهارين الكبير، الذي كان من حجراته الثماني هناك اثنتان شاغرتان - واحدة تطل على السوق والأخرى، الأصغر والأرخص، تطل على فناء صغير مليء بالنفايات والبراميل، حيث كانت هناك غزالتان تتجولان. أخذ الحجرة الأصغر، وصبّ إبريق الماء عن آخره في الطشت، بدأ غسل حُبيبات الرمل عن وجهه وأذنه، كان الشفق تقريبا قد اختفى من السماء، وحُمرة الأشياء كانت آخذة في الزوال، حسبما رأى. أنار المصباح الكربيدي (الذي يعمل بفحم الإضاءة) فجفل من رائحته.

بعد العشاء مشى الأستاذ ببطء عبر الشوارع إلى مقهى حسّان راماني، الذي تدلت حجرته الخلفية على نحو خطير

(٨) وردت بالفرنسية - المترجم.

إلـــى الخارج فوق النهر. كان المدخـــل منخفضا جدا، وكان عليه أن ينحني إلى أســـفل قليلا لكي يدخـــل. كان هناك رجل يرعى النار، ومرتاد يرتشف الشاي. حاول القهوجي[٩] أن يقنع الأستاذ بالجلوس إلى المنضدة الأخرى في الحجرة الأمامية، لكن الأستاذ مشى بحيوية مباشـــرة نحو الحجرة الخلفية وجلس، كان القمر يلمع عبر تعريشـــة البوص ولم يكن هناك صوت بالخارج بيد أن نباح كلب بعيد كان من الممكن ســـماعه بـــين الحين والآخر. قام الأســـتاذ بتبديل المنضدة حتى يتمكن مـــن رؤية النهر. كان النهر جافا، لكن كانت هناك برك صغيرة متناثرة عكســـت ليل السماء المضيء. جاء القهوجي ومسح سطح المنضدة بعناية.

«ألا يزال هذا المقهى مملوكا لحسّـــان راماني؟» سأله باللهجة المغربية التي قضى أربع سنوات في تعلمها.

أجاب الرجل بفرنسية ركيكة: «لقد مات».

«مات؟» وأخذ الأســـتاذ يكرر الســـؤال، مـــن دون أن يلاحظ سخف التكرار ولا معناه. «حقا؟ متى؟»

«أنا لا أعرف»، قال القهوجي. «واحد شاي؟»

«نعم . لكنني لا أفهم ...».

كان الرجـــل قد خرج من الغرفة بالفعل وراح يُهوي على النار، وجلس الأستاذ ســـاكنا، وهو يشعر بالوحدة، وكان يحادث نفسه ويجادلها بأن ما بدر منه كان مثيرا للسخرية. عاد القهوجي بعد فترة قصيرة بالشـــاي. حاسبه وأعطاه بقشيشا كبيرا، فأحنى له القهوجي رأسه باحترام وتوقير.

---

(٩) وردت بالعربية - المترجم.

«قــل لي»، قال، وكان الآخر قد هــمَّ بالانصراف. «هل مازال بإمــكان المرء الحصول على تلك العلــب الصغيرة المصنوعة من ضروع الجمال؟».

بــدا الرجل غاضبا. «في بعض الأحيــان يجلب أفراد قبيلة» الرقيبات «مثل هذه الأشــياء. نحن هنا لا نشــتريها». ثم أردف بالعربية بوقاحة: «ولِمَ علب ضروع الجمال؟»

«لأنني أحبها»، أجاب الأســتاذ على الفور. ولأنه كان يشــعر وقتهــا بقليل من الافتخار، أضــاف، «أنا أحبها كثيرا جدا وأريد اقتناء مجموعة منها، وسوف أدفع لك عشرة فرنكات لكل واحدة يمكنك إحضارها لي».

«خمســة عشــر[10]» قال القهوجي، فاتحا يده اليسرى ثلاث مرات على التوالي:

«أبدا، عشرة».

«غيــر ممكن. لكن انتظر حتى وقت لاحق وتعال معي. يمكنك أن تعطيني ما تريد. وسوف تحصل على علب ضروع الجمال إذا كان هناك أي منها».

خرج إلى الحجرة الأمامية، تاركا الأستاذ يحتسي كوب الشاي وهو يســتمع إلى الكــورس المتصاعد للكلاب التــي راحت تنبح وتعوي بينما ارتفع القمر عاليا في الســماء، وحضرت مجموعة من مرتادي المقهى إلى الحجرة الأمامية وجلست تتحدث لساعة أو نحو ذلــك. عندما انصرفوا، أطفأ القهوجي النار ووقف عند المدخل مرتديا بُرنسه. وقال «تعال».

---

(١٠) وردت بالعربية (خمستاش) - المترجم.

في الخارج كانت الحركة في الشـــوارع قليلة. وكانت الأكشاك قد أغلقت وكان مصدر الضوء الوحيد هو ضوء القمر. مر عابر سبيل وهمهم بتحية موجزة للقهوجي.

«الجميـــع يعرفونك»، قال الأســـتاذ، ليقطـــع حاجز الصمت بينهما.

«نعم».

«أتمنى أن يعرفني الجميع»، قال الأســـتاذ، قبل أن يدرك إلى أي حد كيف يبدو مثل هذا التعليق طفوليا.

«لا أحد يعرفك». قال رفيقه بفظاظة.

كانا قد وصلا إلـــى الجانب الآخر من البلدة، أعلى قمة نتوء مرتفـــع فوق الصحـــراء، وعبر صدع كبير في ســـور المدينة رأى الأستاذ الامتداد الأبيض اللانهائي، وقد تخللته في المقدمة البقع الداكنة من الواحة. مشـــيا خلال الفتحة وتابعا في طريق متعرج بين الصخور، إلى أســـفل باتجاه أقـــرب غابة من غابات النخيل الصغيرة القريبة. فكّر الأســـتاذ: «ربما يذبحنـــي. لكن مقهاه - سوف ينفضح أمره بالتأكيد».

«هل هو بعيد؟» سأل، على نحو عابر.

«هل تعبت؟» واجهه القهوجي.

«إنهم ينتظرون عودتي في فندق سهارين»، قال كاذبا.

«ليس بإمكانـــك أن تكون هناك وهنا فـــي نفس الوقت» قال القهوجي.

ضحك الأستاذ. تساءل إن كان حديثه قد جعله يبدو قلقا في نظر الآخر.

«هل امتلكت مقهى راماني منذ فترة طويلة؟»

«أنـــا أعمل هناك عند صديق»، الإجابة جعلت الأســتاذ أقل سعادة مما كان يتخيل.

«هل ستذهب للعمل غدا؟»

«من المستحيل قول هذا».

تعثر الأستاذ في حجر، فسقط، وكشطت يده. قال القهوجي: «كن حذرا».

فجأة علقت في الهواء عبق رائحة نتنة للحم فاسد.

«أف! ما هذا؟» قال الأستاذ، وهو يشعر بالاختناق.

غطى القهوجي وجهه ببرنسه ولم يجب. بعد فترة قصيرة تــركا وراءهما الرائحـــة الكريهة. كانا فوق أرض مُنبســـطة، في الأمـــام كان الطريق محاطا من الجانبين بحائط عال من الطين. لم يكن هناك نســيم والنخيل ســـاكن تماما، لكن إلى جـــوار الحوائط كان هنـــاك خرير ماء. أيضـــا، رائحة البراز البشـــري كانت في أغلب الأحيان مصاحبة لهما في سيرهما بين الحوائط.

انتظر الأســـتاذ حتى بدا له أنه من المنطقي الســـؤال بدرجة معينة من الضيق: «لكن إلى أين نحن ذاهبان؟»

«نحـــن على وشـــك الوصول». قال المرشـــد، وتوقف لالتقاط بعض الأحجار من المصرف.

«التقط بعض الأحجار» قال ناصحا. «الكلاب سيئة هاهنا».

«أين؟» ســـأل الأستاذ، لكنه توقف والتقط ثلاثة أحجار كبيرة ذات أطراف مدببة.

واصلا السـير بهـدوء شـديد. انتهت الحوائـط وظهرت الصحراء اللامعة الممتدة قبالتهما. في الجوار كان هناك مقام متهـدم لأحد الأولياء، وكانت له قبـة صغيرة جدا بقي نصفها فقط منتصبا، والحائط الأمامـي مدمر بالكامل. وإلى الجوار منه حشـد مـن النخيل العتيـق غير ذي نفع، وقـد توقف عن النمـو. جاء كلـب يجري نحوهما بجنون علـى ثلاثة أرجل، لم يسمع الأستاذ زمجرته الخفيضة الثابتة حتى صار قريبا جدا. أطلق القهوجي حجرا كبيرا نحوه، ضاربا هذا الحجر مباشـرة وبالضبط في خطمه.

صدر عـن الكلب صوت غريب هو صرير أسـنانه التي ربما تهشـمت وجرى الكلب في الاتجاه الآخر الجانبي مبتعدا عنهما، وسـقط مرتطما بالصخور دون أن يبصرها ثم تسـلقها بسرعة وبطريقة عشوائية مثل حشرة مصابة.

بعد أن انحرفا عن الطريق الرئيسي، وسارا عبر أرض مفروشة بالصخـور حادة، مرا بخرائب صغيرة، ثـم اجتازا مجموعة من الأشـجار، إلى أن وصلا إلى مـكان هبطت فيه الأرض أمامهما على نحو مفاجئ.

«يبدو كأنه محجر»، قال الأسـتاذ، وقد لجأ إلى الفرنسية لقول «محجـر» حيـث إن المقابل العربي لم يكن حاضـرا في ذهنه هذه اللحظـة. لم يُجب القهوجي. وبدلا مـن أن يجيب ظل واقفا وأدار رأسه، كما لو كان يسمع. وفي الواقع كان يستمع إلى شيء آخر، فمن مكان ما بعيد في الأسفل، لكنه بعيد جدا، أتى صوت منخفض غير واضح لناي. أومأ القهوجي برأسـه ببطء عدة مرات في ثبات، ثم

قال «هنا يبدأ الطريق. يمكنك أن تراه جيدا على امتداده، فالصخر أبيض والقمر قوي. لذا بإمكانك أن تراه بصورة جيدة. سأرجع الآن لأنام، فالوقت متأخر. بإمكانك أن تعطيني ما تريد».

وهــو واقف هناك على حافة الهاوية التي بدت في كل لحظة أكثر عمقا، ووجه القهوجي الداكن المُؤطّر في ضوء القمر ببرنسه القريب من وجهه، سأل الأســتاذ نفسه ما هو شعوره بالضبط. سُــخط، فضول، خوف، ربما، لكــن كل ما أراحه وتمناه ألاّ تكون هذه خدعة وأن يفارقه القهوجي، ويعود من دونه.

تراجع قليلا عن الحافة، ثم تحســـس داخل جيبه وهو يبحث عن عملة ورقية بمفردها، لأنه لم يرد إظهار محفظته، ولحســـن الحظ كانت هناك ورقة نقدية من فئة خمسين فرنكا، حيث قام بإخراجهــا وإعطائها للرجل. كان يعرف أن القهوجي قد ســره المبلغ، لذا لم يعره انتباها عندما سمعه يقول «إنها ليست كافية، وعليّ أن أمشي طريقا طويلا إلى بيتي وهناك كلاب ...».

«شــكرا وأتمنى لك ليلة ســعيدة»، قال الأســتاذ، وجلس وقدماه مثنيتان أسفله، وراح يشعل سيجارة. شعر بأنه سعيد إلى حد ما.

«أعطني سيجارة واحدة فقط»، ناشده الرجل.

«بالطبــع»، قــال، وبشــيء من الاقتضــاب ورفع إليــه علبة سجائره.

جلس القهوجي القرفصاء بالقرب منه. لم يكن وجهه ســارا للنظر. «ما هذا؟» فكّر الأستاذ، وقد انتابه الرعب مرة ثانية، وهو يمد له يده بسيجارته المشتعلة.

كانـــت عينا الرجل مغلقتين تقريبا. وكانتا تعبران بوضوح عن مكر شـــديد لم يعهده الأســـتاذ من قبل. عندما كانت السيجارة الثانيـــة تحتـــرق، غامر أن يقـــول للعربي الذي لا يزال جالســـا القرفصاء: «ما الذي تُفكّر فيه؟»

جذب الآخر سيجارته نحو شفتيه في تؤدة، وبدا أنه على وشك التكلم. ثم تبدل تعبيره إلى نوع من الرضا، لكنه لم يتحدث. هبت ريح باردة في الجو، فارتجف الأستاذ. كان صوت الناي يرتفع من أسفل الأعماق على فترات، مختلطا في بعض الأحيان بالحفيف القريـــب الناتج عن احتكاك ســـعف النخيـــل الواحدة بالأخرى. «هؤلاء الناس ليسوا بدائيين»، وجد الأستاذ نفسه يقول هذا في عقله.

«جيـــد»، قال القهوجي، نطقها وهـــو ينهض ببطء، ثم أردف، «احتفظ بمالك. خمســـون فرنكا كافية. إنه شـــرف لي». ثم عاد إلى الفرنســـية الركيكة قائلا: «ليس مطلوب منك سوى أن تنزل، إلى الأمام مباشـــرة» بصق، وضحك بينه وبين نفســـه في خفوت (أم أن الأستاذ في حالة هستيرية؟)، وهرول بعيدا في سرعة.

كان الأستاذ في حالة عصبية مضطربة. أشعل سيجارة أخرى، ووجد شـــفتاه تتحـــركان تلقائيا. كانتا تقـــولان: «هل هذا مجرد موقف عادي أم مأزق؟ هذا سخيف». جلس في ثبات شديد جدا لعدة دقائق، فـــي انتظار أن يرتد إليه إحساســـه بالواقع. تمدد فـــوق الأرض الصلبـــة الباردة وراح يمعن النظـــر في القمر: كان تقريبا أشبه بالنظر مباشـــرة إلى الشمس. وكان بوسعه إذا نقل اتجـــاه تحديقه قليلا في كل مـــرة على حدة، أن يصنع خيطا من

أقمـــار ضعيفة عبر صفحة الســـماء. «مذهل»، همس. ثم نهض بســـرعة وتفقد ما حوله. لم يكن هنـــاك ما يضمن أن القهوجي قـــد عاد بالفعـــل إلى البلدة. نهض على قدميـــه ونظر من أعلى حافـــة المنحدر. بدا القاع في ضـــوء القمر عميقا لأميال. وليس هناك شـــيء ليُقدِّر به؛ لا شجرة، ولا بيت، ولا شخص... أنصت لصوت الناي، فلم يســـمع ســـوى صوت الريح تمر بأذنه. انتابته رغبة فجائيـــة عنيفة في الجري عائدا نحو الطريق واســـتولت عليه، فاســـتدار ونظر إلى الاتجاه الـــذي اتخذه القهوجي. وفي الوقت نفسه شعر بأمان لأن محفظته في جيب صدره. ثم بصق على حافة الجـــرف الصخري، وقام بالتبول عليه، وأصغى لفعله بقصد، مثـــل طفل. أعطاه هذا قوة دافعـــة لبدء هبوط الطريق نحو الهاوية. كان من الغريب أنه لم يصب بدوار، إلاّ أنه تحاشى بحـــذر إنعامه النظر إلى يمينه، فوق الحافة. كانت أرض المنحدر ثابتة راسخة وشديدة الانحدار باتجاه الأسفل، وقد جعلته رتابة الوضع فـــي حالة مزاجيـــة لا تختلف عن تلك التـــي كان عليها أثناء ركوبه الحافلة. كان يتمتم «حسّان راماني» مرة ثانية، مرارا وتكرارا وعلى نحو إيقاعي. توقف، وهو يشعر بالغضب من نفسه للنغمات الســـيئة التي يوحي بها الاسم له. في تلك اللحظة قرر أنه كان مجهدا من الرحلة، و«المشي أيضا»، أضاف قائلا.

هـــو الآن في أســـفل المنحدر الصخري العمـــلاق تماما، لكن القمر، وقد أصبح فوق رأسه مباشرة، كان يبعث بالإضاءة نفسها التي كان يرسلها من قبل عندما كان في أعلى المنحدر. لم يترك وراءه إلاّ الريـــح، في الأعلى، حيث كانت تطوف بين الأشـــجار،

وتهب عبر الشوارع المتربة «لعين تادورت»، إلى داخل ردهة فندق سهارين الكبير، وتحت باب غرفته الصغيرة.

خطر له أنه كان يجب عليه أن يسأل نفسه لِمَ أقدم على فعل هذا الشيء اللاعقلاني، لكنه كان ذكيا بالقدر الكافي ليعرف أنه لكونـــه كان يقوم به بالفعل، فليس من المهم على الإطلاق البحث عن تفسيرات في تلك اللحظة.

فجأة صارت الأرض مســتوية تحت قدميـــه، فقد وصل إلى القـــاع بأقرب ممـــا كان يتوقع. ومع ذلك تقـــدم وهو يخطو إلى الأمـــام بقليل من الثقـــة، كما لو كان يتوقع هبوطـــا غادرا آخر. فقـــد كان من الصعب جدا التعـــرف على طبيعة الأرض في هذا الضعـــف المتماثل للنور. قبل أن يعرف ما حدث كان أحد الكلاب قـــد أصبـــح فوقه، ككتلة ثقيلة مـــن الفراء تحـــاول أن تدفعه إلى الوراء، وبرثن حاد يخدش في صدره، واستنفار للعضلات بهدف غرس الأسنان الوحشية في رقبته. قال الأستاذ لنفسه: «أرفض أن أمـــوت بهذه الطريقة». تراجع الكلـــب؛ وكان يبدو مثل كلاب «الإســـكيمو». وبينما قفز الكلب ثانية، صاح الأستاذ، في صوت عال جدا، «نعم، أرفض أن أموت هكذا». هجم الكلب عليه، كانت هناك أحاســـيس مختلطة وألم في مـــكان ما. كانت هناك أيضا أصوات قريبة جدا منه، ولم يكن يدري ما الذي يقولونه. شيء ما بارد ومعدني ارتطم بوحشـــية واستقر على عموده الفقري بينما الكلب ما يزال متشـــبثا لمدة ثانية بأسنانه في كتلة الملابس وربما اللحم أيضا. أدرك الأستاذ أنها كانت بندقية، فرفع يديه، صائحا باللهجة المغربية، «خذ الكلب بعيدا!» وما كان من البندقية إلاّ أن

دفعتــه إلى الأمام، ونظرا إلى أن الكلب منذ أن عاد إلى الأرض، لم يقفز ثانية، فقد تمكن الأستاذ من أن يتخذ خطوة إلى الأمام. واصلت البندقية دفعهــا له، فحافظ هو على خطواته المنتظمة. سمع الأصوات مرة ثانية، لكن الشخص الذي كان خلفه مباشرة لم يقل شيئا. بدا الناس وكأنهم تقريبا يركضون هنا وهناك، على الأقل، هكــذا كانت دلالات أصواتهم. فتح الأســتاذ عينيه، لأنه اكتشف أنهما لاتزالان محكمتي الإغلاق منذ هجوم الكلب، فوجد مجموعة من الرجــال كانوا يرتدون الملابس الســوداء الخاصة بقبيلة «الرقيبات» يتقدمون نحوه. «الرقيبي سحابة تعبر في وجه الشــمس». «عندما يظهر الرقيبي فإن الرجل الصالح ينصرف». كم من محال وأســواق سبق للأســتاذ أن سمع فيها هذه الحكم والأمثال على ســبيل المزاح بين الأصدقاء ولا يلفظ بها في وجه أحد منهم، من الرقيبات، فهؤلاء الرجال، بكل تأكيد، لا يترددون على المدن. يرسلون مبعوثا عنهم في الخفاء. ليُرتِب مع العناصر المشبوهة هناك للتخلص من البضائع المنهوبة «إنها فرصة»، فكّر ســريعا، «لاختبار دقة هذه الأقوال». لم يشك للحظة أن المغامرة ســتثبت أنها كانت نوعا من التحذير ضد مثل هذه الحماقة من جانبه - التحذير الذي ســيكون تذكّره مشؤوما، وهزليا إلى حد ما فيما بعد.

جــاء كلبان مزمجران يعدوان خلف الرجال القادمين واندفعا إلى ســاقي الأستاذ، الذي كان مستاء لملاحظته أن لا أحد التفت لخرق آداب الســلوك هذا. وظلت البندقية تدفعه بقسوة شديدة كلمــا حاول أن يتجنــب الهجوم المزعج لهــذه الحيوانات. صاح

ثانية: «الكلاب! خذوهم بعيدا!» دفعته البندقية دفعا عنيفا وفي قسوة شديدة إلى الأمام فسقط، تقريبا على أقدام زمرة الرجال المواجهين له. كانت الـكلاب تنهش وتعض في يديه وذراعيه، ثم شاهد حذاء يرفس الكلاب، وقد ألقى بها جانبا، فعوت، وعندئذ وبقوة متزايدة ضرب الحذاء الأستاذ في وركه. ثم جاءته عدة ركلات في آن واحد من مختلف الجوانب، فوجد نفسه يتدحرج على الأرض بعنف لفترة، وفي هذه الأثناء كان مدركا للأيدي التي تصل إلى جيوبه وتنزع منها كل شيء. حاول أن يقول: «لتأخذوا كل مالي، ولكن توقفوا عن ركلي!» إلاّ أن عضلات وجهه وكلها كدمات لم تمكنه من الكلام، فشعر بنفسه يمط شفتيه، وهذا كل شيء. شخص ما سدد إليه ضربة شنيعة أصابت رأسه، ففكر بينه وبين نفسه: «الآن على الأقل سأغيب عن الوعي، شكرا للسماء». لكنه مازال حتى الآن على وعي بأصوات الحناجر التي لم يستطع فهمها، وبكونه مقيدا بإحكام عند كاحليه وصدره. ثم كان هناك السكوت المطبق الذي كان ينفتح مثل جرح من وقت إلى آخر، ليسمح في سهولة وسلاسة للنغمات العميقة للناي أن تنساب في نعومة بنفس تعاقب النغمات مرة بعد الأخرى. فجأة شعر بألم مبرح في كل مكان، ألم وبرودة. «إذن فقد فقدت الوعي، برغم كل هذا»، فكّر. وعلى الرغم من هذا، بدا الحاضر بالنسبة إليه فقط مجرد استمرار مباشر لما حدث من قبل.

كان الضوء قد صار باهتا. كانت هناك بعض الإبل بالقرب من مكان رقاده؛ كان بإمكانه سماع قرقرتها وثقل تنفسها القوي. لم يكن من الممكن أن يجبر نفسه على محاولة فتح عينيه، خشية أن

يتضح له أن هذا مستحيل على أي حال. ومع ذلك، فإنه عندما سمع صوت شخص ما يقترب، فتح عينيه، ولم يجد أي صعوبة في الرؤية.

نظر إليه الرجل ببرود وجفاف في ضوء الصباح الرمادي، وبيد واحدة ضغط على فتحتي أنف الأستاذ معا، فلما فتح الأستاذ فمه ليتنفس، أمسك الرجل بلسانه في خفة وجذبه بكل قوته. كان الأستاذ يتقيأ ويلتقط أنفاسه من فمه بصعوبة، فلم ير ما كان يحدث، ولم يستطع أن يميز الألم الوحشي الناجم عن جذب لسانه من الألم الذي نتج عن ذلك السكين الحاد. ثم كان هناك اختناق بصورة لا نهائية وإفراز للبصاق باستمرار وبصورة آلية، كأنه لم يكن جزءا مما يحدث. استمرت كلمة «عملية» تمر عبر مخيلته ؛ وهدأ روعه نوعا ما بينما كان يغرق في الظلام مرة ثانية.

غادرت القافلة وقت الضحى تقريبا. لم يكن الأستاذ غائبا عن الوعي، لكنه كان في حالة خدر وذهول تام، حتى الآن لا يزال يتقيأ ويسيل منه اللعاب، ملقى بانحناء مطويا في جوال ومربوطا في أحد جانبي الجمل. كان الطرف الجنوبي للأرض المنبسطة الشاسعة التي كانت تحفها الكثبان من جميع الجهات يحتوي على بوابة طبيعية في الصخور. وكان قد تم تحميل الجمال سريعة الحركة، بأشياء خفيفة في هذه الرحلة. وكانت تمر عبر البوابة الطبيعية في صف واحد، وببطء بدأت تصعد المنحدر الناعم الذي أفضى إلى بداية الصحراء. في تلك الليلة، عندما توقفوا خلف بعض التلال المنخفضة، قام الرجال بإخراجه، وكان مازال

فـي وضع لا يسـمح له بأي نوع من التفكير، من فوق الأسـمال البالية المتربة التي بقيت من ملابسه أحاطوه بسلسلة من الأحزمة الغريبـة المصنوعة من قيعان العلب الصفيح الصغيرة (الكنزات) المخيطـة معا. وكان الواحد بعد الآخر من هذه الأحزمة اللامعة مربوطا بسلك حول جذعه، ويديه وقدميه، بل وحتى عبر وجهه، حتى أنـه صار بالكامل داخل بدلة مدرعة حيث غطته الصفائح المعدنيـة الدائرية. كان هناك العديد من مظاهر الفرحة عندهم عندمـا قاموا بعمل هذا الكسـاء الأنيق للأسـتاذ. ثم قام أحد الرجال بإخراج ناي وأدى آخر أصغر سنا رقصة مضحكة بالعصا وكان أكثر رشاقة من راقصات قبيلة «أولاد نايل». لم يعد الأستاذ واعيا، وإن شئنا الدقة، كان حاضرا في منتصف الحركات المؤداة بوسـاطة هؤلاء الرجال، وعندما انتهوا من إلباسه على الطريقة التي أرادوها، قاموا بحشـر بعض الطعام تحت الأساور الصفيح المدلاة من فوق وجهه. على الرغم من أنه مضغ بطريقة آلية، فإن أغلب الطعام فـي النهاية وقع خارجه، على الأرض. أعادوه مرة ثانية إلى الجوال وتركوه هناك.

وصلـوا بعد يومين إلى أحد مخيماتهـم الخاصة. كان هناك نسـاء وأطفال في الخيام، وكان على الرجال أن يقودوا الكلاب المزمجـرة بعيدا، تلـك التي تركوها هناك لحراسـتهم. وعندما أخرجوا الأسـتاذ من جواله، كانت هناك صرخات خوف ورعب، واسـتغرق الأمر عدة ساعات حتى اقتنعت آخر امرأة في المكان أنـه كان غير مـؤذ، على الرغم من أنه لم يكن هناك شـك منذ البدايـة أنه كان صيدا ثمينا. بعد أيـام قليلة بدأوا في التحرك

مرة ثانية، أخذوا معهم كل شيء، وكانوا يسافرون في الليل فقط حيث تصبح الأرض أكثر أمنا ودفئا.

حتى عندما التأمت جروحه كلها ولم يعد يشعر بمزيد من الألم، لم يعد الأستاذ إلى التفكير مرة ثانية، كان يأكل ويتبرز ويرقص عندما يؤمر، يتقافز بحماقة إلى أعلى وإلى أسفل حيث يجلب السرور والبهجة إلى الأطفال، لأنه بصفة أساسية كانت تصدر عنه قعقعة رائعة تحدث صخبا. وبوجه عام كان ينام أثناء حرارة اليوم، بين الجمال.

استمرت القافلة في طريقها الجنوبي الشرقي، وتجنبت كل ما هو حضري مستقر، وفي غضون أسابيع قليلة وصلوا إلى هضبة جديدة، برية تماما وذات نباتات قليلة. هناك نصبوا المعسكر وبقوا، بينما انطلق قطيع حيواناتهم حرا ليرعى. كان الجميع سعداء في ذلك المكان، كان الطقس أكثر برودة ولكن بشكل معتدل وكانت هناك بئر تبعد عنهم ساعات قليلة فقط في طريق ترابية غير مطروقة تقريبا. وهنا داعبت أذهانهم فكرة أخذ الأستاذ إلى «فوجارا» وبيعه إلى «الطوارق».

مضت سنة كاملة قبل تنفيذ هذه المسألة. بمرور الوقت كان الأستاذ قد صار أكثر تدريبا بصورة جيدة. وكان بإمكانه أداء شقلبة يدوية، والقيام بسلسلة من الضوضاء المزمجرة المرعبة، التي كانت على الرغم من ذلك، عنصرا فكاهيا أكيدا، وعندما أزال أفراد قبيلة «الرقيبات» الصفيح عن وجهه اكتشفوا أنه بإمكانه أن يُكشِّر بطريقة تُعجب الآخرين أثناء رقصه. وقد علموه أيضا بعض الإشارات الأساسية الفاحشة التي لم تفشل

في انتزاع صرخات البهجة من النساء. وأصبحوا يحضرونه بعد ذلك فقط عقب الوجبات الوفيرة على وجه الخصوص، عندما يكون هناك عزف للموسيقى واحتفال مقام. وكان الأستاذ قد توافق بسهولة مع طقوسهم، وطوّر نوعا بدائيا من «البرامج» ليقدمه عندما يتم استدعاؤه من أجل الرقص، والتدحرج على الأرض، وتقليد حركات حيوانات بعينها، وأخيرا الاندفاع نحو المجموعة بغضب مفتعل، لرؤية الارتباك والمرح الصاخب الناتجين عن الاندفاع.

عندما رحل معه ثلاثة رجال إلى «فوجارا»، أخذوا أربعة جمال معهم، وركب الأستاذ جمله إلى حد ما منفرج الساقين على نحو طبيعي تماما. لم تؤخذ احتياطات لحراسته، سوى أنه بقي وسطهم، وكان دائما يبقى رجل منهم في نهاية هذا الركب. لاحت في مرمى أبصارهم الأسوار في الفجر، فانتظروا بين الصخور طوال النهار. وعند الغسق رحل أصغرهم، ثم عاد بعد ثلاث ساعات مع صديق يحمل عصا غليظة. حاولوا أن يجعلوا الأستاذ يقدم فقرته في ذلك المكان، لكن الرجل القادم من «فوجارا» كان في عجلة من أمره للعودة إلى البلدة، لذا انطلقوا جميعا على متن الجمال.

في البلدة ذهبوا مباشرة إلى بيت الرجل القروي، حيث تناولوا القهوة في الفناء وهم جالسون وسط الجمال. وفي ذلك المكان عاود الأستاذ القيام بعرضه مرة ثانيه، وفي هذه المرة كان هناك مرح ممتد وكثير من اصطفاق اليدين معا. تمت الاتفاقية، ودُفع مبلغ من المال، وانسحب رجال «الرقيبات»، تاركين الأستاذ في

بيـــت الرجل ذي العصا، الذي لم يتأخر في حبســـه في حظيرة صغيرة مغلقة في أحد أطراف الفناء.

كان اليـــوم التالي هو الأكثر أهمية في حياة الأســـتاذ، حيث عـــادت الآلام لتعصف بكيانه. جـــاءت مجموعة من الرجال إلى البيت، وكان من بينهم رجل وقور مُبجل، ثيابه أفضل من الآخرين الذين أمضوا وقتهم في تملقه، وإحاطته بقبلات حماســـية على يديه وعلى حواف ثيابه. حرص هذا الشـــخص على أن يتحدث باللغـــة العربية الفصحى مـــن وقت إلى آخـــر، ليبهر الآخرين، الذيـــن لم يتعلموا أي كلمة من القرآن الكريم. لذا جرى الحديث بينهـــم على النحـــو التالي تقريبا: «ربما فـــي الطريق إلى (عين صلاح). الفرنســـيون هـــناك أغبـــياء. الانتـــقـــام الإلهي وشـــيك. دعـــونا لا نتعجله. سَـــبِّح باســـم ربك الأعلى وصب جام لعنتك على الأصنام. بهذا الطلاء الذي على وجهه. خصوصا إذا رغب البوليـــس في النظر إليه عن قرب». أنصـــت الآخرون ووافقوا، أخذوا يومئون برؤوســـهم ببطء وبجدية. والأســـتاذ يستمع من مربطـــه بجوارهم، بـــدوره هو الآخر. حيـــث كان واعيا، بصوت الرجـــل العجوز فـــي العربية، وبتلك الكلمات التي تســـللت إليه للمرة الأولى منذ أشـــهر عديدة. وتحدث ضوضاء، ثم: «الانتقام الســـماوي يقترب». وبعد ذلك: «إنه شـــرف لي. خمسون فرنكا كافية. احتفـــظ بمالك. جيد». والقهوجـــي الجالس القرفصاء بالقرب منه عند حافة المنحدر. ثم «اللعنة على الأصنام» وتمتمة كثيرة. تحوّل الأستاذ عنهم وهو يلهث على الرمال ونسي أمرهم. لكـــن الألم كان قد بدأ. بدأ كنوع مـــن الهذيان، لأنه كان قد بدأ

يسترد وعيه مرة ثانية. وعندما فتح الرجل الباب ووخزه بعصاه، صدرت عنه صرخة غضب، فضحك الجميع.

أنهضـــوه على قدميـــه، لكنه لم يرقص. وقـــف قبالتهم، وهو يحدق في الأرض، ويرفض التحرك في عناد. كان المالكُ غاضبا ومتضايقا جدا لضحكات الآخرين التي جعلته يشـــعر أنه مجبر على إقصائهم، قال إنه سينتظر الوقت الأكثر ملاءمة كي يعرض مملوكه، لأنه لم يجســـر على إظهار غضبـــه أمام الرجل الكبير. ومع ذلك، عندما غادروا ســـدد للأستاذ ضربة عنيفة على كتفه بعصاه، ونعته بألفاظ فاحشـــة كثيرة، ثم خرج إلى الشارع، مغلقا البوابة وراءه في قوة. ســـار مباشـــرة نحو الشارع الذي توجد به نســـاء قبيلة «أولاد نايل»، لأنه كان متأكدا من أنه ســـيجد رجال قبيلة «الرقيبات» هناك وســـط الفتيات، ينفقـــون المال. وهناك فـــي إحدى الخيام وجد أحدهم مازال في الســـرير، بينما كانت امرأة من «أولاد نايل» تغســـل أكواب الشـــاي. مضى إلى الداخل وتقريبا قطـــع رأس الرجل قبل أن يحاول الثاني حتى الاعتدال. ثم ألقى شـــفرة الحلاقة على السرير وفر هاربا. رأت امرأة من «أولاد نايل» الدم، فركضت صارخة من الخيمة في اتجاه الخيمة التالية، فظهرت منها أربع بنات أســـرعن معا إلى المقهى وأخبرن القهوجي أن «الرقيبي» قد قتله هذا الرجل. كانت المســـألة فقط مســـألة وقت ســـاعة زمن واحدة قبل أن تقبض عليه الشـــرطة العســـكرية الفرنسية في بيت أحد أصدقائه، وجرَّته إلى الثكنة. في تلك الليلة لم يكن لدى الأســـتاذ أي شـــيء ليأكله، وبعد ظهر اليـــوم التالي، مع تأثير الوعي الحاد البطيء الذي ســـببه الجوع

المتزايد، مشى الأستاذ بطريقة عشـوائية نحو الساحة والغرف المفضيـة إليها. لم يكن هناك أحـد. كان هناك تقويم معلق في إحدى الغرف على الحائط، راح الأستاذ يشاهده في عصبية، مثل كلب يراقب ذبابة أمام أنفه. كان على الورق الأبيض أشياء سوداء مكتوبة أحدثت وقعا في رأسـه. وقد سمع أصواتا داخل رأسه: «بقالة سابل الكبيرة. يونيو. الإثنين، الثلاثاء، الأربعاء...[11]».

علامات الحبر الأسـود التي كونت سيمفونية ربما تكون قد رسـمت منذ وقت طويل، لكن عنـد إنجازها كأصوات أصبحت مركزة وعظيمة. نوع الموسيقى الشعورية هذا هو الذي بدأ يشعر الأستاذ بعزفه في رأسه، وكانت شدة الأصوات تتزايد كلما نظر إلـى الحائط الطيني، وكان لديه إحسـاس أنه كان يؤدي ما كان مكتوبا له منذ فترة طويلة. شعر داخله بما يشبه البكاء؛ شعر بما يشبه الهدير يخرج منه في أنحاء البيت الصغير، وبأنه كان يقلب ويحطم الأشـياء القليلة الهشـة القابلة للكسر. صارت عاطفته لا تزيـد عن هذا الحد مـن الرغبة العارمة. لـذا، جأر بصوت عميق عال قدر اسـتطاعته، مُهاجما البيت وملحقاته. ثم هاجم الباب المؤدي إلى الشارع، الذي قاوم لبرهة ثم تحطم في النهاية. طلـع عبر الفتحة التي صنعتها الألواح التي مزقها إربا، ولا يزال مسـتمرا في زئيره وهزِّه ذراعيه في الهواء ليحدث صوتا عالي الجلبـة قدر الإمكان، بدأ يعدو بسـرعة بطول الشـارع الهادئ الممتد نحـو مدخل البلدة. قليل من النـاس نظروا إليه بفضول كبيـر. بينمـا كان يعبر الجراج، آخر مبنى قبـل المدخل الطيني

(١١) وردت بالفرنسية - المترجم.

المُقنطـــر العالي الـــذي تبدأ الصحراء من عنـــده وإلى بعيد، رآه جندي فرنسي. «غير معقول[١٢]» قال لنفسه، «متدين مهووس».

مـــرة ثانيـــة كان وقت الغروب. جرى الأســـتاذ تحـــت البوابة المقنطرة، وقد رفع وجهه صوب الســـماء الحمراء، وبدأ الهرولة عبر درب «عين صلاح»، في خط مستقيم نحو الشمس التي كانت على وشـــك الغروب. من خلفه، من الجراج صوَّبَ الجندي طلقة نارية عشـــوائية، متمنيا له حظا ســـعيدا. مرّ صفير الرصاصة بشـــكل خطير قرب رأس الأستاذ، الذي ارتفع صراخه الساخط النـــادب وراح يلوّح بذراعيه، وهو يقفز إلـــى أعلى في الهواء كل بضعة خطوات، في نوبة من الرعب.

راقبه الجندي لفترة وهو يبتســـم، فيما أخذ الشـــبح المتواثب في التضاؤل في ظلام المســـاء المقبل، وكانت قعقعة الصفيح قد صارت بعد قليل جزءا من الســـكون العظيـــم هناك في الخارج فيما وراء البوابة. كان سور الجراج كلما مال عليه الجندي يجده ما يزال يبعث الحرارة، التي خلفتها الشمس فيه، لكن على الرغم من ذلك كانت البرودة القمرية تتزايد في الجو.

---

(١٢) وردت بالفرنسية – المترجم.

توقف قصير إلى كورازون

«لكن لماذا ترغب في أن يرافقنا قليل من الرعب مثل هذا؟ إن هذا غير منطقي. أنت تعرف ما هي عليه هذه المخلوقات».

«أعرف ما هي عليه»، قال زوجها. «إنه لمن المسلي مراقبتها. أيا كان ما يحدث، لو كانت لديّ هذه الفرصة للنظر إليه والتمعن، فسأتذكر إلى أي مدى كنت غبيا دائما عندما كنت أنزعج».

مال بشدة فوق الدرابزين ونظر إلى أسفل في تركيز حيث مرسى السفينة. كانت هناك سلال معروضة للبيع، ودمى منحوتة بغير إتقان من المطاط الطبيعي الصلب، ومحافظ جلدية وأحزمة مصنوعة من جلود الزواحف، وقليل من جلود الثعابين غير المشغولة مفرودة عن آخرها. وضع بمعزل عن هذه البضائع، قرد ضئيل الحجم ذو فرو، كان يجلس في أحد الأقفاص الواقية بعيدا عن حرارة الشمس. وكانت يداه مطبقتين، وجبهته مجعدة في قلق حزين.

«ألا يبدو رائعا؟»

«أعتقد أنك شخص لا يطاق، ومهين بعض الشيء»، أجابت هي.

استدار لينظر إليها «هل أنتِ جادة ؟» وتبين أنها كانت كذلك.

أخذت تتأمل الصندل الذي ترتديه في قدميها وجانب سطح السفينة الضيق من خلفه: «أنت تعرف أنني لا أبالي فعلا بكل هذا الهراء، أو بجنونك. فقط دعني أنتهي مما أريد قوله».

أومأ برأسه موافقا، عائدا ببصره مرة ثانية إلى الرصيف المصنوع من المعدن، والقرية ذات الأسطح المصنوعة من الصفيح الرديء من خلفه. «لقد تم الأمر من دون أن أقول إنني ليست لديّ رغبة أو أي شيء من هذا القبيل، أو أننا ليس من المفترض أن نكون هنا معا. وأنك يجب أن تكون في هذا المكان بمفردك ...».

«لا يمكنك أن تقضي شهر العسل بمفردك»، قال مقاطعا.

«ربما تستطيع أنت»، وضحكت ضحكة مقتضبة.

مد يده على امتداد الدرابزين محاولا الوصول إلى يدها، لكنها سحبت يدها بعيدا، قائلة، «أنا لم أفرغ بعد من حديثي معك. توقعت أن تكون مجنونا، وتوقعت الاستسلام لك بشكل مستمر منذ البداية. أنا مجنونة أيضا، أنا أعرف هذا. لكنني أتمنى أن تكون هناك طريقة ما ليمكنني أن أشعر لمرة واحدة فقط بأن استسلامي كان يعني شيئا بالنسبة إليك. أتمنى أن تعرف كيف تكون رحيما ورؤوفا في ما يتعلق بهذا».

«هل تظنين أنك تسايرينني كثيرا جدا ؟ أنا لم ألحظ ذلك». كان صوته حزينا.

«أنا لا أسايرك على الإطلاق. أنا فقط أحاول مواصلة العيش معك في رحلة طويلة مجهدة في عدد كبير من الكبائن الصغيرة الضيقة في سلسلة لا تنتهي من السفن النتنة».

«ما الذي تقصدينه؟» صرخ باهتياج، «كنت تقولين دائما أنكِ تحبين السفن، هل عدلت عن رأيك، أم تخليت عنه كلية؟»

استدارت ومضت نحو مقدمة المركب، «لا تتحدث إليّ»، قالت.

«اذهب واشتر القرد الذي يروق لك».

كان يتبعهـــا، علـــى وجهه تعبيـــر من الاضطـــراب أو الجزع الشديد.

«أنت تعرفين أنني لن أشـــتريه إذا كان شـــرائي له سيجعلك تعيسة».

«ســـأكون أكثر تعاســـة إن لـــم تفعل، لذا مـــن فضلك اذهب واشـــتره». توقفت واســـتدارت «أنا أرغب فـــي امتلاكه، أنا حقا راغبة، أعتقد أنه لطيف».

«أنا لن أتمكن من فهمكِ على الإطلاق».

ابتسمت «أعرف. هل يضايقك هذا كثيرا جدا؟»

بعد أن اشـــترى القرد وربطه في القائم المعدني للســـرير في الكابينة، قام بنزهة لاستكشـــاف الميناء. كانت البلدة مشيدة من الصفيح المجعد والأسلاك الشائكة، وكانت حرارة الشمس مؤلمة، حتى في وجود سحب الضباب المنخفضة التي كانت تحجب رؤية الســـماء. كان الوقت منتصف اليوم وقلة من الناس في الشوارع. بلغ طرف البلدة ســـريعا. وفي هـــذا المكان بينه وبين الغابة يمتد جـــدول ضيق بطيء الحركة، مياهه بلون القهوة الســـوداء. كانت هناك مجموعة صغيرة من النساء يغسلن الملابس، وأطفال صغار يغطسون. وكانت ســـرطانات رمادية ضخمة تخطو مسرعة بين الفتحـــات التي صنعتها في الطمي علـــى امتداد الجدول. جلس فوق بعض الجذور الملتفة بشـــكل معقد أســـفل إحدى الأشجار وأخـــرج المفكرة التي كان يحملها معه دائما. في اليوم الســـابق، فـــي بار في «بدريناليس»، كان قد كتب: «وصفة لتبديد الانطباع

بالشـــناعة المنبثقة من أحد الأشـــياء، ركز الانتباه على الموضوع أو الموقــف المعطى أو المطــروح حتى تتمكــن العناصر المتنوعة التي فيه، وجميعها مألوفة، من أن تعيد تجميع نفســها. البغض الشديد ليس بأكثر من نموذج غير مألوف».

أشــعل ســيجارة وأخذ يراقب المحاولات اليائســة للنســوة لغســل الملابس الرثة. ثم ألقى بالعقب المشتعل بالقرب من أحد الســـرطانات وكتب بتمهل: «تحتاج المرأة، أكثر من أي شيء آخر، إلى مراقبة شعائرية أو طقوسية كاملة لتقاليد السلوك الجنسي. هذا هو تعريفها للحب». فكر الزوج في الســخرية التي ستنشــأ حتمــا إذا نطق بمثــل هذا التصريح إلى الفتــاة عند عودته إلى ظهر السفينة. بعدما نظر إلى ساعته، كتب في سرعة: «المدنية، أي، التربيــة أو التعليم العقلاني، جرى اســتنباطها وتوريثها عن طريق وبين الذكور، لصالح الذكور، لذا فهي تحبط المرأة وتكبتها وتشوشها، إنها تثأر ...»

طفلان عاريان، تركا لعبهما على النهر، وجريا يصرخان فمرا به، ناثريــن قطرات من المياه فوق الورق. ناداهما لكنهما واصلا مطاردتهمــا دون أن يلتفتا إليه. وضع قلمه الرصاص ودفتره في جيبــه، ثم ابتســم وراح يراقبهما وهما يعدوان ســريعا أحدهما خلف الآخر فوق التراب.

عندما عاد إلى السفينة، كان الرعد ينطلق من الجبال المحيطة بالميناء، وكانت العاصفة قد بلغت أوج عنفوانها، بالضبط كما لو أن الأمر كان يقع في عرض البحر.

كانت الزوجة جالسة في سريرها، تنظر عبر الكوة المفتوحة.

كان صدى الضجيج المـــدوي للرعد من جانب الخليج إلى الآخر كما لو كانـــت الأصداء تنفث غضبها تجـــاه البحر المفتوح. رقد منحنيا إلى أعلى فوق السرير المقابل، وراح يقرأ.

«لا تسندي رأسك على ذلك الحائط المعدني، إنه موصل جيد جدا للصواعق»، قال ناصحا.

قفزت إلى الأسفل نحو الأرض وذهبت إلى حوض الغسيل.

«أين هذان الإناءان من «الوايت هورس» اللذان اشـــتريناهما بالأمس؟»

أومـــأ إليهما «على الـــرف الموجود بجانبك. هل ســـتتناولين شرابا؟»

«سأتناول الشراب، نعم».

«في هذا الحر؟ لماذا لا تنتظرين حتى يصفو الجو، وتتناولينه على سطح السفينة؟»

«أنـــا أرغب في تناوله الآن، فعندما يصفو الجو لن أصبح في حاجة إليه».

قامت بصب الشـــراب ثـــم أضافت إليه الماء مـــن دورق كان موضوعا على الرف الحائطي الذي يعلو حوض الغسيل.

«أنت تدركين ما تفعلينه، بالطبع».

حملقت إليه وسألته: «ما الذي أفعله؟»

هزّ كتفيه، ثم قال «لا شـــيء باســـتثناء أنك فقط تستسلمين إلى حالة انفعالية عابرة. من الممكن أن تقرئي، أو تســـتلقي في الفراش لتستريحي فيغلبك النعاس». حملت كأسها في إحدى يديها، وباليد الأخرى سحبت الباب تفتحه على الممر، وخرجت.

أصيب القرد بالفزع من جراء صوت غلق الباب بعنف، فقفز ووقف فوق حقيبة السفر. تردد لبرهة، ثم أسرع إلى أسفل سرير صاحبه، الذي أصدر عدة أصوات تشبه أصوات القبلات لإغرائه بالخروج، ثم عاد إلى كتابه. سرعان ما بدأ يتخيلها وحيدة وغير سعيدة فوق سطح المركب، فقطع عليه الفكر متعة القراءة. أجبر نفسه على أن يستلقي في هدوء وسكون لعدة دقائق، والكتاب مفتوح ووجهه مقلوب فوق صدره. كان المركب الآن يتحرك بكامل سرعته، وكانت أصوات الماكينات أكثر صخبا من العاصفة في السماء.

سرعان ما نهض وذهب إلى السطح. كانت اليابسة في الوراء محجوبة بالفعل بسبب المطر المنهمر، وكانت تفوح من الهواء رائحة مياه البحر. كانت الزوجة تقف بمفردها بقرب الدرابزين، تنظر إلى أسفل حيث الأمواج، وهي تحمل الكأس فارغة في يدها. تملكه إحساس بالعطف والحنان عندما راقبها، لكنه لم يقو على السير نحوها والتعبير لها بكلمات مواسية عن الإحساس الذي كان يشعر به.

عند عودته إلى الكابينة وجد القرد في سريره، يقلب في بطء صفحات الكتاب الذي كان يقرأ فيه.

انقضى اليوم التالي في تجهيز هادئ للحقائب استعدادا للنزول من السفينة، فقد كان عليهما في «فيلالتا» أن يستقلا سفينة أخرى أصغر لتنقلهما إلى الضفة الأخرى للدلتا.

عندما دخلت بعد العشاء لتحزم أمتعتها، وقفت دقيقة تتفحص الكابينة. «لقد أفسدها وقلب كيانها، تماما»، قال زوجها،

ثم أضاف «لكنني وجدت قلادتك خلف حقيبة سـفري الكبيرة، وعلى أي حال فقد قرأنا جميع المجلات».

«أظـن أن هـذا يدل على سـليقة الإنسـان البدائي المحفزة للتدمير»، قالت، وهي تركل كرة مجعدة من الورق فوق الأرضية. «وفـي المرة القادمة عندما يحاول أن يعضك، سـتكون المسـألة إشارة إلى عدم الأمان الأساسي للإنسان».

«أنت لا تدرين إلى أي حد تكونين مثيرة للضجر عندما تحاولين أن تكوني ساخرة. إذا أردت مني أن أتخلص منه، سأفعل. سيكون ذلك أمرا سهلا تماما».

انحنت لتلمس الحيوان، لكنه تراجع في خوف واضطراب إلى أسفل السرير. نهضت. «أنا لا أبالي به. ما يقلقني هو أنت. إنه لن يسـتطيع التوقف عن أن يكون مصدرا للرعب والفزع بدرجة ما، لكنه سيظل يذكرني بأنك تستطيع أن تكون كذلك إذا أردت».

بـدا على وجه زوجها التظـاهر بالهدوء وعـدم التأثر، وهـو مـا كان يتميز به عندمـا كان يعتزم ألا يفقـد أعصابه. وكانت الزوجـة تعـرف أنه لن يتملكـه الغضب مادامت غير مسـتعدة لاسـتقبال الهجوم منه. لم يقل شيئا، وأخذ يدق بأظافره إيقاعا متكررا فوق غطاء إحدى حقائب الملابس.

«من الطبيعي أنني لا أقصد أنك مرعب حقا»، قالت مواصلة حديثها.

«لماذا لا تقصدين هذا؟»، قال، وهو يبتسم بلطف. «ما الخطأ في النقد؟ ربما أنا كذلك، بالنسـبة إليك. أنا أحب القرود لأنني أراها مثل نموذج مصغر للإنسـان. أنت تعتقدين أن البشـر هم

شيء آخر مختلف، شيء روحاني، أو الله يعلم ما الذي تعتقدينه بشأنهم. أيا كان ما تعتقدينه، فقد لاحظت أنك الشخص الوحيد الــذي يبدو متحررا دائما من الوهم ويمضي في التســاؤل كيف يكون الجنس البشري شديد التوحش. أعتقد أن الجنس البشري بخير».

«أرجو ألا تتمادى في هذا»، قالت. «أنا أعرف نظرياتك. إنك لن تقنع نفسك بها أبدا».

عندما انتهيا من حزم أمتعتهما، أوى كل منهما إلى فراشــه. وبينما كان يطفئ النور من مفتاح خلف وســادته، قال، «أخبريني بصراحة، هل تريدين مني أن أعطيه إلى خادم السفينة؟»

رفســت ملاءتها في الظلام. كان بإمكانها أن ترى عبر الكوة، على مقربة من الأفق، النجوم والبحر الهادئ وهو ينساب أسفلها مباشرة. قالت من دون تفكير، «لماذا لا تسقطه من فوق السفينة في البحر؟»

في الصمــت الذي تلا ردها أدركت أنها تحدثت بطيش، لكن النســيم العليل الذي كان يتحرك بتراخ فوق جســدها جعل من الصعب عليها بشــكل متزايد أن تفكــر أو تتحدث، وبينما كانت تســقط في النوم بدا لها أنها سمعت زوجها يقول في بطء، «أنا واثق من رغبتك في ذلك. أنا واثق من رغبتك في ذلك».

فــي اليوم التالــي ظلت نائمــة حتى وقت متأخــر، وعندما استيقظت لتناول الإفطار كان زوجها قد انتهى من إفطاره بالفعل وكان مستلقيا، يدخن».

«كيف حالك؟» سأل بابتهاج. «إن الخادم مبتهج بالقرد جدا».

شعرت بدفقة من المتعة. «آه»، قالت، واعتدلت جالسة، «هل أعطيتــه له؟ لم يكن عليك أن تفعل هذا». ألقت بنظرة خاطفة علــى قائمة الطعام؛ فقد كانت هي نفســها المتكررة في جميع الأيــام. «لكنني أظن فعلا أن هذا أفضل، فالقرد لا يتناســب وشهر العسل».

«أعتقد أنك على صواب»، قال موافقا.

كانت «فيلالتــا» خانقة ومملوءة بالغبــار. كانا قد اعتادا في السفينة الأخرى على وجود عدد قليل جدا من الركاب من حولهما، وكانت مفاجأة غير سارة حيث اكتشفا أن السفينة الجديدة كانت مكتظة بالمسافرين. كانت ســفينتهما الجديدة عبارة عن معدية ذات ســطحين مطلية باللون الأبيض، وكانت مزودة بعجلة كبيرة جدا ذات مجاديف في مؤخرتها. على الســطح الســفلي، الذي كان يســتقر على مســافة لا تقل عن قدمين فوق صفحة النهر، وقف الركاب ووضعت الحمولة اســتعدادا للرحلة، وكان الركاب والحمولة، مجتمعين ومحشــورين معا كيفما اتفق. كان الســطح العلــوي عبارة عــن صالون ودزينة أو أكثر مــن الغرف الضيقة. وفي الصالون، كان ركاب الدرجة الأولى قد قاموا بحل صررهم القماشية وفتحوا أكياسهم الورقية الخاصة بالطعام. كان الضوء البرتقالي للشمس الغاربة يغمر الحجرة.

تفحصا العديد من الغرف.

«تبدو خاوية كلها»، قالت.

«بإمكاني أن أفهم لماذا. ومع ذلك، فسوف تكون العزلة منجاة لنا».

«هذه الغرفة مزدوجة. وهي مزودة بستار سلكي في النافذة. هذه هي أفضل غرفة»، قالت.

«سأبحث عن الخادم أو شخص ما. ادخلي وتولي الأمر». أزاح الحقائب بعيدا عن الممر حيث كان الحمال قد تركها، وغادر بحثا عن أحد الموظفين. بدا الناس منتشرين في جميع أرجاء السفينة كلها، وكان عددهم قد تضاعف عن العدد الذي كان موجودا قبل دقائق قليلة. وأصبح الصالون مملوءا عن آخره، وأرضيته احتلها فريق من الركاب مع أطفالهم الصغار وامرأة عجوز، تمددوا بالفعل فوق البطاطين وورق الجرائد.

«إنه يشبه مركز قيادة جيش الخلاص[١٣] في الليلة التي تلت نكبة كبرى»، قال لنفسه بينما كان يقفل عائدا إلى الغرفة. «لم أتمكن من العثور على أي شخص. على أي حال، من الأفضل لنا البقاء هنا، فالغرف الأخرى الصغيرة بدأت تمتلئ عن آخرها».

«لست متأكدة تماما إن كان وجودي على السطح هو الأفضل لي»، صرحت. «يوجد هنا مئات الصراصير».

«وربما ما هو أسوأ»، أضاف، وهو ينظر إلى السريرين.

«الشيء الذي ينبغي علينا أن نفعله هو انتزاع هذه الملاءات القذرة بعيدا والاستلقاء على المراتب». راحت تحدق بعيدا في الممر، كان العرق يسير أسفل رقبتها. «هل تعتقد أن هذه السفينة تتمتع بالأمان؟»

«ما الذي تقصدينه؟»

«كل هؤلاء الناس. والحالة العتيقة التي عليها».

---

(١٣) جيش الخلاص: منظمة شبه عسكرية لنشر الدين ومساعدة الفقراء أنشأها في إنجلترا وليام بوث ١٨٦٥. [المترجم]

هزّ الزوج كتفيه.

«إنها ليلة واحدة فقط. غدا سنكون في سيناجا. وتقريبا صار الوقت ليلا الآن».

أغلقت الباب واستندت عليه، وهي تبتسم في فتور قائلة:

«أعتقد أن الأمر سيكون مضحكا».

«السفينة تتحرك!» صاح. «دعينا نذهب إلى السطح. إذا استطعنا الخروج إلى هناك».

تحركت السفينة القديمة ببطء عبر الخليج باتجاه الشاطئ الشرقي المظلم. كان هناك أناس يغنون ويعزفون على الجيتار. وفي السطح السفلي من السفينة كانت هناك بقرة تخور بشكل متواصل، وكان صوت اندفاع المياه الصادر عن المجاديف الضخمة أعلى من جميع الأصوات.

جلسا على السطح في وسط الحشد الصاخب، مستندين إلى الدرابزين، وراحا يراقبان طلوع القمر فوق أشجار المنجروف الكثيفة قبالتهما. بينما كانوا يدنون من الجانب الآخر للخليج، بدا كما لو أن السفينة قد تمكنت من شق طريقها مباشرة إلى الشاطئ، لكن فجأة ظهر مجرى مائي ضيق، وأخذت السفينة تنساب فيه بحذر واحتراس. وعلى الفور انتقل الناس إلى الوراء مبتعدين عن الدرابزين، وراحوا يحتشدون عند السور المقابل. بدأت أفرع الأشجار الموجودة على الضفة في الاحتكاك بالسفينة، وهي تحتك وتكشط على امتداد الحوائط الجانبية للكبائن، ثم صدرت عنها أصوات عنيفة تشبه أصوات الضرب بالسياط فوق سطح السفينة.

شــقا طريقهما وسط حشــد الناس والبضائع ثم سارا عبر الصالون إلى الســطح نحو الجانب الآخر للسفينة، وكان الشيء نفسه يحدث هناك.

«إنه جنون»، أعلنت. «إنه أمر أشبه بالكابوس. من الذي سمح بعبور قناة ليســت أكثر اتســاعا من الســفينة! إن هذا يصيبني بالعصبية. سأدخل لأقرأ».

ترك زوجها ذراعها. «إنك لن تتمكني أبدا من الدخول إلى أو اقتحام روح الشيء، أليس كذلك؟»

«قل لي أنت ما هي الروح، وسأنظر في إمكان الدخول إليها»، قالت وهي تتجه بعيدا.

لحق بها الزوج، «ألا ترغبين في النزول إلى أسفل حيث السطح الســفلي؟ يبدو لــي أنهم قد تجاوزوا الأمر هناك في الأســفل، أنصتي». ومد إليها يده. كانت قهقهة ضحكات متكررة تتصاعد من السطح السفلي.

«لســت راغبة بالتأكيد!» قالت صارخة، من دون أن تنظر إلى ما حولها.

هبط إلى أســفل. كانت هناك مجموعة من الرجال يجلسون فــوق أجولة منتفخة مــن الخيش وفوق صناديق خشــبية، وهم ينقــرون العملات المعدنيــة للتقامر، وكانت تقــف خلفهم بعض النسوة، يدخنّ سجائر سوداء ويصرخن في إثارة واهتياج. راقبهم جميعا عن قرب، وهو يفكر مليا في أنهم بعدد أقل من الأســنان المفقودة كانوا ســيصبحون أناسا وســماء. «نقص معدن عضوي في التربة»، قال لنفسه معلقا.

كان واقفا في الجانب الآخر من حلقة المقامرين، في مواجهته، شاب من أبناء البلد، مفتول العضلات، أوحت حافة قبعته ومظهره المتحفظ الفقير بأنه موظف رسـمي من نوع رديء بعض الشيء على متن السـفينة. شق المسـافر طريقه إليه بصعوبة، وتحدث إليه بالإسبانية:

«هل أنت موظف هنا؟»

«نعم يا سيدي».

«أنا فـي كابينة رقم ثمانية. هل بإمكانـي أن أدفع لك أجرة إضافية غير أجرة السفر؟»

«نعم يا سيدي».

«جيد».

بحث في جيبه عن محفظته، في الوقت نفسـه تذكر بانزعاج أنه تركها بأعلى وقد أغلق عليها في إحدى الحقائب.

بدا الموظف مترقبا. وكانت يده ممتدة.

«نقـودي في حجرتـي»، ثم أضـاف، «إنها مـع زوجتي. إذا صعـدت إلى أعلى في غضون نصف سـاعة فبإمكاني أن أدفع لك أجرتك».

«حاضر يا سيدي». أنزل يده ونظر إليه فقط. على الرغم من أنه أعطى انطباعا بالقوة الحيوانية بكل معنى الكلمة، فإن وجهه العريض الذي يشـبه نوعا ما وجه القرد بدا وسيما إلى حد ما، عندما تأمله الزوج. كانت مفاجأة له عندما، في اللحظة التالية، أسـفر ذلك الوجـه عن خجل طفولي عندمـا كان الرجل يقول، «سأذهب لأرش الكابينة للمدام».

«أشكرك. هل يوجد الكثير من الناموس؟»

أصدر الرجل صوت شـــخير وتذمر وهـــز أصابع إحدى يديه كما لو أنها لسعت لتوها.

«سترى قريبا كم يبلغ عددها»، ومضى بعيدا.

في تلك اللحظة ارتجت السفينة وراحت تهتز في قوة وعنف، وكانـــت هناك حالة من المرح الصاخب بين الركاب. شـــق الزوج طريقه إلى مقدمة السفينة ورأى أن الربان قد اصطدم بالضفة. كانت الأفرع والجذور المتشابكة على جانب الضفة على بعد أقدام قليلة من وجهه، وكانت أشكالها المعقدة غير الواضحة مضاءة عن طريق مصابيح السفينة. تقهقرت السفينة بجهد شديد فارتفعت مياه القناة المضطربة إلى مستوى سطح السفينة وغطت الحافة الخارجية. تقدموا إلى الأمـــام ببطء وحذر بمحاذاة الضفة إلى أن اتجهـــت مقدمة الســـفينة مرة ثانية إلى منتصـــف النهر، ثم استأنفوا السير. وفي الحال تقريبا انعطفت القناة بحدة شديدة إلى درجة أن الأمر نفســـه تكرر مـــرة ثانية، وفي هذه المرة ألقى الارتطام بالقاع بالزوج جانبا تجاه جوال كان يحتوي على شـــيء ما له رائحة كريهة وكان الجوال ناعما ومبتلا. صدر صوت رنين أحد الأجراس أســـفل الســـطح من داخل السفينة، وكان ضحك الركاب أكثر صخبا منه.

أخيرا تحركوا إلى الأمام، لكن ســـرعة الحركة الآن أصبحت أكثـــر بطئا لأن المنعطفات الحادة فـــي القناة قد تزايدت. وكانت جذل الأشجار تحت الماء تصدر صوت صرير، بينما كانت جوانب الســـفينة تكافح ضدها لتشق طريقها بقوة. وقد انكسرت بعض

الأفرع وتحطمت متساقطة فوق السطحين الأمامي والعلوي. وكان مصباح مقدمة المركب يتعرض لاجتياح المياه له.

«هذه ليست قناة قانونية»، دمدم مقامر، عرضا.

«ماذا؟» استفسر مجموعة من الركاب، معظمهم في نفس واحد.

«هناك عدد كبير من الممرات ضمن هذه الأنحاء. ولكن سفينتنا تنقل حمولة إلى كورازون».

انسحب اللاعبون إلى حلبة داخلية في أحد الأركان، كان عدد آخر من اللاعبين قد أعدوها عن طريق تحريكهم لبعض الصناديق، وقد تبعهم الزوج. وفي هذا المكان كانوا آمنين بعض الشيء من تطفل الأغصان، كما أن السطح هنا كان أفضل إضاءة، وقد أتاح له ذلك فرصة تدوين مادة في دفتره. وراح يكتب وهو منحن فوق صندوق كرتوني يحمل ماركة (فيرميفيوجو سانتا روسالي») ١٨ نوفمبر. نمر خلال وعاء دموي لأحد العمالقة. ليلة شديدة الظلمة». ومن جديد حدث في هذا المكان تصادم قوي مع الأرض جعله يتخبط بعنف ويسقط في قوة، هو وجميع الركاب الذين لم يكونوا مستندين أو مرتكنين إلى شيء ما، بين الأشياء الصلبة الثابتة في السفينة.

قلة من الرضع كانوا يصرخون، لكن معظمهم لا يزال نائما. كان الزوج قد انزلق إلى أسفل نحو السطح السفلي. وجد أن مكانه كان مريحا هناك بعض الشيء، فسقط في حالة من النعاس الخفيف الذي كان يقطعه بشكل غير منتظم صياح الناس وارتجاج السفينة.

عندما استيقظ في ما بعد، كانت السفينة ساكنة تماما، اللعب توقف، والناس نائمون، وقلة من الرجال كانوا يواصلون أحاديثهم في مجموعات صغيرة. لا يزال راقدا، ينصت. كان الحديث كله يدور حول الأماكن، كانوا يقارنون الأشياء البغيضة الموجودة في أجزاء متنوعة من الجمهورية: الحشرات، الطقس، الزواحف، الأمراض، نقص الغذاء، الأسعار المرتفعة.

نظر إلى ساعته. كانت الواحدة والنصف. بصعوبة نهض على قدميه، وشق طريقه إلى السلالم. فوق، في الصالون، كانت مصابيح الكيروسين تلقي بضوئها على عدد ضخم من الأشخاص الممددين بلا نظام. دخل إلى الممر وطرق على الباب الذي يحمل الرقم ثمانية. من دون أن ينتظرها لتجيبه، فتح الباب. كان الظلام في الداخل. سمع صوت سعال مكتوم في الجوار، فقرر أنها كانت مستيقظة.

«كيف الحال مع الناموس؟ هل جاء الرجل ذو الوجه الشبيه بالقرد ورتّب لكِ الكابينة؟» سأل.

لم تجب، لذا أشعل عود ثقاب. لم تكن في السرير الموجود على اليسار. أحرق العود طرف إصبعه. في ضوء العود الثاني، نظر في السرير الموجود جهة اليمين. كانت علبة مبيد حشري ملقاة هناك على الفراش، وقد صنع ارتشاح المادة المتسربة منها دائرة كبيرة من النفط على كيس الفراش الخالي. تكرر السعال. كان لشخص ما في الكابينة المجاورة.

«ما العمل الآن؟» قال بصوت عال، وشعر بالضيق لأنه ألفى نفسه متضايقا إلى هذه الدرجة. تملكه الارتياب. من دون أن

يشعل المصباح المعلق، اندفع يفتح حقيبة سفرها، وفي الظلام تحسس بيده سريعا في ما بين قطع الملابس الرقيقة، وأدوات التجميل. لم تكن زجاجة الشراب بداخلها.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تستسلم فيها للشراب بمفردها، وسيكون من السهل العثور عليها بين الركاب. ولكن، لكونه غاضبا، فقد قرر ألا يبحث عنها. خلع قميصه وسرواله واستلقى فوق السرير الموجود في الجهة اليسرى. لامست يده زجاجة منتصبة على الأرض بجانب رأس السرير. رفع نفسه من رقدته بقدر كاف لتشممها، كانت زجاجة شراب مملوءة حتى منتصفها. كان الجو حارا داخل الكابينة، احتسى السائل الدافئ اللاذع المتبقي باستمتاع وتلذذ ثم دحرج الزجاجة على أرضية الغرفة.

لم تكن السفينة تتحرك، لكن ثمة أصواتا كانت تصيح هنا وهناك، وقد وقع ارتطام عرضي محسوس، لأن جوالا به شيء ما ثقيل ألقي عن ظهر السفينة إلى الخارج. نظر من النافذة الصغيرة المربعة ذات الساتر الواقي. في الأمام، كانت الإضاءة المنبعثة من مصابيح السفينة ضعيفة، قلة من الرجال السود، عراة تسترهم سراويل بالية، يقفون فوق أرض زلقة من الطمي ويحدقون ناحية السفينة. ورأى على امتداد الخلفية من بين التعقيدات والتشابكات اللانهائية للجذور والجذوع التي كانت خلفهم لهيب نار تضطرم في الهواء، لكنها كانت بعيدة في مؤخرة المستنقع. كان الهواء مشبعا برائحة الماء الراكد والدخان.

انتهز فرصة هذا الصمت النسبي، فاستلقى وحاول أن ينام، لم يكن مندهشا، على أي حال، من الصعوبة التي وجدها كي يسترخي. فقد كان من الصعب عليه دائما أن ينام عندما لا تكون هي موجودة بالغرفة. كان يفتقد الراحة التي يحدثها وجودها، وكان هناك أيضا الخوف من الاستيقاظ عند عودتها. عندما كان يخلو إلى نفسه، كان يشرع على الفور في صياغة الأفكار وترجمتها إلى جمل، وكان رصدها الآن يبدو أكثر أهمية لأنه كان يستلقي في دعة في الظلام. كان يفكّر فيها أحيانا، لكن فقط باعتبارها كائنا غير واضح تضفي شخصيته نكهة على تتابع خلفيات الأحداث وتعاقبها. كثيرا ما كان يستعرض اليوم بالكامل تماما، قاصدا إقناع نفسه بأن ذلك اليوم قد نقله بعيدا قليلا إلى حد ما عن طفولته. وفي الغالب كانت غرابة أحلامه في كل مرة تقنعه، بعد انقضاء أشهر على كل حلم منها، بأنه في النهاية قد تجاوز المنعطف، وأنه أخيرا قد ترك وراءه المكان المظلم، وأنه صار خارج نطاق السمع. آنذاك، وبينما كان نائما ذات مساء، وقبل أن يتاح له الوقت الكافي لأن يرفض، وجد نفسه يحدق عن كثب في أشياء كان قد نسيها منذ فترة طويلة: طبق، كرسي، وسادة ذات دبابيس، وإحساس مألوف بالعبث اللانهائي واللاجدوى، ويعاوده الحزن.

دار المحرك، وبدأت من جديد ضوضاء الماء الصاخبة الناجمة عن مجاديف العجلة الضخمة. كانوا يرحلون عن كورازون. كان الزوج مسرورا. «الآن لن أتمكن من سماعها عندما تدخل وتثير جلبة هنا وهناك»، قال لنفسه، وسقط في نوم خفيف.

كان يهــرش ذراعيــه وســاقيه. أصبح الانزعــاج الطويل المتواصل المجهــول المصدر في نهاية الأمــر يحتل وعيه كله، فجلس منتصبا في فراشــه غاضبا. كان بإمكانه سماع صوت آخر غطى على الأصوات الصادرة عن السفينة. كان الصوت يأتي عبر النافذة، مرتفع بشكل فظيع وفي نغمة بالغة الصغر، صغيــرة جدا لكنهــا متواصلة في الطبقــة والحدة. قفز عن ســريره واتجه نحو النافذة. كانــت القناة في هذا المكان أكثر اتساعا، ولم تعد النباتات المتدلية تلامس جوانب السفينة. في الهواء، وفــي الجوار، وعلى مبعدة، وفي كل مكان، كان صوت الطنين الرقيق لأجنحــة الناموس. كان مشــدوها، ومبتهجا بشــكل كلي بســبب جدة الظاهرة. وراح يراقب للحظة العدد الضخم الأسود المتشــابك وهو ينزلق عابرا النافذة. عندئذ، وبســبب هرش جلده تذكر الناموس الموجــود داخل الكابينة. كان الســتار الســلكي لا يصل إلى قمة النافذة تماما، وكانت هناك مساحة وافرة متسعة للبعوض ليعبر منها. وعلى الرغم مــن أنه كان يحرّك أصابعه في الظــلام بطول الإطار للعثور علــى المقبض فإنه كان بإمكانه أن يلمس الكثير من البعوض، كان هناك الكثير منه وبدرجة كبيرة إلى هذا الحد.

لأنه كان مستيقظا الآن بشكل كلي، فقد أشعل عود ثقاب واتجه إلى سريرها. بالطبع لم تكن موجودة هناك. رفع بخاخة الفليت وقام برجّهــا. كانت البخاخة فارغة، وبينمــا كان العود ينطفئ، تبين أن البقعة التي كانت فوق المرتبة قد انتشــرت واتسعت إلى مسافة أبعد على نحو مطرد.

«يا ابن العاهرة!»، همس، وعاد إلى النافذة ليسحب السلك في قوة إلى أعلى ليتمكن من سد الفتحة. بينما كان يحرره من قبضته، سقط إلى الخارج في المياه، وفي الحال تقريبا أصبح واعيا بالتربيت الخفيف للأجنحة الصغيرة كلها وقد انتشرت حول رأسه. بقميصه التحتي وسرواله اندفع مسرعا إلى الممر. لم يطرأ أي تغيير في الصالون. الجميع نائمون تقريبا. كانت هناك أبواب ذات ستائر سلكية تفضي إلى السطح. فحصها، فبدت له أكثر ثباتا في تركيبها. مست قلة من البعوض وجهه مسا رفيقا، لكنها لم تكن تشكل حشدا. انحشر بين سيدتين كانتا نائمتين جالستين ومؤخرة كل منهما إلى الحائط، وظل بينهما في وضع غير مريح وخطير حتى غفا مرة ثانية. لم يمر وقت طويل قبل أن يفتح عينيه ليجد ضوء الفجر الباهت في السماء. آلمته رقبته ألما خفيفا. نهض ومضى إلى السطح، الذي كان قد احتشد فوقه بالفعل معظم الناس الذين كانوا في الصالون.

كانت السفينة تتحرك عبر مصب نهر عريض محاطة بمجموعة النباتات والأشجار التي نمت خارجة من تحت المياه الضحلة. على امتداد جوانب الجزر الصغيرة وقفت طيور البلشون، وكانت شديدة البياض في الضوء الرمادي المبكر للصباح إلى درجة أن بريقها بدا نابعا من داخلها.

كانت الساعة الخامسة والنصف. في هذه اللحظة كان متوقعا وصول السفينة إلى «سيناجا»، حيث يكون التقاء السفينة في رحلتها الأسبوعية بالقطار الذي يمضي إلى الداخل. كان لسان رفيع من الأرض قد بدأ يتضح بالفعل في المقدمة للأشخاص

ذوي الأبصار الحادة المتلهفة إلى انتهاء الرحلة. كان النهار يشرق بسرعة، والسماء والمياه لهما اللون نفسه. كان سطح السفينة معبقا برائحة المانجو ذات الزيوت المتطايرة، حيث كان الناس يشرعون في تناول إفطارهم.

في تلك اللحظة على الأقل بدأ يشعر بوخزات مفاجئة من القلق المزعج والمؤلم في ما يتعلق بالمكان الذي من المحتمل أن تكون زوجته فيه، فقرر أن يقوم ببحث سريع وشامل في أرجاء السفينة. سوف يكون بالإمكان تمييزها على الفور وسط أي مجموعة. في البداية فحص الصالون وفق خطة منظمة، ثم استنفد احتمالات العثور عليها في السطحين العلويين. ثم نزل السلالم، حيث كان القمار قد بدأ بالفعل مرة ثانية. في جهة المؤخرة من السفينة، كانت البقرة تقف مربوطة إلى قضبان من الحديد الرقيق، من دون أن تخور منذ فترة، وفي الجوار من مكان وقوفها كان هناك امتداد ارتجالي لأماكن إقامة، وكان من المحتمل أن تكون هذه الأماكن هي القمرات الخاصة بطاقم السفينة. بينما كان يجتاز بابا صغيرا، أنعم النظر عبر النافذة الفوقية التي تعلوه، فرآها راقدة إلى جوار رجل على الأرض. دخل بشكل آلي، ثم استدار وقفل عائدا. كانا نائمين، وبنصف ملابسهما. وفي الهواء الدافئ الذي كان يأتي عبر الستار السلكي لنافذة الباب الفوقية كانت هناك رائحة شراب جرى احتساؤه ورائحة شراب مسكوب على الأرض.

صعد الزوج السلالم، وكان قلبه يدق بعنف. في الكابينة، أغلق حقيبتي سفرها، وحزم حقائبه ثم وضعها بعضها إلى جوار

بعض عند الباب، ثم وضع معطفي المطر فوقها. ارتدى قميصه، ومشّط شعره بعناية، ثم ذهب إلى السطح. كانت سيناجا في الأمام مباشرة، في الظلال الصباحية للجبال: المرسى، وشريط من الأكواخ أمام الغابة الواقعة في الوراء، ومحطة القطار عن اليمين وراء القرية.

عندما رسوا، لمح الزوج ولدين صغيرين كانا يلوحان له ليلفتا انتباهه وهما يصرخان، «أمتعة!(١٤)»، وظلا يتعاركان في ما بينهما حتى تمكن من جعلهما يريان إصبعيه المرفوعين إلى أعلى. ولكي يؤكد لهما، أشار إلى كل منهما على التعاقب، وبدورهما ابتسما ابتسامة عريضة. كانا يقفان إلى جواره وهما لا يزالان مبتسمين حاملين الحقائب والمعطفين، وكان هو من بين أوائل ركاب السطح العلوي الذين نزلوا على اليابسة. وصلوا إلى نهاية الشارع حيث المحطة، وقد صاحبتهم أصوات الببغاوات التي كانت تصيح فيهم من فوق جميع الأسطح الجمالونية المصنوعة من القش على امتداد الطريق.

في القطار المنتظر (في المحطة) المزدحم بالركاب، وأخيرا وبعد وضع الأمتعة فوق الحامل، كان قلبه يدق بشكل أقوى من أي وقت مضى. أبقى على عينيه مثبتتين في ألم على الشارع الترابي الطويل المؤدي إلى المرسى في الخلف. وعلى مسافة بعيدة في نهاية الشارع، عندما انطلق صفير القطار، تراءى له شكل يرتدي الأبيض يجري بين الكلاب والأطفال باتجاه المحطة، لكن القطار بدأ يتحرك. وبينما كان يمعن النظر، راح الشارع

(١٤) وردت بالإسبانية. [المترجم]

يغيب عــن النظر. أخرج دفتره، وجلس واضعــا إياه في حجره، وهو يبتسم ويتطلع إلى منظر الخضرة الزاهية المتألق الذي كان يتحرك بسرعة متزايدة عبر النافذة.

القس دوو في تاكيت

ألقـــى القس دوو موعظته الأولى في صباح يوم أحد مشــرق بعــد وقت قصيــر من بداية موســم المطر. حضـــر مائة هندي تقريبا، بعضهم جاء من جميع أنحاء بالاتش في الوادي. جلســوا بهــدوء على الأرض بينما كان يتحدث إليهم لمدة ســاعة أو نحو ذلك بلغتهم المحلية. حتى الأطفال لم يتململوا، كان هناك صمت مطبــق تماما أثناء مواصلته الكلام. لكن كان في وســعه أن يرى أن اهتمامهــم كان مبعثه الاحترام وليــس الاهتمام أو الاكتراث. ولكونه رجلا يقظ الضمير فقد صار مضطربا لاكتشافه ذلك.

عندما أنهــى الموعظة، التي كانت تحمــل ملاحظاتها عنوان «معنــى يســوع»، نهضوا ببطء بــدأوا في الانتشـــار بعيدا، وهم يفكرون بوضوح تام في أشـــياء أخـــرى. كان القس دوو متحيرا. وقد أكد له الدكتور راموس الأســتاذ الجامعي أن سيطرته على اللهجة المحلية كافية لتمكين أبناء الأبرشية المتوقع حضورهم من متابعة مواعظه، ولم تكن لديه أي صعوبة في التحدث مع الهنود الذين رافقوه من سان جرينمو. وقف حزينا فوق المنصة الصغيرة المظللة بالقش في الخلاء أمام بيته وراقب الرجال والنســاء وهم يمشــون ببطء في اتجاهـــات مختلفة. كان لديه شــعور بأنه لم يتمكن من توصيل شيء إليهم بالمرة.

أحس فجأة بأنه من الواجب عليه أن يمكث مع الناس طويلا لبعض الوقت، فنادى عليهم ليتوقفوا. أداروا وجوههم بأدب تجاه السرادق حيث كان يقف، وظلوا يتطلعون إليه، دون أن يتحركوا، وانغمس كثير

مـــن الأطفال الصغار في إحدى الألعاب، وكانوا ينطلقون في صمت تقريبا في الخلفية. نظر القس ســريعا في ســاعة يده وتحدث إلى نيكولاس الذي كان يشــار إليه كأحد أكثــر الرجال ذكاء ونفوذا في القرية، طالبا منه أن يصعد ويقف إلى جواره.

بمجرد أن أصبح نيكولاس إلى جواره، قرر أن يختبره ببضعة أســئلة، «نيكولاس»، قــال بصوته الجاف الخفيــض، «ما الذي تحدثت أنا بشأنه اليوم؟»،

ســعل نيكولاس ونظر إلى ما وراء رؤوس الحشــد إلى حيث زرعت في الطين أســفل شجرة المانجو كمية كبيرة من البذور ثم قال: «السيد المسيح».

«نعــم»، وافقه القس دوو مشــجعا. «نعم، وماذا عن الســيد المسيح؟»

«كان إنســانا طيبا»، أجاب نيكولاس وقد بدت عليه علامات اللامبالاة.

«نعــم، نعم، لكن ماذا أيضــا؟» كان القس دوو قد نفد صبره؛ فارتفعت حدة نبرة صوته.

بقي نيكولاس صامتا. وفي النهاية قال، «سأذهب الآن»، ونزل مــن على المنصة ببطء. وبدأ الآخــرون ثانية في جمع متعلقاتهم والمضــي بعيدا. كان القــس دوو غاضبا للحظة، ثم أخذ مفكرته وإنجيله ودخل إلى البيت.

على الغــداء، كان خادمــه ماتيو، الذي كان قــد انتظر على المائــدة، والذي كان قد أحضره معه من أوكوســنجو، واقفا وقد استند إلى الحائط مبتسما.

«ســيدي»، قال، «يقول نيكولاس إنهم لن يأتوا ثانية لسماعك من دون موسيقى».

«موســيقى!» صرخ القــس دوو، واضعا شــوكته على المائدة، «سخف!» أي موسيقى؟ ليس عندنا موسيقى»

«يقول إن الأب في يالاكتين اعتاد أن يغني».

«ســخف!» قــال القس ثانيــة. «أولا، أنا لا أســتطيع الغناء، وعلى أي حال، هذا لم يســمع به من قبل! هذا غير مسبوق على الإطلاق! [١٥]»

«نعم، حقا؟ [١٦]» وافقه ماتيو.

كانت غرفة نوم القس حارة وخالية من النسمة حتى في الليل، ومع ذلك، كانت الغرفة الوحيدة في البيت الصغير التي بها نافذة تطــل على الخارج؛ وكان في إمكانه إغلاق الباب على الســاحة المزعجــة حيث يتجمع الخــدم دائما في النهــار لأداء أعمالهم ومحادثاتهم. اســتلقى أسفل ناموسيته المحكمة، وهو يستمع إلى نباح الكلاب في القرية بأســفل. كان يفكر في نيكولاس. اختار نيكولاس لنفســه في ما يبدو دور المتحدث بلســان القرية للعمل في حقل التبشير. تحركت شفتا القس الرفيعتان. «إنه مشاغب»، همس إلى نفسه «سأتحدث معه غدا».

وقف القــس دوو في وقت مبكر من صباح اليوم التالي خارج كــوخ نيكولاس. كان لكل بيت فــي تاكيت هيكل صغير خاص به: القليل من جذوع الأشــجار الحاملة لبعض القش لتحمي الفاكهة

---

(١٥) وردت بالإسبانية - المترجم.

(١٦) وردت بالإسبانية - المترجم.

المعروضة والطعام المطبوخ. راعى القس ألا يقترب من ذلك الهيكل الذي ينتصب على مقربة؛ شعر أنه بالفعل كالمنبوذ، وقد حذره الدكتور راموس من التدخل في أمور من هذا النوع. نادى القس على من بالداخل.

ظهرت في مدخل البيت فتاة صغيرة في السابعة من العمر تقريبا. نظرت إليه بانفعال للحظة بعينين كبيرتين مستديرتين قبل أن تصرخ صرخة طويلة حادة وتختفي في الظلام ثانية. انتظر القس ونادى ثانية. جاء الآن رجل من خلف الكوخ وأخبره أن نيكولاس سوف يعود عما قليل. جلس القس فوق جذع شجرة مقطوع. بعد فترة قصيرة وقفت الفتاة الصغيرة في المدخل مرة ثانية، وابتسمت بخجل هذه المرة. نظر إليها القس بقسوة. بدا له أنها كانت أكبر من أن تمضي هنا وهناك عارية. أشاح برأسه بعيدا وتفحّص بتلات حمراء سميكة لزهرة موز متدلية بالجوار. عندما نظر ثانية كانت قد خرجت ووقفت على مقربة منه، وهي لا تزال تبتسم. نهض وسار نحو الطريق، ورأسه منكس، كما لو كان مستغرقا في التفكير. في تلك اللحظة دخل نيكولاس من البوابة، وصدم به واعتذر القس، عن هذا الصدام.

«حسنا»، ثم برطم نيكولاس، «ماذا؟»

لم يكن زائره متأكدا من الكيفية التي ينبغي عليه أن يبدأ منها. قرر أن يكون لطيفا.

«أنا رجل طيب» قال ذلك مبتسما.

«نعم»، قال نيكولاس. «السيد المسيح رجل طيب».

«لا. لا. لا!» صرخ القس دوو.

بدا نيكولاس متحيرا في أدب.

شعر القس أن تحكمه في اللهجة لم يكن مناسبا لموقف كهذا، قرر القس بحكمة أن يبدأ مرة ثانية «هاشاكيوم خلق العالم. هل هذا صحيح؟»

أومأ نيكولاس موافقـا، وجثا على الأرض عند قدمي القس، ناظرا إليه، وضاقت عيناه في الشمس.

«هاشاكيوم خلق السماء». بدأ القس في الإشارة وهو يكمل قائلا، والجبال، والأشجار، وهؤلاء الناس. «هل هذا صحيح؟»

صدّق نيكولاس على كلامه لمرة الثانية.

«هاشاكيوم جيد، هاشاكيوم خلقك. أليس كذلك؟» جلس القس دوو ثانية فوق الجذع المقطوع.

تحدث نيكولاس أخيرا، «كل هذا الذي قلته صحيح».

سمح القس لنفسه بابتسامة رضا وواصل.

«هاشاكيوم خلق كل شيء وكل فرد لأنه عظيم وخيّر».

تجهم نيكولاس. «لا!» صاح. «هذا ليس صحيحا! هاشاكيوم لم يخلق الجميع. إنه لم يخلقك. لم يخلق الأسلحة أو السيد المسيح، أشياء كثيرة لم يخلقها!»

أغلق القس عينيه للحظة، ملتمسا القوة. «جيد»، قالها في النهاية في صوت صبور. «من الذي خلق الأشياء الأخرى؟ من خلقني؟ أخبرني من فضلك».

لم يتردد نيكولاس، وقال «ميتزابوك».

«لكن من هو ميتزابوك هذا؟» صرخ القس، جاعلا ملاحظة غاضبة تظهر في صوته.

لم يكن هنـــاك مرادف للكلمة التي تعنـــي الإله والتي عرفها القس دائما سوى كلمة هاشاكيوم.

«يخلق ميتزابوك كل الأشـــياء التي لا تنتمـــي إلينا هنا»، قال نيكولاس.

نهض القس، أخرج منديله ومسح جبينه.

«أنت تكرهني»، قال، ناظرا إلى أســـفل نحـــو الهندي. كانت الكلمـــة قوية جدا، لكنـــه لم يعرف كيف يقولهـــا بطريقة أخرى مغايرة.

نهض نيكولاس بسرعة ولمس ذراع القس بيده.

«لا. هذا ليس صحيحا، أنت رجل جيد، الجميع يحبونك».

تراجـــع القس دوو مرغما. كانت لمســـة اليد الســـمراء منفرة له بشـــكل مبهم. نظر بتوســـل إلى وجه الهنـــدي وقال، «لكن ألم يخلقني هاشاكيوم؟»

«لا».

كانت هناك وقفة طويلة.

«هل ســـتحضر في المرة القادمة إلى بيتي وتســـتمع إليّ وأنا أتحدث ؟»

بدا نيكولاس متضايقا.

«لدى الجميع عمل ينبغي عليهم القيام به»، قال.

«قال ماتيو إنك تريد سماع الموسيقى»، بدأ القس.

هزّ نيكولاس كتفية، «إنها غير مهمة بالنسبة إلي. لكن الآخرين سيأتون إذا كان عندك موســـيقى. نعم هذا صحيح إنهم يحبون الموسيقى».

«لكن أي موسيقى؟» صرخ القس في يأس.
«يقولون إن عندك بيترولا».
نظر القس بعيدا، وراح يفكر: «ليس هناك سبيل إلى إخفاء أي شيء عن هؤلاء الناس» ضمن أدواته المنزلية الأخرى والأشياء التي تركتها زوجته عندما توفيت، كان قد أحضر فونوغرافا صغيرا محمولا كان في مكان ما في حجرة الخزين مكوّما مع حقائب السفر الفارغة والملابس الخاصة بالطقس البارد.
«أخبرهم أنني سأشغل البترولا»، قال، مجتازا البوابة.
جرت الفتاة الصغيرة في أثره ووقفت تشاهده بينما كان يتقدم في الطريق.
في طريق عودته عبر القرية كان القس مضطربا لفكرة أنه كان وحيدا تماما في هذا المكان البعيد، وحيدا في كفاحه لتوصيل الحقيقة لأتباعه. لكنه عزى نفسه بتذكر أنه في الوعي الخاص بكل إنسان توجد العزلة؛ وعلى نحو موضوعي فإن الإنسان دائما جزء من شيء ما.
عندما وصل إلى البيت أرسل ماتيو إلى المخزن للبحث عن الفونوغراف المحمول. أحضره الولد بعد فترة، ونفض الغبار عنه ووقف بينما كان القس يفتح الصندوق. كان ذراع إبرة التدوير في الداخل.
أخرج ذراع التدوير وملأ الزنبرك، وكان هناك عدد قليل من الأسطوانات في الحجرة الصغيرة بالطابق العلوي. كانت أول أسطوانة تم اختبارها تحمل عنوان «دعنا نقوم بها»، ثم تلتها أسطوانة «الإيقاع المجنون»، و«افتتاحية الفرقة»، ولم يجد القس

دوو من بينها ما اعتبره من الأشياء المناسبة لمواعظه. كانت هناك تسجيلات لأغاني آل جونسون[١٧]، منها «ولد صغير» ونسخة مشروخة من «إنها مضحكة بهذه الطريقة» وبينما كان ينظر إلى البطاقات تذكر الموسيقى التي كانت تحتوي عليها كل اسطوانة، وأن السيدة دوو كانت تكره للأسف موسيقى الترتيلة؛ وكانت تطلق عليها «موسيقى الحداد».

«هانحن إذن من دون موسيقى»، قال متنهدا.

كان ماتيو مندهشا، «ألن يعمل؟»

«لن أستطيع تشغيلها، فهذه الموسيقى مخصصة للرقص، يا ماتيو».

«لِمَ لا، يا سيدي! [١٨] سيحبونها كثيرا جدا».

«لا، يا ماتيو!» قال القس بقوة، ثم أدار اسطوانة «إيقاع مجنون» ليوضح له وجهة نظره. عندما صدرت النغمات الرفيعة من الآلة، تغيّر تعبير ماتيو إلى تقدير يقارب الغبطة. «يا لروعتها وجمالها! [١٩]» قال بإجلال، رفع القس دوو ذراع الإيقاع فتوقف النمط المتواثب للإيقاع.

«لا يمكن أن يحدث هذا»، قال بشكل حاسم ونهائي، وهو يغلق الغطاء.

مع ذلك تذكر عندما جاء يوم السبت أنه قد وعد نيكولاس بأنه ستكون هناك موسيقى في القداس، فقرر إخبار ماتيو بأن يحمل الفونوغراف إلى الخارج حيث السرادق لاستخدامه هناك

(١٧) آل جونسون: ممثل ومغن أمريكي (١٨٨٦ - ١٩٥٠)، ولد في روسيا - المترجم.

(١٨) وردت بالإسبانية - المترجم.

(١٩) وردت بالإسبانية - المترجم.

في حالة ما إذا اســتدعى الأمر وكانــت الحاجة إليه ملحة. كان هــذا احتياطا ذكيا، لأنــه في صباح اليوم التالــي عندما وصل القرويون لم يكونوا يتحدثون عن شــيء خلا الموسيقى التي كانوا سيستمعون إليها.

كان موضوع موعظته «قوة الإيمان»، وبعد أن تحدث لمدة عشر دقائق تقريبا وقف نيكولاس، الذي كان مقرفصا أمامه مباشرة، ورفع يده بهدوء. تجهّم القس دوو وتوقف عن الكلام.

تكلــم نيكولاس: «الآن موســيقى، ثم بعد ذلــك الحديث. ثم موســيقى، فحديث. ثم موسيقى». ثم اســتدار وواجه الآخرين. «هذه طريقة جيدة»، أضاف. كانت هناك تمتمات موافقة، ومال الجميع بالجذع إلى الأمام قليلا لسماع أي أصوات موسيقية قد تصدر عن السرادق.

تنهــد القس ورفع الآلــة إلى المنضدة، مبعــدا الإنجيل الذي كان موضوعا على الحافة. «بالطبع»، قال لنفســه بقســوة غير ملحوظة. كانت الأســطوانة الأولى التــي دارت «إيقاع مجنون». عندما بدأت تدور، كان طفل بالجوار، يردد سلســلة من الأغاني غير ذات معنــى، توقف الطفل عن إصدار الضوضاء التي كانت تشبه صوت الببغاء، وظل صامتا ومتحجرا بينما كان يحدّق نحو المنصة جلس الجميع هادئين تماما حتى انتهت القطعة، ثم كانت هنــاك جلبة تنم عن استحســان. «الآن مزيد مــن الكلام»، قال نيكولاس، وقد بدا مسرورا جدا.

واصل القس. تحدث الآن بتلعثم بعض الشيء، لأن الموسيقى قطعت حبل أفكاره، وحتــى عنــدما نظـر إلى مـلاحـظـاته

لم يستطع التأكد بالضبط من النقطة التي توقف عندها قبل مقاطعته، بينما أخذ يواصل، كان ينظر إلى الناس الجالسين تحت على مقربة منه. لاحظ أنه بجانب نيكولاس كانت الفتاة الصغيـــرة التي كانت تراقبه من المداخل جالســـة، وقد سُـــرَّ لرؤيتهـــا مرتدية ثوبا صغيـــرا كان كافيا لأجل تغطيتها. كانت الفتاة تحدق فيه بتعبير ترجمه على أنه تقدير إعجابي.

في ذلك الوقت، عندما شـــعر أن جمهوره كان على وشـــك أن يصيبهـــم الملـــل على الرغـــم من أنه كان عليـــه الاعتراف بأنهم لم يعملوا أبدا على إظهار هذا بشـــكل واضح، أدار في أســـماعهم «ولد صغيـــر»، لم يكن مـــن الصـــعب التخمين من خلال رد الفعل أن اختياره هذا كان يجد استحسانا أقل لدى مســـتمعيه. التعبير العام للتوقع المتوتر في بداية الأســـطوانة تراخـــى بعد فترة وجيزة إلى مجرد اســـتمتاع روتيني بدرجة أقل حدة. وعندما انتهت القطعة، نهض نيكولاس على قدميه ثانية ورفع يده بجدية، قائلا: «جيدة. لكن الموســـيقى الأخرى أكثر جمالا».

قام القس بعمل تلخيص ســـريع، وبعد تشـــغيل أســـطوانة «إيقاع مجنون» مرة ثانية، أعلن أن القداس قد انتهى.

بهذه الطريقة أصبحت أســـطوانة «إيقـــاع مجنون» جزءا مكملا لصلاة القس دوو الأسبوعية. بعد أشهر قليلة تهالكت الأسطوانة على نحو سيئ لدرجة أنه قرر تشغيلها مرة واحدة أثناء كل تجمـــع، أذعن رعاياه لهذا العرض الترشـــيدي على مضض وإن اشتكوا، عن طريق نيكولاس كمبعوث عنهم.

«لكن الأسطوانة الموسيقية قديمة، لن يكون هناك المزيد منها إذا استخدمتها بشكل دائم»، شرح القس.

ابتسم نيكولاس غير مصدق: «أنت تقول هذا لكنك لا تريدنا أن نستمع إليها!»

في اليوم التالي، بينما كان القس دوو جالسا يقرأ في تعريشة الفناء، أعلن ماتيو عن حضور نيكولاس للمرة الثانية، الذي كان قد دخل عبر المطبخ، ويبدو أنه، كان قد شرع في التحدث مع الخدم هناك، من الآن تعلم القس بوضوح تماما كيف يقرأ التعبيرات المرتسمة على وجه نيكولاس، وكان التعبير الذي رآه على وجهه الآن قد أنبأه بأن ثمة ابتزازات جديدة كانت في الطريق.

نظر نيكولاس باحترام. «سيدي»، قال، «نحن نحبك لأنك أسمعتنا الموسيقى عندما سألناك إياها. الآن نحن جميعا أصدقاء. نريدك أن تعطينا «ملحا».

«ملح؟» صرخ القس دوو، متشككا: «لأي غرض؟»

ضحك نيكولاس بمزاج جيد، جاعلا الضحكة واضحة لدرجة أنه اعتقد أن القس كان يمازحه. ثم أتى بإشارة تعني مقدارا ضئيلا.

«لأجل الأكل»، قال.

«آه، نعم»، تمتم القس، متذكرا أنه الملح الصخري بين الهنود ترف ورفاهية غير متوافرة.

«لكننا ليس لدينا ملح»، قال بسرعة.

«آه، نعم، سيدي. هناك». أشار نيكولاس إلى المطبخ.

نهــض القس وكان قد اعتزم وضع حد لهذه المســاومة، التي اعتبرها عنصرا مســببا للفوضى في علاقته الرسمية بالقرية. مشــيرا إلى نيكــولاس ليتبعه، مضى القس إلــى المطبخ، وصاح مناديا عندما دخل، «كوينتينا، أريني الملح الخاص بنا».

كان كثير من الخدم، من بينهم ماتيو، يقفون في الحجرة. كان ماتيو هو الذي فتح دولابا واطئا وأعلن عن كومة كبيرة من قوالب الملح الضارب إلى اللون الرمادي مكدسة على الأرض. كان القس مندهشــا «الكثير من كيلوات الملح!» صرخ. «منذ متى وهذا الملح هنا؟ [٢٠]»

أخبــره ماتيو بهدوء أنهما كانا قــد أحضراه معهما منذ فترة بعيدة من أكوسينجو. «لأجل استخدامنا»، أضاف، مجيلا بصره في الآخرين.

فهم القس دوو هذا، متمنيا أن تكون هذه إشارة وأنه استطاع استيعابها. «بالطبع»، قال لنيكولاس. «إنه لبيتي».

بدا نيكولاس غير متأثر. «لديك ما يكفي لكل فرد في القرية»، قال معلقا، ثم أضاف، «بإمكانك في غضون أســبوعين الحصول على المزيد من أوكوســنجو. ســيكون الجميع دائما سعيدا جدا بهذه الطريقة، ســيأتي الجميع في كل مــرة تتحدث فيها. أنت تعطيهم الملح وتشغل الموسيقى».

أحــس القس دوو بأنه قد بدأ يرتجــف قليلا. كان يعرف أنه مستثار ولذا كان يحاول ببطء أن يجعل صوته يبدو طبيعيا.

«سأقرر في ما بعد، يا نيكولاس»، قال. «مع السلامة».

---

(٢٠) ورد السؤال بالإسبانية - المترجم.

كان واضحا أن نيكولاس من المستحيل أن يعتبر هذه الكلمات علامــة تــدل على أنه قد طــرد فأجاب: «مع الســـلامة»، ومال إلى الوراء في مقابل الحائــط، «مارتا!» صاح مناديا على الفتاة الصغيــرة، التي أصبح وجودها الآن فــي غرفة القس ملحوظا، حيــث انتقلت إلــى خارج الظلال وكانت الفتــاة تحمل ما بدا له أنـــه دمية كبيرة، وكانت مهتمة بهـــا جدا، عندما خرج القس إلى الســـاحة المضيئة، صدمته الصورة كشيء غير حقيقي، فاستدار عائدا ونظر في المطبخ ثانية في تجهم. ظل وقفا في المدخل في مظهر الفعل المرجأ للحظة، وهو يحدق قليلا في مارتا. الدمية، المحمولة بحب على ذراع الطفلة، والملفوفة في خرقة بالية، كانت تصدر عنها حركات متقطعة.

كانت فظاظة القس تهيمن عليه؛ ربما كان عليه أن يظهر هذا بغض النظر عما كانت عليه الظروف، «ما هذا؟» ســـأل بسخط. كمـــا لو أنها كانـــت تجيبه، تلوت الدمية مرة ثانيـــة، نازعة عنها طــرف من الخرقة التـــي كانت تغطيها، فرأى القـــس ما بدا له كشـــريط كاريكاتير مضحك «لذئب القلنسوة الحمراء» وهو يبرز إلى الخارج من تحـــت طاقية نوم الجدة. صرخ القس دوو ثانية، «ما هذا؟»

تحول نيكولاس عن محادثته، مداعبا مارتا قائلا لها أن ترفعه وتعريه حتى يمكن للسيد أن يراه، وهذا هو ما فعلته، نزعت عنه اللفة وعرضت للعيان تمســـاحا صغيرا مملوءا بالحيوية، ونظرا إلـــى كونه كان محمولا أو ممســـوكا من ظهـــره تقريبا، فقد كان يعترض بطريقـــة روتينية على هذه المعاملة بتجديف إيقاعي في

الهواء بأقدامه الصغيرة السـوداء. وقـد بدا على وجهه الطويل نوعا ما، رغم ذلك، أنه يبتسم.

«يا إلهي!» صرخ القس بالإنجليزية. صدمه المشهد كفضيحة غريبة. كان هناك فحش خفي في نظرة الزاحف الصغير المهتاج قليلا برأسه الملفوف في الخرقة، لكن مارتا كانت لا تزال ممسكة به كي يسـتطيع معاينته. لمس القس قشـور جروح بطنه الملساء بأصابعه، وسـحب يده، قائلا، «يجب تكبيل فكيه. سـوف يعض الطفلة».

ضحك ماثيو. «إنها سـريعة جدا»، ثم قالها باللهجة الدارجة إلى نيكولاس، الذي وافقه، وضحك أيضا. ربت القس على رأس مارتـا بينما كانت تعيد الحيوان إلى صدرها وواصلت احتضانها له في رقة ولطف.

كانت عينا نيكولاس مسلطتين عليه. «أنت تحب مارتا؟» سأل بجدية.

كان القس يفكر في الملح. «نعم، نعم»، قال ذلك بحماس زائف لإنسان منشـغل البال. وذهب إلى غرفة نومه وأغلق الباب. كان الاسـتلقاء على السـرير الضيق بعد الظهر مماثلا للاسـتلقاء في الليل، فقد كانـت هناك نفس أصوات الكلاب التي تنبح في القريـة. اليوم أيضا كان هنـاك صوت للريح التي تمر من خلال النافذة حتى قبة الناموسـية كانت تهتز قليلا من وقت إلى آخر بينما كان الهواء يدخل الغرفة. كان القس يحاول أن يقرر إن كان سـوف يذعن لنيكولاس أم لا عندما أصبح نعسـان جدا، فكر: «ومع ذلك، أي مبدأ سـوف أقوم بإرسائه أو مناصرته بمنع الملح

عنهم ؟ إنهم يريدون الموسيقى إنهم يريدون الملح وسوف يتعلمون أن يريدوا الرب». هذه الفكرة بدت له مريحة، وعرف النوم وسط نباح الكلاب والريح الصاخبة المارة خلال النافذة.

كانت السحب أثناء الليل تهبط من أعالي الجبال إلى حيث الوادي، وعندما طلع الفجر ظلت هناك، كتيجان فوق رؤوس الأشجار العالية. الطيور القليلة التي تمكنت من أن تطلق أصواتها ليتم سماعها بدت كما لو كانت تغني تحت سقف الغرفة الكبير. كان الهواء المندى معبقا بدخان الخشب، لكن لم تكن هناك ضوضاء قادمة من القرية، حائط من السحب انسدل بينها وبين بيت الإرسالية.

سمع القس من سريره، بدلا من صوت الريح التي تمر بالنافذة، قطرات بطيئة تتساقط فوق الشجيرات من الإفريز، لا يزال مستلقيا حتى الآن للحظة متراخيا أو نصف نائم أثناء الثرثرة الخافتة لأصوات الخدم في المطبخ. ثم ذهب إلى النافذة وتطلع إلى الخارج حيث الوجود الرمادي حتى الأشجار القريبة كانت غير مرئية؛ كانت هناك رائحة ثقيلة للأتربة. ارتدى ملابسه، وشعر برجفة عندما لامست الملابس الرطبة جلده فوق المنضدة وضعت صحيفة كان عنوانها الرئيسي:

«برشلونة بومبارديادو مع دوسينتوس أفيونيز»

خطر له بينما كان يحلق لحيته، ويحاول إحداث رغوة صابونية بالماء الفاتر الذي كانت كوينتينا قد أحضرته له، والمملوء برماد الفحم النباتي، أنه يريد الفرار من أهل تاكيت ومن الشعور الخانق الذي تركوه لديه بأنهم تائهون ضائعون في العصور

القديمـــة المظلمة. من الأفضل التخلص مـــن هذا الحزن الهائل اللانهائي حتى ولو لساعات قليلة.

تناول إفطارا أكثر من المعتاد ومضى إلى الخارج إلى الرصيف المسقوف، حيث جلس في الرطوبة وبدأ في قراءة المزمور الثامن والســـبعين، الذي كان يفكر في اســـتخدامه كأساس للموعظة، بينما كان يقرأ نظر بعيدا إلى الفراغ أمامه. حيث كان يعرف أن شـــجرة المانجو منتصبة لكنه لم يكن في وسعه سوى رؤية الفراغ الأبيـــض، كما لو أن الأرض قـــد هبطت عند حافة الرصيف إلى ألف قدم أو أكثر.

«شق صخورا في البرية، وسقاهم كأنه من لجج عظيمة [٢١]». من البيت جـــاء صوت قهقهة كونيتينا. «ربما كان ماتيو يطاردها هنـــا وهناك في أرجاء الســـاحة»، فكّر القس؛ الذي أقلع بحكمة منـــذ فترة طويلة عـــن أن يتوقع من أي هنـــدي أن يتصرف كما يجب عليه كشـــخص بالغ. على الجانب الأخر من السرادق كان ديكا روميا يصدر الصوت الكركري الهســـتيري المميز له كل عدة ثوان، بســـط القس إنجيله على المنضدة، وضع يديه على أذنيه، وواصل القراءة: «أهاج ريحا شـــرقية في الســـماء، وساق بقوته ريحا جنوبية».

«مقاطع كهذه ســـتبدو وثنية بكل مـــا في الكلمة من معان في اللهجة المحلية»، أمسك بنفسه وهو يفكر في هذه الطريقة. نزع يديه عن أذنيه وراح يقول لنفســـه: «لكن بالنسبة إلى آذانهم لابد أن كل شيء سيبدو وثنيا، كل شيء أقوله يتحول في الطريق إليهم

---

(٢١) المزمور الثامن والسبعون: قصيدة لآساف - المترجم.

إلى شيء آخر مغاير»، كانت طبيعة تفكير القس دوو تستخدم دائما أسلوب المحادثة لتجنب الألم. ثبّت عينيه على النص بعزم، وتابع القراءة. كانت القهقهات عالية في البيت، وفي إمكانه الآن سماع ماتيو كذلك. «أرسل عليهم بعوضا فأكلهم، وضفادع فأفسدتهم» وكان الباب المفضي إلى الساحة مفتوحا وسمع القس سعال ماتيو بينما كان واقفا ينظر بعيدا. «إنه بالتأكيد مصاب بالسل»، قال القس لنفسه، بينما كان الهندي يبصق بشكل متكرر. أغلق إنجيله وخلع نظارته، متحسسا المنضدة بحثا عن علبتها. ليس من دون قصد، نهض، وأخذ خطوة إلى الأمام، ساحقا إياها تحت كعبه. بعطف، انحنى إلى أسفل والتقط العلبة. كانت المفصلات تطقطق والجوانب المعدنية محنية إلى الخارج تحت غطاء الجلد الصناعي للعلبة، كان في وسع ماتيو تقويمها وإعادتها إلى ما كانت عليه، لكن القس دوو فضل أن يفكر على النحو التالي: «لكل شيء أجل». كانت هذه العلبة قد جاءته قبل إحدى عشرة سنة. وكان ملخص حياتها بشكل مختصر كالآتي: بعد ظهر يوم مشمس كان قد اشتراها من شارع جانبي ضيق في هافانا؛ وسنوات الانشغال في تلال البرازيل الجنوبية؛ وقتما أسقط العلبة عندما كان في شيلي، وبها النظارة الشمسية، خارج نافذة الحافلة، وكيف خرج جميع من بالحافلة لمساعدته في البحث عنها، وسنوات الإحباط في شيكاغو عندما كان يتركها لسبب ما في درج منضدة الكتابة معظم الوقت ويحمل نظارته في جيب معطفه دونها وتذكر بعض قصاصات الصحف التي كان يحتفظ بها في العلبة، والعديد من شرائح الورق التي دوّن فيها على

عجـــل أفكارا مختصرة. نظر إلى أســـفل تجاههـــا بعطف، وراح يفكـــر: «والآن هذا هو المكان والزمان، وتلك هي ظروف انقضاء أجلها». لسبب ما كان سعيدا لمشاهدته لهذا الموت؛ كان من المريح لـــه أن يعرف بالضبط كيف أنهـــت العلبة وجودها. لا يزال ينظر إليها بحزن للحظة. ثم قذف بها بقوة في الهواء المشبع بالضباب الأبيض كما لو كانت الكارثة بالفعل في داخلها، مضى إلى الباب بخطى واسعة وإنجيله تحت ذراعه ومر بماتيو سريعا من دون أن ينبـــس بكلمة. لكن بينمـــا كان يمضي إلى غرفته بدا له أن ماتيو قد نظر إليه بطريقة غريبة، كما لو كان يعرف شيئا ما وبانتظار أن يرى متى سيكتشفه القس، أيضا.

شـــعر القس عند عودته إلى حجرته الصغيرة الخانقة بمزيد من الحاجة الملحة إلى أن يكون وحيدا في الصقيع. فقام بتبديل حذائـــه، ثم أخذ عكازه وخرج في الضباب. في هذا الطقس كان هناك طريق وحيد سالك اســـتخدمه، وكان هذا الطريق يفضي إلى الأســـفل خلال القرية. خطى إلى الأمام فوق الأحجار بحذر شـــديد، وكان بإمكانه في كل مرة أن يتبين الأرض أسفل قدميه والمـــكان حيث يضع طرف عكازه، أمـــا في ما عدا ذلك فقد كان البيـــاض فقط في جميع الجهات. أثناء ســـيره، راح يتأمل، كان كمحاولـــة قراءة نص فيه حرف واحد فقـــط مرئي في كل مرة. كانت رائحة دخان الخشب حادة في الهواء الساكن.

واصـــل القس دوو طريقه ربما لمدة نصف ســـاعة، وكان يضع بعناية إحدى قدميه قبل الأخرى. الفراغ من حوله، وعدم القدرة علـــى رؤية كل التفاصيل المرئية، بدلا من أن يعمل على تنشـــيط

تفكيره، أصابت قدرته على الفهم بالتبلد، كان تقدمه فوق الأحجار شاقا لكنه مريح بشكل غريب من بين الأفكار القليلة التي خطرت في باله بينما كان يتقدم في سيره أنه سيكون من المريح له المرور خلال القرية من دون أن يلاحظه أحد، وبدا له أنه ربما ينجح في ذلك، لكي يكون مرئيا حتى من مسافة عشرة أقدام، في إمكانه السير بين الأكواخ وسماع بكاء الأطفال، وعندما يصل إلى الجانب الآخر لن يعرف أحد أنه كان هناك. لم يكن متأكدا إلى أين سيمضي بعد ذلك، أصبح الطريق فجأة أكثر وعورة ومضى في هبوط متعرج بطول الوادي المنحدر بشدة، وصل إلى النهاية قبل أن يرفع رأسه ولو لمرة واحدة. «آه» قال، ووقف ساكنا. كان الضباب الآن فوق رأسه، لون رمادي كبير وعريض مُبطّن بسحاب، رأى الأشجار التي تقف من حوله وسمعها تقطر ببطء في كورس مهيب، غير منتظم فوق أوراق الكوكا العريضة أسفلها.

«ليس هناك مكان مثل هذا في الطريق المفضي إلى القرية»، فكر القس. كان متضايقا بدرجة أقل، لكنه كان مذهولا بدرجة أكبر، لأن يجد نفسه واقفا بجانب هذه الأشجار التي بدت مثل الأفيال وكانت أكبر من أي أشجار أخرى رآها في المنطقة. استدار بشكل تلقائي في الطريق وبدأ صعود المنحدر إلى جانب المشهد الحزين الذي كان يبعث على الحزن الشديد، الذي أصبح الآن مرئيا له، كان الضباب هناك في الأعلى يبعث على الراحة والحماية. توقف للحظة ليحدق إلى الوراء حيث جذوع الأشجار البدينة الشائكة وكتلة النباتات المختلطة من تحتها. وقد جعله صوت خفيض قادم من الوراء يدير رأسه.

كان هناك هنديان يهرولان إلى أسـفل الطريق نحوه، وعندما اقتربا منـه توقفا ونظرا إليـه بنوع من الرجـاء على وجهيهما الصغيريـن الداكنـين لدرجـة أن القس دوو اعتقـد أنهما كانا سيشرعان في التحدث إليه. بدلا من ذلك تقدم أحدهما مصدرا صوت تمتمة ثم أشـار إلى الآخر أن يتبعه. لم يكن هناك طريق للالتفاف من حول القس، لذا لامساه بشدة بينما كانا يمران به. ومن دون أن ينظر أحدهما إلى الوراء أسرعا إلى أسفل واختفيا بين أوراق الكوكا الخضراء.

أثار هذا السلوك المستهجن من جانب الهنديين فضول القس بشكل غير واضح؛ وقرر في اندفاع أن يجد تفسيرا لهذا. فمضى في أثرهما.

وسـرعان ما وصل إلى ما وراء البقعة التي كان قد عاد منها منذ لحظـة. كان في الغابة، وكانت رائحـة النبات غير محتملة بالمـرة - رائحة النباتات الحية والميتة في عالم يتزامن فيه النمو البطـيء، والموت البطيء، ويتلازمان. توقف لمرة وأصاخ السـمع لوقـع الأقدام. كان من الواضح أن الهنديان قد جريا أمامه؛ ومع ذلك استمر في طريقه. ونظرا إلى أن الطريق كان وعرا إلى حد كبير وبشكل طاغ، فقد كان يحتك بين الحين والآخر بجزء لولبي لنبات متدل أو بفرع بارز.

كانت الأشـجار المنتصبة والكرمات المفترشة تعطي انطباعا بالوقوع في أسر آلة جبارة غاضبة شكلت تتابعا مملا من لوحات حيـة معذبة. بدا الأمر كما لو كان في تلـك اللحظة، بينما كان يراقـب، أن المعركة اليائسـة للهواء قد تم إيقافها وأنها سـوف

تســتأنف فقط عندما يدير رأســه. عندما نظر، قرر أنها كانت بالضبط هذه الخاصية المشــكوك فيها للســرية هي التي جعلت المــكان مثيرا للقلق. من حين إلى آخر، عاليا فوق رأســه، كانت تحوم فراشــة حمراء قانية في الظلمة من جذع شجرة إلى آخر. كانت كلها متشابهة؛ فبدا له أنها لابد وأنها كانت دائما من صنع الحشرة نفسها، فقد مر مرات عديد بعمل نسجي أبيض متصالب لشبكات عنكبوتية ضخمة منبسطة بين النباتات مثل بوابات على حائط داكن في الخلفية. لكن جميع الشبكات بدت غير مأهولة. لا تزال قطرات المياه الكبيرة، البطيئة تواصل سقوطها من أعلى، وحتى لو كانت تمطر بغزارة، فلن تبتل الأرض.

كان القس يعاني من «اللابؤرية»، ونظرا إلى أنه قد بدأ يصاب بالدوار من جراء مراقبته للعديد من التفاصيل، فقد أبقى عينيه مثبتتين مباشرة إلى الأمام بينما كان يسير، وكان يحيد بتحديقه فقط عندمــا كان يتحتم عليه تجنب النباتــات الحية التي تنمو في عرض الطريق. استمرت أرضية الغابة في انبساطها. أدرك فجــأة أن الهــواء من حوله كان يردد وقع أصــوات واهنة، وقف ســاكنا وتعرف علــى ذلك الخرير المتقطع الــذي يصنعه جدول عميــق من وقت إلى آخر كلما تحرك المــاء بين ضفتيه. في التو تقريبــا كانت المياه أمامه مباشــرة، ســوداء وعريضة، ومع أخذ قربــه في الاعتبــار، فقد كان ينســاب في هــدوء معقول. قبل الجدول بخطوات قليلة كانت شجرة كبيرة ميتة، مغطاة بفطريات برتقالية، ملقاة في عرض الطريق. تتبعت النظرة السريعة للقس الجذع إلى جهة اليســار، على الطــرف الصغير، المواجه له، كان

الهنديان يجلسان. وكانا ينظران إليه باهتمام، فأدرك أنهما كانا بانتظاره. مضـــى إليهما، وقام بتحيتهمـــا. ردا بوقار، ولم يديرا عيونهما اللامعة عن وجهه.

كما لو كانا قد تدربا على ذلك، نهض الاثنان في نفس اللحظة وســـارا إلى حافة الماء، حيث وقفا ينظران إلى أســـفل، ثم ألقى أحدهمـــا بنظرة علـــى القس في الخلف وقال ببســـاطة، «تعال» بينما كان القس يشـــق طريقه بين جذوع الأشجار المقطوعة رأى أنهمـــا كانا يقفان بجانب طـــوف (رمث) طويل من الخيزران كان مسحوبا إلى الضفة الطينية. قام الهنديان برفع الطوف وإسقاط مؤخرته في الجدول.

«إلى أين تذهبان؟» ســـأل القـــس. لكي يجيباه رفعا كل منهما ذراعه الأســـمر القصير معا وأشارا بهما ببطء في اتجاه التيار. مرة ثانية قال الشخص الذي تكلم من قبل، «تعال». القس، الذي اســـتثير فضوله، نظر بارتياب إلى الطـــوف الهش، وعاد ببصره مرة ثانية إلى الرجلين وفي الوقت نفســـه شـــعر بأنه سيكون من اللطيف أن يركب معهما بدلا من العودة خلال الغابة.

سأل ثانية بصبر نافد، «إلى أين تذهبان؟ إلى تاكيت؟»

«إلـــى تاكيـــت»، ردد الشـــخص الذي لـــم يتكلـــم حتى هذه اللحظة.

«هل الطوف قوي؟» تســـاءل القس، وهو ينحني ليضغط قليلا علـــى قطعـــة الخيزران، كان هـــذا فقط مجرد فعل شـــكلي من جانبـــه؛ فقد كان عنده إيمان قوي بقـــدرة ومهارة الهنود البارعة في استخدام خامات الغابة وإتقانها.

«قوي»، قال الأول. «تعال»، أضاف.

ألقى القس بلمحة على الغابة في الخلف، تسلق إلى داخل الطوف، وجلس عاقدا ساقيه على قاع وفي مؤخرة الطوف قفز الاثنان على متن الطوف الصغير الضعيف ودفعاه بعيدا من الضفة بوساطة قصبة طويلة.

ثم بدأت الرحلة التي تأسف القس دوو - في التو تقريبا - على شروعه فيها، حتى عندما انطلق ثلاثتهم إلى الأمام في سرعة شديدة، تمنى عند أول انعطافة في الجدول، لو كان قد بقي حيث كان، وحيث يمكنه أن يسرع في طريق عودته، وأن يكون في هذه اللحظة في طريقه إلى أعلى جانب الوادي. وبينما أسرعوا إلى أسفل في الممر المائي واصل القس لوم نفسه على تسرعها وإقدامها من دون أن يعرف السبب. عند تعاقب كل منحى في مسلك يشبه النفق، كان يشعر بأنه أكثر بعدا من العالم. وجد نفسه يقاوم - في جهد مضحك سخيف - كبح جماح الطوف: الذي كان ينزلق بعيدا في سهولة شديدة على طول صفحة المياه السوداء. بعيدا من العالم، أم أنه كان يقصد بعيدا من الرب؟ منطقة مثل هذه بدت خارج نطاق سلطة الرب. عندما وصل إلى تلك الفكرة أغلق عينيه. كانت سخافة أو عبثية مستحيلة بشكل جلي - في جميع الأحوال، غير مقبولة - رغم ذلك فقد خطرت له وبقيت في عقله. «الرب معي دائما»، قال لنفسه في صمت، لكن العبارة لم يكن لها تأثير. فتح عينيه بسرعة ونظر إلى الرجلين. كانا في مواجهته، لكن كان عنده انطباع بأنه غير مرئي لهما؛ يمكنهما فقط رؤية الموجات السريعة التي كان

الطوف يصنعها وراءه على صفحة المياه، والسقف المقوس غير المنتظم للنباتات التي مروا تحتها.

أخذ القس عصاه من المكان الذي كانت ملقاة فيه، وأومأ بها كما لو كان يسأل: «إلى أين نمضي؟» أشار كلاهما مرة ثانية بشكل غامض في الهواء، من فوق كتفيهما، كما لو أن السؤال لا أهمية له، ولم يتغير التعبير الذي ارتسم على وجهيهما وكان يشمئز من كل شجرة أخرى تتجاوزهم، غمر القس عصاه بطريقة آلية في المياه، كما لو كان يعتقد أن ذلك سيوقف الاندفاع الأمامي الثابت للطوف، سحبها على الفور ووضعها وهي تقطر في قاع الزورق حتى ذلك الاتصال المتكرر بالجدول الداكن كان غير سار له، حاول أن يقول لنفسه إنه لم يكن ثمة سبب لانهياره الروحي المفاجئ، بيد أنه في الوقت نفسه كان في إمكانه الشعور بالنسيج الغائر الموغل لأعماق وعيه في عملية مريحة، كانت الرحلة المنطلقة في اتجاه التيار شيئا بشعا بغيضا مطلق سراحه، وناضل القس ضد التيار بكل قوته. «سامحني، يا إلهي، لأنني أتركك هكذا ورائي سامحني لتركك وراء ظهري». كانت أظفاره تضغط في بطن راحة يده وتكاد تنغرس بينما كان يصلي. وهكذا جلس في صمت يتعذب عذابا شديدا بينما كانوا ينزلقون إلى الأمام خلال الغابة بعيدا إلى داخل بحيرة عريضة حيث أصبحت السماء الرمادية مرئية مرة ثانية. مضى الطوف في ذلك المكان ببطء أكثر بكثير، وبأيديهما دفعه الهنديان برفق نحو الشاطئ حيث المياه الضحلة. ثم دفعه أحدهما إلى الأمام بقصبة الخيزران. لم يلحظ القس المساحات الهائلة التي كانت تغطيها زهرة الياقوتية

التي مروا خلالها، أو الصوت الناعم الذي تصنعه عند احتكاكها بالطوف. هنا في الخارج أسـفل السـحاب المنخفض المعلق كان هناك صراخ عرضي لطائر أو حفيف مفاجئ في العشب العالي عند حافة المياه لا يزال القس غارقا في ذاته، يشعر، عوضا عن أن يفكر، «حدث الآن وانتهى. لقد عبرت إلى أرض أخرى». وظل مشغولا جدا في عمق بهذا الإحساس العاطفي الحقيقي لدرجة أنه لم ينتبه عندما بلغوا جرفا عاليا ينتصب بشـكل عمودي من البحيرة، ولا عندما وقفوا في رمال خليج صغير على أحد جوانب المنحدر، عندما نظر إلى أعلى وجد الهنديين واقفين في الرمل، كان أحدهما يقول، «تعال» لم يساعداه للنزول إلى الشاطئ، فعل هذا ببعض الصعوبة، رغم أنه لم يكن واعيا بشيء.

بمجرد أن وطئ اليابسـة قاداه علـى امتداد الطريق المنحدر الـذي ينحني بعيدا من المياه. متتبعـين طريقا متعرجا مطروقا خلال شجيرات من تحت أشجار خرجوا جميعا في نفس الوقت وفجأة تحت سفح الحائط الصخري.

كان هـناك كهفان - كهف صغير مفتوح جهة اليسـار، وآخر أوسع وأعلى جهة اليمين. توقفوا خارج الكهف الصغير. «ادخل»، قالا للقس. لم يكن الكهف مضيئا بشـكل جيد في الداخل، وكان مستوى الرؤية قليلا جدا. ظل الاثنان عند المدخل. «إلهك يعيش هنا»، قال أحدهما «تحدث إليه».

كان القـس على ركبتيه. «يا إلهي، اسـمع صوتي. دع صوتي يصلك. أسـألك باسم يسوع ... كان الهندي يصرخ فيه، «تحدث بلغتنـا». بذل القس جهدا، وبدأ يـردد التضرع باللهجة المحلية.

كانت هناك همهمات استحسان في الخارج. كان التركيز مطلوبا كي يترجم أفكاره إلى اللغة التي لا تزال غريبة مما تطلب تصفية ذهنه بعض الشيء. وكان اجتماع هذه الصلاة وتلك قد أتاح له مساعدة وعونا لاحتشاده من الداخل كي يستعيد هدوءه. وبينما واصل التحدث، دائما من دون اهتزاز أو تردد يذكر، شعر باندفاع عظيم من القوة يجتاحه ويغمره. رفع رأسه بثقة واستمر في الصلاة، كانت عيناه مثبتتين على الحائط أمامه. في نفس اللحظة سمع الصراخ. «ميتزابوك يسمعك الآن. قل له المزيد».

توقفت شفتا القس عن الحركة، ورأت عيناه للمرة الأولى اليد الحمراء المرسومة أمامه على الصخرة، والفحم، والرماد، وبتلات الزهور والملاعق الخشبية هنا وهناك. لكن الإحساس بالرعب لم يتملكه، كان ذلك الإحساس قد تبدد. كان الشيء المهم الآن أنه بدا شاعرا بالقوة والسعادة. كانت حالته الروحية الحقيقية مادية أيضا. قيامه بالصلاة لميتزابوك كان حقيقة أيضا، بالطبع، لكن استهجانه لهذا كان بشروط عقلية تماما ومن دون إعمال للفكر، قرر أن العفو سيأتي عندما يطلبه من الله.

ولإرضاء المراقبين خارج الكهف أضاف بضع عبارات اصطلاحية إلى صلاته، ثم نهض، وخرج إلى الضوء. لاحظ لأول مرة حيوية معينة على سمات الرجلين الصغيرين. قال أحدهما، «ميتزابوك سعيد جدا». ثم قال الآخر، «انتظر». وعندئذ أسرع كلاهما إلى أكبر مدخل في الفتحتين واختفيا بداخله وجلس القس فوق صخرة، وأراح ذقنه على يده الممسكة برأس عصاه. كان لا يزال مغمورا بإحساس انتصار غريب لاستعادته لنفسه.

سمعهما يتمتمان لمدة ربع ساعة أو نحو ذلك داخل الكهف، الآن خرجا، لا يزالان يبدوان شديدي الجدية. حرّكه الفضول، فخاطر القس بسؤال، قال وهو يشير إلى الكهف الكبير بإصبعه، «هل هاشاكيوم يعيش هناك؟» فأكد كلاهما ذلك، أراد أن يمضي إلى ما هو أبعد ويسأل إن كان هاشاكيوم قد أبدى استحسانا لتحدثه مع ميتزابوك، لكنه شعر أن السؤال سيكون وقحا، إلى جانب، أنه كان موقنا أن الجواب سيأتي بالإيجاب.

عادوا إلى القرية في المساء، بعد أن ساروا طول الطريق. كانت خطوة الهنديين أسرع إلى حد كبير عن خطوة القس دوو، وقد توقفوا لمرة واحدة فقط لتناول بعض السبوتات[٢٢] التي وجدوها أسفل الأشجار، طلب القس منهما أن يصحباه إلى بيت نيكولاس، كانت تمطر قليلا عندما وصلوا إلى الكوخ. جلس القس في المدخل تحت إفريز متدل من الخيزران. شعر بإنهاك شديد، كان يوما من أكثر الأيام المتعبة في حياته، ولم يكن بعد في البيت.

فر رفيقاه عندما ظهر نيكولاس، من الواضح أنه كان يعرف بالفعل بزيارة الكهف، بدا للقس أنه لم يسبق له رؤية وجهه المملوء بالتعبير أو السرور الشديد. «أهلا، أهلا»، قال نيكولاس بالإسبانية. «جيد، جيد. يجب أن تأكل وتنام».

بعد وجبة الفاكهة وكعك الذرة الصفراء، شعر القس بالتحسن. كان الكوخ مملوءا بدخان الخشب من نار كانت موقدة في أحد الأركان واستلقى في الأرجوحة الواطئة التي كانت مارتا الصغيرة،

---

(٢٢) زعرور أمريكي - المترجم.

تجذب منها خيطا بشكل عرضي من حين إلى آخر، وبقي محافظا على الأرجحـــة اللطيفة وكان يغالب رغبة في النوم، لكن يبدو أن مضيفه كان في حالة مزاجية منفتحة وغير متحفظة، رآها القس فرصة وأراد أن ينتهزها. وبينما كان على وشـــك التحدث، اقترب نيكولاس، حاملا صندوق بســكويت صفيحي صدئ. ثم قال في صوت خفيض وهو مقرفص بجانب الأرجوحة: «سوف أطلعك على أشـــيائي»، كان القس مبتهجا، هذه البداية تعرب عن درجة عالية من الـــود. فتح نيكولاس الصندوق وأخـــرج مربعات من القماش المطبـــوع بمقاس عينات، وقـــارورة قديمة لأقـــراص الكينين[٢٣]، وقصاصـــة بالية مـــن صحيفة، وأربع عملات معدنية نحاســـية. أعطـــى القس وقتا ليفحص كلا منها بعنايـــة. في قاع الصندوق كان هنـــاك عدد لا بأس به من الريش البرتقالي والأزرق لم يهتم نيكولاس بإخراجه. أدرك القس أنه كان يطلعه على كنوز العائلة. نظرا إلى أن هذه الأشياء كانت نماذج نادرة من الفن. نظر القس إلى كل شيء بجدية وتوقير وهو يعيد كل شيء إلى مكانه مع تعبير لفظي يعبر مـــن جانبه عن الإعجاب والتقدير. وفي النهاية قال: «أشكرك»، واستلقى ثانية في الأرجوحة الشبكية، أعاد نيكولاس الصندوق إلـــى امرأة كانت تجلس في الركـــن. وعندما رجع إلى القس قال: «سوف ننام الآن».

«نيكولاس، هل ميتزابوك سيئ؟» سأل القس.

«نعم، يا ســـيدي. هو في بعض الأحيان ســـيئ جـــدا. مثل طفل صغيـــر. عندما لا يحصل علـــى ما يريده على الفور، يشـــعل النار،

(٢٣) الكينين: مادة قلوية شديدة المرارة وتعالج بها الملاريا - المترجم.

ويرسل الحمى، ويشعل الحروب. بوسعه أن يكون جيدا جدا، كذلك، عندما يكون سعيدا. يجب أن تتكلم معه كل يوم. وعندئذ ستعرفه».

«لكنكم لا تتحدثون معه أبدا».

«بلى، تحدثنا. كثيرون فعلوا، عندما كانوا مرضى أو تعساء، سألوه أن يصرف عنهم المشكلة. لم يسبق لي التحدث معه»، بدا نيكولاس مسرورا، «لأن هاشاكيوم صديقي الحميم وأنا لست في حاجة إلى ميتزابوك. بالإضافة إلى أن، بيت أو معبد ميتزابوك يبعد ثلاث ساعات سيرا على الأقدام. في إمكاني التحدث مع هاشاكيوم هنا». عرف القس أنه كان يقصد المذبح الصغير في الخارج. فأومأ له القس ثم راح في سبات عميق.

كانت القرية في الصباح الباكر عبارة عن فوضى من الأصوات الصاخبة: كلاب، وببغاوات، وككتوهات[٢٤]، وأطفال رضع، وديوك رومية. كان القس لا يزال راقدا في أرجوحته منصتا لفترة قصيرة قبل أن يتم إيقاظه فعلا من جانب نيكولاس قائلا له:

«يجب علينا الذهاب الآن، يا سيدي، فالجميع في انتظارك».

نهض القس جالسا. منزعجا بعض الشيء وصاح متسائلا: «إلى أين؟».

«إنك سوف تتحدث وتدير الموسيقى اليوم».

«نعم، نعم». كان قد نسي تماما أنه كان يوم الأحد.

كان القس صامتا، وهو يسير إلى جوار نيكولاس إلى أعلى الطريق حيث الإرسالية. تبدل الطقس، وكانت شمس البكورة

---

(٢٤) ببغاوات ذات عرف - المترجم.

شــديدة اللمعان، «لقد تحصنت بتجربتي»، كان يفكر. كان رأسه صافيا، شــعر بصحة وعافية بشــكل مدهش. أعطاه الإحساس غير المعتاد بالحماسة حنينا غريبا لأيام شبابه «لابد أنني شعرت بمثل هذا وقتها. أنني أتذكر هذا الشعور»، فكر.

كان الحشد عظيما عند دار الإرسالية - المزيد من الناس، أكثر من هؤلاء الذين رآهم حاضرين موعظته من قبل في تاكيت. كانوا يتحدثون في هدوء، لكن عندما ظهر هو ونيكولاس كان هناك صمت فوري. كان ماتيو يقف في السـرادق فـي انتظاره، والفونوغراف مفتوحا. أدرك القس في ألم أنه لم يجهّز الخطبة لحاضريه. دخل إلى البيت للحظة، وعاد وجلس إلى المنضدة في الســرادق، حيث التقــط إنجيله. كان قد ترك ورقة ملاحظاتــه القليلة في داخل الكتاب، لذلك انفتح على المزمور الثامن والسبعين. «سأقرأ عليهم هذا»، قرر. اســتدار إلى ماتيو. «شغل الأسطوانة[٢٥]»، قال: وضع ماتيو أسطوانة «إيقاع مجنون». قام القس بإجراء بضعة تعديلات ســريعة بالقلم الرصاص في نص المزمور، فاستبدل أسماء لآلهة محلية صغيرة، مثل سوكان وسيبانا، بأسماء مثل يعقوب وإفرايم، وأســماء أماكن محلية بإســرائيل ومصر، وكتب كلمة هاشاكيوم في كل مرة ظهرت كلمــة الرب أو الإله. لم يكن قد انتهى عندما توقفــت الاســطوانة. «أدرها ثانيــة»، قال آمــرا. كان الجمهور مبتهجا، على الرغم من أن الصوت كان خشــنا وله صرير بشكل ســيئ. عندما انتهت الموســيقى للمرة الثانية، وقف وبدأ التلاوة بإعادة صياغة المزمور في صوت واضح. «بنو ســيبانا، النازعون

(٢٥) وردت بالإسبانية - المترجم.

فـــي القوس، الرامون، انقلبوا في يـــوم الحرب. لم يحفظوا عهد هاشاكيوم، وأبوا السلوك في شـــريعته». تكهرب الجمهور. بينما تحدث، كان ينظر إلى أســـفل فرأى الطفلة مارتا تحدق فيه. وقد تركت تمساحها الصغير يمضي، كان يزحف بسرعة مدهشة نحو المنضدة حيث جلس. كوينتينـــا، وماتيو، والجاريتان كانتا ترصان بلاطـــات الملح على الأرض في أحد الجوانب. ثم تواصلان العودة إلى المنزل لجلب المزيد. أدرك أن ما كان يقوله بلا شـــك لم يكن لـــه أي معنى من ناحية دين مســـتمعيه، لكنها كانت قصة إطلاق عنان الاســـتياء الإلهي من الشعب غير المقدس، وكانوا مستمتعين بها بشكل بالغ. التمساح، وهو يجر أسماله، كان قد زحف بوصات قليلة إلى ما بين قدمي القس، حيث بقي ساكنا، قانعا بكونه بعيدا عن ذراعي مارتا.

فـــي ذلك الوقت، بينما كان لا يزال يتحـــدث، بدأ ماتيو يوزع الملح، وسرعان ما كانوا جميعا يديرون ألسنتهم بطريقة إيقاعية علـــى القوالب الكبيرة الخشـــنة، لكنهم واصلـــوا إعارة انتباههم الصارم لكلماته. عندما كان على وشـــك الانتهاء، أشار إلى ماتيو ليكون على اســـتعداد لبدء تشغيل الاسطوانة في اللحظة التي سينتهي فيها، وعند الكلمة الأخيرة خفض ذراعا كإشارة، وبدأت اســـطوانة «إيقاع مجنون» في الدوران مرة ثانية. بدأ التمســـاح يزحف بســـرعة تجاه النهاية البعيدة للمنصة. انحنى القس دوو إلى أســـفل والتقطه عندما ســـار إلى الأمام ليعطيه إلى ماتيو، نهـــض نيكولاس عـــن الأرض، وأخذ يد مارتـــا، ومضى بها إلى المنصة.

«سيدي»، قال، «ستعيش مارتا معك. سأعطيك إياها».

«ما الذي تقصده؟» صاح القس في صوت حاد بعض الشيء، وكان التمساح يتلوى في يده.

«إنها زوجتك. سوف تعيش هنا».

اتسعت عينا القس دوو اتساعا كبيرا، إذ لم يقو للحظة على قول شيء. ضرب بيده في الهواء وأخيرا قال «لا»، عدة مرات.

بدا وجه نيكولاس غير مسرور «ألا تحب مارتا؟»

«كثيرا جدا. إنها جميلة». جلس القس ببطء فوق كرسيه. «لكنها لا تزال طفلة صغيرة».

تجهم وجه نيكولاس بصبر نافد؟» إنها كبيرة بالفعل».

«لا، يا نيكولاس. لا. لا»

دفع نيكولاس ابنته إلى الأمام وتراجع خطوات عديدة، تاركا إياها عند المنضدة. «لقد انتهى الأمر»، قال بصرامة: «إنها زوجتك. لقد أعطيتها لك».

نظر القس دوو بعيدا إلى التجمع ورأى موافقة خفية على وجوههم. توقفت «إيقاع مجنون» عن الدوران. كان هناك صمت. رأى امرأة أسفل شجرة المانجو تلعب بشيء صغير، لامع. تعرف فجأة على علبة نظارته؛ كانت المرأة تنزع النسيج الجلدي عنها. التمع الألومنيوم العاري بانبعاجاته في الشمس. لسبب ما حتى في وسط موقف كهذا وجد نفسه يفكر: «إذن أنا على خطأ. هذه العلبة لم ينته دورها بعد. سوف تحتفظ بها، بالطريقة نفسها التي احتفظ بها نيكولاس بأقراص الكينين».

نظر إلى مارتا في الأسـفل كانت الطفلة تحدق فيه تماما من دون تعبير «مثل قطة»، قالها وهو يفكر.

بدأ يحتج ويعترض ثانية: «نيكولاس»، صرخ، صوته عال جدا، «هذا مستحيل!»

أحس بيد تمسـك بذراعه، واستدار ليتلقى لمحة تحذيرية من ماتيو.

تقدم نيكولاس بالفعل نحو المنصة، وجهه مثل السـحاب المُرعِد. وبينما كان على وشـك التحدث، قاطعه القس بسرعة، كان قد قرر المماطلة، «ربما تبقى في بيت الإرسالية اليوم»، قال في وهن.

«إنها زوجتك»، قال نيكولاس بإحسـاس عظيم: «لا تسـتطيع إرسالها بعيدا. يجب أن تبقيها».

«قـل له ما يفـيـد الموافقة [٢٦]»، كان ماتيو يهمس: «قل نعم، يا سيدي».

«نعم»، سـمع القس نفسـه يقولها، «نعم حسن» نهض وسار ببطء إلى البيت، حاملا التمسـاح بيد واحدة ودافعا مارتا أمامه باليد الأخرى. تبعه ماتيو وأغلق الباب وراءه. «خذها إلى المطبخ، يا ماتيو»، قال القـس بتبرم، معطيا الزاحف الصغير إلى مارتا، بينما كان ماتيو يمضي عبر السـاحة سـاحبا الطفلة من يدها، نادى القس عليه:

«اتركها مع كوينتينا وتعال إلى غرفتي».

جلس على حافة سريره، يحدق أمامه مباشرة بعينين غافلتين. بدا له مأزقه في كل لحظة أكثر صعوبة وفظاعة. بارتياح سـمع

(٢٦) وردت بالإسبانية - المترجم.

طرقـــة ماتيــو، كان الناس في الخارج يرحلــون في بطء. تطلب الأمر مجهودا ليصيح بالإســبانية قائــلا، «تعال». وعندما دخل ماتيو، قال له القس، «أغلق الباب».

«ماتيو، هل كنت تعرف أنهم في سبيلهم لعمل هذا؟ أنهم كانوا سيحضرون تلك الفتاة إلى هنا؟»

«نعم، يا سيدي».

«كنـــت تعــرف هـــذا! لكن لــم تقل أي شــيء لي؟ لمـــاذا لم تخبرني؟»

هـــزّ ماتيو كتفيه، ناظرا إلى الأرض. «لم أكن أعرف أن الأمر مهم بالنسبة إليك»، قال. «على أي حال، كان من الممكن ألا تكون له أهمية»، أضاف.

«لا أهميـــة له؟ كيــف؟ كان عليك أن توقـــف نيكولاس»، قال القس، رغم أنه لم يكن مصدقا نفسه في ما كان يقوله.

ضحك ماتيو ضحكة قصيرة، «هل تعتقد هذا؟»

«ماتيو يجب عليك أن تساعدني، يجب أن تجبر نيكولاس على استعادتها».

هزّ ماتيو رأسه ثم قال، «لا يمكن أن يحدث ذلك. هؤلاء الناس صارمون ومتزمتون جدا. إنهم لا يغيرون قوانينهم».

«ربما رسالة إلى مدير الإرسالية في أوكوسينجو ...»

«كلا، يا ســيدي. ســيجعل هذه المشــكلة قائمة أكثر. أنت لست كاثوليكيا». أراح ماتيو إحدى قدميه ووقف على الأخرى ثم ابتســم فجأة بشكل رقيق قائلا، «لِمَ لا تدعها؟ إنها لا تأكل كثيرا. في إمكانها أن تعمل في المطبخ. ستصبح جميلة جدا في غضون عامين».

قفــز القس، وصدرت عنه إشــارة واســعة وعنيفة من يديه، لدرجة أن الناموســية، انعقدت فوق رأسه، وسقطت تقريبا فوق وجهه وســاعده ماتيو في تخليص نفســه. كان الهواء به رائحة غبار من الناموسية.

«إنك لا تفهم شــيئا!» صاح القــس دوو، وقد خرج عن طوره. «أنا لا أرغب في التحدث معك! اخرج واتركني بمفردي» وبطاعة ترك ماتيو الغرفة.

وهو يضرب راحة يده اليسرى بقبضته اليمنى، مرارا وتكرارا، وقف القس في نافذته أمام المنظر الطبيعي الذي كان مشرقا في الشــمس الساطعة. لا تزال قلة من النسوة أسفل شجرة المانجو، والباقيات عدن إلى أسفل التل.

ظــل ممددا في ســريره طوال فتــرة ما بعــد الظهير. عندما حــل الشــفق كان قد اتخذ قــراره. أغلق بابه، وشــرع في حزم الاحتياجات الشــخصية الضرورية التي فــي إمكانه تعبئتها في أصغر حقيبة ســفر عنده. إنجيله ودفتــره وضعهما في المقدمة مع فرشاته وأقراص الأبترين[٢٧]، وعندما جاءت كوينتينا لتخبره بحلول موعد العشــاء طلب منها أن تجلبه إلى سريره، ومن باب الحــذر دسّ الحقيبة المجهزة في الدولاب قبل أن يفتح لها الباب لتدخل. انتظر حتى توقف الكلام في جميع أنحاء البيت، إلى أن عــرف أن الجميع قد ناموا. وبحقيبة صغيرة ليســت ثقيلة جدا في يد واحدة مضى على رؤوس أصابعه إلى الساحة، إلى الخارج عبر الباب في أريج الليل، عبر الســاحة المفتوحة أمام السرادق،

---

(٢٧) نوع من الكينين - المترجم.

تحت شــجرة المانجو وإلى عمق الطريق المــؤدي إلى تاكيت. ثم أخذ يمشــي بســرعة، لأنه أراد اجتياز القرية قبل أن يبزغ ضوء القمر.

كانت جوقة من الكلاب تنبح بينما دخل في شــارع من شوارع القرية. فبدأ يركض، مباشــرة صوب الطرف الآخر من الشارع. بــل واصل الركض بعــد ذلك، إلى أن وصــل مكانا حيث أصبح الطريق، أوســع فيه، ومنخفضا إلى أســفل التــل ومنحنيا نحو الغابة. كان قلبه يدق بســرعة مــن الإجهاد ولكي يرتاح، ويحاول التأكد من أنه لم يكن متبوعا بالمرة، جلس فوق حقيبته الصغيرة في منتصف الطريق. بقي هناك وقتا طويلا، لا يفكر في شــيء، في حين واصل الليل تقدمه وارتفع القمر. لم يسمع سوى صوت الريح الخفيفة بين الأوراق والتعريشات. فوقه مباشرة كانت قلة مــن الخفــافيش تدور وتحوم، ذهــابــا وإيــابا من دون صــوت. في النهاية أخذ نفسا عميقا، ثم نهض، وواصل طريقه.

الصدى

وضعت إلين مرآتها جانبا؛ فاهتزاز الطائرة يرجها بسرعة شديدة لدرجة أنها لم تكن قادرة على أن ترى ما إن كان أنفها بحاجة إلى مسحوق أم لا. كان هناك راكبان آخران فقط وكانا نائمين. كان الوقت ظهرا؛ والشمس الاستوائية تلمع بشدة أسفل الجناحين الفضيين العريضين وتلقي بانعكاساتها الحادة على السقف. ومن النافذة كان منظر الأرض عبارة عن بساط من الخضرة المنتظمة يمر ببطء. كانت تشعر بالنعاس، لكنها كانت مستثارة جدا لكونها ذاهبة إلى البيت الجديد. أخرجت من حقيبة يدها الخطاب المطوي الذي راحت تقرؤه للمرة الثانية عن قصد، كما لو كانت تحاول فك الشفرة التي لم تكن مضمنة في الكلمات المتتابعة. كان الخطاب بخط والدتها:

إلين - حبيبتي..

يجب عليّ أن أبدأ هذا «وأنهيه» قبل العشاء. خرجت بروو لتأخذ حمامها، وذلك يعني أنها في تلك الأثناء ستجعل لووز (الطاهية) تقوم بتسخين المياه وسوف تعثر على جوزيه (البستاني) كي يحملها إلى السطح حيث الخزان، وسوف يستغرق هذا الأمر حوالي الساعة. هذا بخلاف الوقت الذي سيستغرقه الانتهاء من حمامها بالفعل وارتداؤها لملابسها، وهكذا ترين أنني سيكون عندي متسع من الوقت لمحادثة لطيفة.

ربما ينبغي علي أن أبدأ بقولي إنني وبروو هنا في قمة سعادتنا. إنها الجنة بالتأكيد مقارنة بواشنطن، بقدر ما يسعك أن تتخيلي

جيدا. بالطبع، بروو، لم تستطع أبدا البقاء في الولايات المتحدة، وقد شعرت أنا، عقب المشكلة التي نشبت مع والدك، بأنني لن أقدر على مواجهة أي شخص لفترة من الوقت. أنت تعرفين، إلى أي حد أنا مولعة بالراحة دائما. وهذا هو المكان المثالي لذلك.

بالطبع شعرت بالذنب قليلا بسبب فراري إلى هنا من دون أن أراك. لكنني أظن أن الرحلة إلى نورثامبتون كانت من الممكن أن تقرر مصيري بشكل نهائي لا أعتقد بأمانة أنه كان بوسعي أن أجعل مصيري معلقا. كانت بروو عصبية بسبب إصدار الولاية لبعض القوانين الجديدة التي كانت ستمنع المواطنين من مغادرة الولايات المتحدة بسبب الأوضاع والظروف المضطربة، وغيرها من الأمور. وقد شعرت أنا أيضا أننا كلما أسرعنا بالمجيء إلى هنا في جامونوكال أمكننا تجهيز البيت القديم لأجلك كي تستطيعي قضاء إجازتك فيه. وأن هذا سيكون جميلا. أنا لن أسهب في سرد الأسباب الخاصة بي التي لم تجعلك على دراية مسبقة، وإلا ستبدو ذات نبرة تبريرية، وأنا أعرف أنني لست مضطرة أبدا للاعتذار لك عن أي شيء. لذلك سأترك هذا وأواصل خطابي. أنا واثقة على أي حال من أن الأشهر الثمانية الفائتة قد مرت سريعة جدا عليك هناك.

كانت عندنا حشود كبيرة من الرجال العاملين في البيت منذ أكتوبر الماضي. تصادف أن كان السيد فوربس موجودا في بررانكيليا[٢٨] من أجل تنفيذ مشروع أمريكي جديد في الداخل، وقد أردت أن أتأكد من إشرافه على تشييد الدعامات

(٢٨) ميناء في شمال كولومبيا على نهر مكدلينا - المترجم.

أو الكوابيل الحاملة للأســاس. إن هذا الرجــل أمير فعلا. فلم تكــن الدعامات على درجة عالية مــن الجودة. وكان ينهض على قدميه مرة بعد الأخرى، ليصدر أوامر خاصة بأدق التفصيلات. لقد شــعرت بالذنب لكوني قد جعلته يعمل بجهد شديد، لكنني أظن بأمانة أنه كان يشــعر بالاســتمتاع معنا نحن الفتيات. على أي حال فقد كان الأمر ســيبدو من الحماقة، عندما يكون واحد من أفضل المهندسين المعماريين في الولايات المتحدة موجودا هنا في كولومبيا وأن يكون صديقا قديما، ولا أستعين به عندما أكون فــي حاجة إليه. على أي حال، البيــت القديم أصبح الآن عبارة عن جنــاح قديم وجزء جديد، وذلك الجــزء الجديد مثير جدا، لدرجة أنني لا أقوى على انتظاري لك كي تريه، فقد تم تشــييده فوق الوادي العميق مباشرة. أعتقد أنه ليس من المرجح أن يكون هناك بيت فــي العالم مثل هذا البيت، إذا جاز لي أن أقول هذا بنفســي. إن التراس يجعلني أفكر في الرسم الكاريكاتيري الذي ظهــر في «النيويوركر» وكان فيه رجــلان ينظران من فوق حافة الأخدود العظيم «الجراند كانيون»، ويقول أحدهما للآخر: «هل ســبقت لك الرغبة في البصق لمسافة ميل، يا بيل؟ إنها فرصتك جرب حظك الآن».

لقد تمتعنا بالاستقرار جميعا. كان الطقس رائعا، فقط لو أمكن للووز أن تتعلم أكثر قليلا ما يحب الناس ذوو البشــرة البيضاء أن يأكلوه وكيفية القيام على خدمتهم، فسيكون الوضع ممتازا فعلا. أعرف أنك سوف تستمتعين بوجودك هنا مع بروو، فلديكن أشياء كثيرة مشتركة، حتى لو زعمت أنك «لا تتذكرين كثيرا حبك لبروو».

كان هـــذا في واشـــنطن وكنت أنت، لنقولها بلطـــف واعتدال، في مرحلة ســـنية صعبة. الآن، كبالغة «لأنك بالفعل بالغة»، ستكونين أكثر قدرة على الاســـتيعاب، أنا واثقة من هذا. إنها تحب الكتب، خصوصا المتعلقة بالفلســـفة وعلـــم النفس وموضـــوعات أخرى لا تحاول أمك المســـكينة مجاراتها فيها قـــط. لقد قامت بتجهيز فرن واســـتوديو في الاســـتراحة القديمة التي ربما لا تتذكرينها. إنهـــا تعمل هناك في صناعة وتشـــكيل الخزف الخاص بها طوال اليوم، وكل ما يســـعني القيام به هو الإشـــراف على ترتيب البيت والتأكد من أن المشـــتريات قد تم إحضارها. لدينا نظام تقوم لووز بمقتضـــاه بأخذ القائمة إلى أخيها بعد كل ظهيرة، ليقوم بإحضار المشـــتريات من البلدة في اليوم التالي. هذا فقط لجعله مشـــغولا بشكل تام بصعود الجبل وهبوطه بحصانه، فالفرس عجوز وكسول لدرجة أنه لم يقم طوال حياته بشـــيء سوى التهادي جيئة وذهابا بين البيت والوادي، ولذلك فإنه لا يعرف معنى كلمة ســـرعة. ومع ذلك، لماذا العجلة، هنا في هذه المنطقة الهادئة.

أعتقد أنك ســـتجدين كل شيء وفق هواك، أنا واثقة من أنك لن تســـتغرقي أكثر من خمس دقائق كي تكتشفي أن بروو محببة ووديعة، وليست «غريبة الأطوار» على الإطلاق، مثلما كتبت أنت في رســـالتك. أرسلي لي برقية بمجرد أن تتسلمي هذه، ودعيني أعرف في أي أســـبوع بالضبط سوف تنتهين من دروسك. سوف نقابلـــك أنا وبروو في بررانكيليا. لديّ قائمة بأشـــياء أريدك أن تأتـــي لي بها من نيويورك. ســـوف أبرق لـــك بها بمجرد وصول ردك. انتهى حمام بروو، يجب أن أنهي الخطاب.

مـــع حبـــي، أمك وضعت إلـــين الخطاب جانبا، ثم ابتســـمت قليلا، وأخذت تشـــاهد أجنحة الطائرة وهـــي تغوص في داخل وخارج الســـحب الكثيفة الممتدة في مسار الطائرة. كانت تحدث هـــزة خفيفة فـــي كل مرة كانت تصطدم فيها بإحدى الســـحب، وقد أصبح العالم في الخارج شـــديد البياض. انتابتها رغبة في أن تقفـــز إلى الخارج وتســـير فوق هذه الصلابـــة الناعمة، مثل شخصية في كرتون متحرك.

ذكّرها خطاب أمها بفترة مبكرة جدا في حياتها، الشتاء الذي تم اصطحابها فيه لزيارة جامونوكال. كل ما كان بإمكانها تذكره فيما يتعلق بالأحداث أن أحد الســـكان المحليين قد وضعها فوق ظهر البغل، وأنها شـــعرت برعب مؤلم من أن يسير الحيوان في الاتجاه الخطـــأ، بعيدا عن البيت باتجاه حافـــة الوادي. لم تكن عندها أي ذكرى متعلقة بالـــوادي. ربما لم تره أبدا، على الرغم من أنه كان على بعد خطوات قليلة من البيت، عبر طريق قصير مـــن أعواد الخيزران. مع ذلك، فقد كانـــت لديها ذكرى واضحة فيما يتعلق بوجوده، وكذلك الإحســـاس الكبير بالفراغ فيما وراء وأســـفل ذلك الجانب من البيت. وتذكرت الصوت البعيد العميق المكتوم للمياه التي تســـقط من ارتفاع كبير، وخلفية صوت المياه الثابتة الناعمة التي كانت تنزلق في كل لحظة على مدار اليوم - خلال المناقشات التي كانت تتم أثناء تناول الطعام، وأثناء فترات اللعب في الحديقة، وفي الليل خلال الأحلام. تعجبت إن كان من الممكـــن فعلا أن تتذكر كل هذا منذ الفترة التي كان عمرها فيها لا يتجاوز الخامسة.

فـي بنمـا كان هناك تغيير لابد منه في رحلـة الطائرة. كان الشـفق أخضر صافيـا، قامت بنزهة قصيرة فيمـا وراء نطاق المطـار. كانت ببغـاوات الباراكيت تتعارك فـوق الأفرع العلوية للأشـجار، ثم هدأت فجأة. اسـتدارت هي فجأة عائدة ومضت إلى الداخل، حيث جلست تقرأ حتى حان وقت المغادرة.

لم يكـن هناك أحـد في اسـتقبالها عندمـا وصلت إلى بررانكيليا في السـاعات المبكرة مـن الصباح. قررت الذهاب إلـى البلدة وحجـز غرفة فـي الفندق. مضت إلـى الخارج بحقيبتي سـفرها وبحثت هنا وهناك عن سيارة أجرة. كانت سيارات الأجرة قد ذهبت جميعها إلى البلدة تحمل ركابا، لكن رجـلا كان يجلس فوق أحد صناديق تعبئـة البضائع أخبرها بأن سيارات الأجرة سوف تعود عما قريب. ثم قال فجأة: «هل تبحثين عن السيدتين؟»

«ماذا؟ لا، ما الذي تعنيه؟»

«هل تريدين السيدتين اللتين كانتا تبحثان عنك هذه الليلة؟»

«أين هما؟» قالت إلين وقد تفهمت.

«ذهبتا لتناول الشراب»، أجاب بابتسامة عريضة.

«أين؟ في بررانكيليا؟»

«لا. هنا». أشار إلى نهاية طريق مظلم.

«أين؟ هل بإمكاني الذهاب سيرا؟»

«بالتأكيد. سأذهب معك».

«لا! شكرا. ابق هنا. شكرا لك. يمكنني المضي في سلام. أين هذا المكان؟ وكم يبعد؟»

«أوكي».

«ما هذا ؟ هل هو بار؟ ما اسمه؟»

«إنهما تستمعان إلى الموسيقى في بار لا جلوريا هذا هو اسمه. بإمكانك الذهاب، لكي تستمعي إلى الموسيقى. إنك تبحثين عن سيدتين. إنهما تتناولان الشراب».

ذهبت إلى الداخل مرة ثانية وتركت الحقيبتين مع موظف شركة الطيران الذي أصرّ على اصطحابها. هرولا في صمت على امتداد الطريق الخلفي. كانت أسوار النباتات على كلا الجانبين تؤوي حشرات كانت تصدر ضجة عرضية عنيفة ومملة مثل ترس خشبي يدور. بعد فترة قصيرة كانت هناك أصوات طبول وأبواق تعزف موسيقى رقص الكوبية.

«لا جلوريا»، قال مرافقها بابتهاج.

كان لا جلوريا عبارة عن كوخ طيني يلمع في تألق وله شرفة مسقوفة بالقش تطل على الطريق. كان صندوق تشغيل الأسطوانات (الجووك بوكس) [٢٩] قد تم وضعه في الخارج، حيث انتشرت قلة من الزنوج المخمورين.

«هل هما هناك؟» قالت بصوت عال، لكن لنفسها.

«لا جلوريا»، أجاب، وهو يشير.

عندما أصبحا قبالة واجهة المبنى، لمحت امرأة مرتدية الجينز الأزرق، وعلى الرغم من أنها تعرفت عليها من فورها حيث كانت بروو، فإن عقلها فشل لسبب ما في تقبل هذه الحقيقة، واستمرت تسأل نفسها، «هل هما هنا أم لا؟»

---

(٢٩) خزانة تختار منها أسطوانة أغان لتذيعها لك مقابل عملة معدنية توضع فيها - المترجم.

اســتدارت لتذهب نحو الشرفة. كانت الاسطوانة قد توقفت عــن الدوران. كان هناك مصــرف ممتد في الظلام بين الطريق والمدخل، وإذ بها تســقط فيه على الفور ثم سمعت نفسها وهي تصرخ. كان الرجل من خلفها قد صاح بالإسبانية قائلا: «انتبهي!»، إلاّ أنها تمددت هناك بالفعل وهي تلهث في غضب وألم، وتصيح قائلــة «آه! كاحلي!» كان هناك تعجــب واندهاش داخل البار. ثم صــاح صوت أمها قائلة: «آه، إنهــا إلين». وبعد ذلك بدأ صندوق الجــووك في الصرير والصخب مرة ثانية. ظلّ الزنوج ســاكنين تماما. ساعدها شــخص ما كي تنهض. كانت تجلس الآن داخل البار في وهج أضواء الكهرباء الحاد.

«أنا بخير»، قالت، عندما استراحت في الكرسي.

«لكن يــا حبيبتي، أين كنتِ؟ كنا ننتظــرك منذ الثامنة، وكنا على وشك أن نفقد الأمل. إن بروو المسكينة مريضة».

«هراء، ســوف أتعافــى»، قالت بروو، وهي لا تزال جالســة إلى البار. «بمجرد أن تتاح لي فرصة لالتقاط أنفاسي، هذا كل شيء».

«لكــن هل أنت على ما يرام يــا حبيبتي؟ إن وصولك إلى هنا بهذه الطريقة شــيء ســخيف وغير معقول»، ونظرت إلى كاحل إلين وسألتها:

«هل هناك مشكلة في الكاحل؟»

جاءت بروو من عند البار لتصافحها قائلة:

«ظهور درامي، يا فتاة».

كانت إلين جالسة هناك وهي تبتسم. كانت لها عادات عقلية غريبة. أقنعت نفســها عندما كانت طفلــة أن ذهنها كان يتميز

بالشـــفافية والوضوح، لدرجة أن الأفـــكار الموجودة بداخله كان بإمكان الآخرين إدراكها على الفور. وبناء على ذلك، عندما كانت تجد نفســـها في أوضاع غير مريحة، بـــدلا من المجازفة بخطر الارتياب في إضمارها لأفكار ازدرائية أو متمردة، قامت بتطوير نظام جديد للامتناع عـــن التفكير كلية لفترة ما. أثناء طفولتها امتد هذا الخوف من عـــدم قدرتها على امتلاك أي خصوصية ذهنية ليشـــمل جميع الأشـــخاص؛ وبصفة خاصة الأشـــخاص المتواجدين في نطاق قد يســـمح لهـــم بالتدخل في رأيها. كانت تشـــعر الآن بالانفتاح على هؤلاء الموجودين فقط. لذلك عندما وجدت نفســـها وجها لوجه مع برو، كانـــت مدركة لعدم وجود عاطفة بعينها باســـتثناء الإحســـاس الغامض المألوف بالملل. لم تكـــن هناك فكرة فـــي ذهنها، وكان وجهها خيـــر معبر عن هذه الحقيقة الجلية.

كان الصباح في كل يوم يكرر نفســـه بشكل يصعب تصديقه، التجدد الأزلي للبرودة المنسكبة إلى أسفل من الغابة فوق البيت، كان يجثـــم على مقربة من الأرض بفعـــل الضباب الخفيف. في الداخـــل والخارج، كان الجو رطبا وله رائحة تشـــبه أريج محال الزهور، ولكن الرطوبة كانت تنقشع كل يوم عندما تشتعل الشمس اللافحة عبر دثار الضباب الرقيق الذي يغلف ظهر الجبل. وكان العيش في هذا المكان أشبه بالعيش إلى اليمين أو اليسار، بسبب الأرض المترامية إلى أعلى على أحد الجانبين وإلى أســـفل على الجانب الآخـــر بنفس الزاوية. كان الـــوادي العميق وحده الذي يعطي شـــعورا بالتعامدية أو الارتفاع وكانت الحوائط الصخرية

التي انتصبت في الجانب المقابل لهذا المدرج الواسع، كانت تذكر بأن اتجاه مركز الأرض إلى أسفل وليس مائلا بشكل ما إلى أحد الأجناب. كان البخار يتصاعد من بحيرة غير المرئية في عمق القاع بشكل مستمر، وكان صوت الماء الغامض القادم من بعيد مثل صوت خرير أو شخير النوم نفسه.

لبضعة أيام كانت إلين تستلقي في السرير وهي تستمع إلى صوت الماء والطيور، وإلى الأصوات السابحة في هذه البيئة الغريبة والقريبة. كانت بروو وأمها تتناولان الإفطار في السرير معها، وتظهران بصفة عامة قبل وجبة منتصف النهار مباشرة لعدة دقائق، وتتحدثان معها حتى تقوم كونتشا بإحضار صينية الغداء الخاصة بالعجزة والمقعدين من أجل إلين. في فترات بعد الظهر كانت إلين تقلب صفحات المجلات القديمة وتقرأ حوادث القتل. كانت الدنيا تمطر عادة حوالي الساعة الثالثة، وكان الصوت في البداية يأتي مثل تدفق متزايد لشلال عظيم على مسافة بعيدة، ثم يزداد عنف انهمار المطر حتى يصبح الصوت جليا وأكثر وضوحا وقربا - وكان الهدير الصاخب حول البيت بأكمله يغطي على أي صوت آخر. كانت السحب الداكنة تخيم على المكان وتطوق الجبل بإحكام، إلى درجة أنه كان يبدو أن الليل سوف يحل في غضون وقت قصير. فتدق إلين جرسا صغيرا لتأتي كونتشا وتشعل المصباح الزيتي الذي فوق المنضدة المجاورة للسرير. وتظل مستلقية وهي تنظر إلى أوراق أشجار الموز المبتلة خارج النافذة، ولأن جلبة الأمطار كانت في كل مكان، فقد كانت تشعر بالراحة تماما عوضا عن

لحظــة الخطر. لم تكن هناك ضرورة لاختبار الشــعور، وليس ثمة حاجة للتفكير، فقط تراجع المطر، والظهور المبهج للشمس في أبخرة الشــفق، والعشاء المبكر هو ما كانت تتشوق إليه. كل مســاء بعد العشــاء كانت أمها تأتي للثرثرة لفترة طويلة، عادة بخصوص الخدم. في الليالي الثلاث الأولى كانت بروو تحضر هي الأخرى، وهي تحمل شــراب الهاي بــول[٣٠]، لكن بعد ذلك كانت الأم تأتي وحدها.

طلبت إلين أن يتم نقلها إلى الجزء القديم من البيت، بدلا من وضعهــا في هذه الحجرة غير المريحة إلى حد بعيد في الجناح الجديد، حيث كانت نافذة حجرتها الأصلية تطل على الحديقة، والتــي كانت عبارة عــن مربع صغير من النجيــل يحتوي على أشجار موز صغيرة في كل جانب منه. في الطرف البعيد كانت هنــاك نافورة؛ وخلفها كانت التضاريــس غير المنتظمة لجانب الجبل بشجيراته المقطوعة حديثا والبقايا التي تم حرقها، وفي الخلف كانت الغابة العالية لا تزال هناك في البعيد وكان طرفها قد تم قطعه في شرائح مستقيمة بطول المنحدرات منذ سنوات بعيدة لإقامة المزرعة. على الأقل كانت تشــعر هنا في حجرتها بأن الأرض موجودة تحتها في مكان ما.

عندما توقف كاحلها عن إيلامها، بدأت تنزل إلى الطابق الأسفل لتناول الغداء، الذي كان يقدم في التراس فوق مائدة مزودة بمظلة بحــر مغروزة في منتصفها. كانت بروو تأتي متأخرة بشــكل دائم من الاستديو الخاص بها، مرتدية الجينز الأزرق، الذي كان مغطى

(٣٠) شراب يخلط بالصودا أو الماء ويقدم مع الثلج في كأس طويلة - المترجم.

بالطين، وبلطخات قذرة على وجهها. ولأن إلين لم يكن بمقدورها أن تطاوع نفسها على التفكير فيما كانت تشعر به فعلا نحوها، وهو أن بروو كانت غير مهذبة، قبيحة ومتطفلة بعض الشيء، فقد ظلت غير واعية بشكل انفعالي بوجود بروو، بمعنى أنها كانت مهذبة لكن برمة وكان جودها نادرا أثناء محادثات الطعام. ثم إن إلين، أيضا، كانت تشعر بعدم الراحة تحديدا نحو التراس. فقد كان الفراغ قريبا جدا وبدا الدرابزين منخفضا جدا بمعنى الكلمة فيما يتعلق بالأمان. وقد فضلت أن يكون تناولها للوجبات بشكل مختصر قدر الإمكان، من دون إضاعة وقت لا لزوم له في ارتشاف القهوة بعد الطعام، لكن لم يخطر لها على الإطلاق أن تبوح بأسبابها. أما في ما يتعلق ببروو فقد كانت مكرهة على التصرف بأقصى ما أمكنها في حدود اللياقة والذوق. من حسن الحظ أن أتاح لها كاحلها عذرا مقنعا لتعود إلى غرفتها.

اكتشفت بعد وقت قصير فناء صغير مجاورا للمطبخ حيث كانت هناك أصص كبيرة تحوي على أزهار ذات رائحة جميلة نمت فوق تعريشة كانت موضوعة في أحد الأركان. كان الجو ممتلئا بطنين المئات من النحل الذي كان ملتصقا بكثافة إلى البتلات ويتحرك في الهواء ببطء هنا وهناك. بعد الغداء كانت تسحب كرسيا قابلا للطي إلى ظل التعريشة وتقرأ إلى أن يبدأ المطر في التساقط. كان مكانا خانقا لا هواء فيه، لكن طنين النحل كان يغطي على صوت الشلال. في عصر أحد الأيام تبعتها بروو إلى هناك ووقفت واضعة يديها في جيبيها الخلفيين وهي تنظر إليها.

«كيف يمكنك تحمل هذا الحر؟» قالت إلين.

«آه، إنني أحب هذا المكان».

«حقا؟» توقفت. ثم سـألت «أخبريني، هل تحبين المكان هنا فعلا، أم أنك تعتقدين أنه ممل جدا؟»

«لِمَ، أعتقد أنه رائع بمعنى الكلمة».

«هممهم. إنه كذلك».

«ألا تحبينه؟»

تثاءبت بروو. «آه، أنني مولعة به. لكنني مشغولة طوال الوقت. أي مكان يمكنني العمل فيه، أبقى فيه، كما تعرفين».

«نعـم، أظن ذلـك»، قالت إلين. ثم أضافـت. «هل تخططين للبقاء لفترة طويلة؟»

«عجبـا! ما الذي تعنينه؟» قالت بـروو، وهي تميل إلى الوراء نحو المنزل، ولا تزال يداها خلفها. «إنني أعيش هنا».

ضحكت إلين باقتضاب. بالنسـبة إلى أي شـخص باستثناء بروو كان سيبدو الأمر عبارة عن ضحكة مرح صاخبة، لكن بروو ضيّقت عينيها ومدت شفتها إلى الأمام قليلا متسائلة:

«ما الذي يبعث على الاستغراب الشديد؟».

«أعتقد أنك غريبة، ومُحيرة جدا. إنك تنزعجين وتضطربين بسهولة شـديدة. ربما تعملين أيضا بجد زائد هناك في الخارج في حظيرتك الصغيرة».

كانت بروو تنظر إليها باندهاش.

«سـبحان الله»، قالت أخيرا، «إن نسـبة ذكائك مرتفعة جدا، يا فتاة».

«أشكرك»، قالت إلين بجدية شديدة. «على أي حال، أعتقد أن الأمر على ما يرام لدرجة أنك سعيدة هنا، وأنا أتمنى لك الاستمرار في سعادتك».

«هذا هو ما جعلني أحضر لأخبرك به».

«كل شيء على ما يرام إذن».

«أنا لا أستطيع فهمك»، قالت بروو بتجهم.

«أنا لا أعرف ماذا تقصدين»، أجابت إلين، وهي تلمس بأصابعها صفحات كتابها بضيق صدر. «إنها أكثر محادثة تافهة سبق لي دخولها».

«أنا لا أعتقد ذلك»، قالت بروو، وهي تدخل المطبخ. وفي المساء نفسه، عندما حضرت أمها لتثرثر معها بعد العشاء كالعادة، بدت حزينة قليلا.

«لا يبدو أنك تنسجمين بشكل جيد جدا مع بروو»، قالت بتأنيب، بينما كانت تجلس في نهاية السرير.

«لماذا، إننا منسجمتان بشكل جيد تماما. آه. أنت تتحدثين عما حدث بعد الظهر، ربما».

«نعم، أنا أقصد ذلك، ربما. فعلا، يا إلين، إنك ببساطة لا تستطيعين أن تكوني وقحة مع امرأة في مثل سنها. إنها ضيفتي، وأنت كذلك، ويجب أن تكونا لطيفتين إحداكما مع الأخرى. إنها لطيفة دائما وأنا أشعر بأنك لست كذلك».

أمسكت إلين أنفاسها وقالت، «أنا ضيفتك ...»

«دعوتك إلى هنا لقضاء عطلتك وأنا أريد أن تحدث أشياء لطيفة، ولا أرى سببا ولو بسيطا لعدم سير الأمور بهذه الطريقة».

صرخت إلين فجأة، «إنها معتوهة».
نهضت أمها وغادرت الحجرة بسرعة.

في الأيام الهادئة التي تلت، لم تأت أي منهما على ذكر الحادثة. وظلت إلين تواصل التردد على الساحة الصغيرة بعد تناولها وجبة الغداء.

أقبل صباح أكثر جمالا من كل صباح سبقه، عندما تعلق ضباب الصباح المبكر داخل حجرة نومها، وأتت الصيحات المختلطة للطيور الصاخبة بمنتهى الوضوح من الغابة غير المقطوعة. قامت إلين بارتداء ملابسها ومضت بسرعة إلى الخارج. كان هناك ألق أبيض في الجو لم تر مثله من قبل. مشت على طول طريق أفضى إلى أكواخ الأهالي. كانت هناك حياة تمور وتدور في داخل تلك الأكواخ؛ أطفال رضع يبكون وببغاوات وطيور مغردة تضحك وتغني في أقفاصها. انحنى الطريق نحو امتداد من الأشجار الواطئة التي زرعت لحماية شجيرات البن التي مازالت في الغالب تتفتح هنا في الليل. كان الهواء موشى بتيارات البرودة، وروائح الخضراوات تتساب مثل أشرطة زينة غير مرئية تتدلى من الأفرع الخضراء، كلما تقدمت هي في سيرها.

عنكبوت ضخم فاتح اللون كان يتمشى ببطء ليعبر الطريق عند قدميها. وقفت ساكنة وراقبته حتى اختفى في الأوراق الخضراء في أحد الجوانب. وضعت يدها على قلبها لتشعر كيف كان يخفق بشكل متكرر بطريقة لافتة. ثم استمعت إلى صوته في رأسها للحظة، ولم ترد كسر الإيقاع باستئناف السير مرة ثانية. ثم بدأت تواصل سيرها إلى الأمام في سرعة، وهي تتبع الطريق الصاعد

نحو الجزء الأكثر إشـراقا ولمعانا في السـماء. وعندما أصبحت فجأة فوق ربـوة تعلو المزرعة مباشـرة، كان بإمكانها بصعوبة أن تميز مجموعة من الأسـطح خلال الضباب. ولكن في هذا المكان كان صوت الشلال أكثر قوة، فافترضت أنها قريبة من الوادي، على الرغم من أنه ليسـت ثمة علامـة دالة عليه. كان الطريق ينعطف في هذا المـكان ثم يواصل امتـداده بطول أرض وعـرة مفتوحة متجهة إلى أعلى. راحت إلين تصعد في هذا الطريق بثبات مطرد، وهي تتنفس ببطء وبعمق، ربما لنصف سـاعة، وكانت مندهشـة لأنها وجـدت أن الغابة قد تم اجتثاثها تماما من كل الجوانب في هـذا الجزء من حرف الجبل. اعتقدت لبعض الوقت أن السـماء كانت آخذة في أن تصبح أكثر صفاء، وأن الشـمس البازغة كانت على وشـك اختراقها، لكن لأن الطريق صار منبسـطا وأصبحت قادرة على أن ترى من مسافة بعيدة أمامها مباشرة، فقد رأت أن الضباب هنا كان أكثر كثافة منه في الأسفل.

في بقع أو أماكن بعينها كانت هناك انحدارات شـديدة على كل جانب من جانبي الطريق. وكان من المسـتحيل عليها أن تتبين مقـدار العمق الذي تنحدر إليـه الأرض. كان هناك في الجوار القليـل من النباتات والصخور، وفـي الوراء قليلا ارتفعت أوراق عالية جدا لأشجار سرخس، وخلف هذا كان الفراغ الأبيض. كان هـذا مثل اعتلاء قمة حائط أو جدار عال في الهواء. ثم انعطف الطريق انعطافة واسـعة وامتد إلى أعلى بشكل شديد الحدة أو شبه عمودي وكان بإمكانها أن ترى أشجارا بمفردها طولها على أحد الجانبين.

فجأة وجدت نفسها في مواجهة صف من الأكواخ. كانت أقل جودة في الصنع وأصغر من تلك التي سبق أن رأتها في المزرعة. كان الضباب ممتلئا برائحة دخان الخشب، وكانت هناك رائحة خنازير. وقفت إلين ساكنة. كان هناك رجل يغني، وطفلان صغيران عاريان خرجا من باب أحد الأكواخ، نظرا إليها للحظة في رعب، ثم جريا بسرعة عائدين إلى الداخل. تابعت سيرها إلى الأمام. كان الغناء آتيا من وراء الكوخ الأخير. عندما صارت في مواجهة الكوخ، رأت أنه محاط بسور متشابك ومتين من السلك الشائك، وقد ترك معبر بعرض حوالي ست أقدام حول جوانب الكوخ. ظهر شاب من الجانب البعيد في تلك المساحة المسيجة. كان قميصه وبنطاله باليين، وله نفس البشرة السمراء المعهودة في أماكن عديدة. كان يغني وهو يتقدم مقتربا في اتجاهها، وظل مستمرا في الغناء، وهو ينظر مباشرة إلى وجهها بعيون تلمع بالتساؤلات. ابتسمت قائلة له بلغته، «يوم جميل». صدرت عنه إيماءة ترحيب، بطريقة مسرحية مفاجئة ومثيرة إلى حد ما. توقفت إلين عن التقدم وثبتت في مكانها، ونظرت بنوع من التردد إلى الوراء نحو الأكواخ الأخرى. أشار الشاب مرحبا بها مرة ثانية ثم مضى إلى داخل الكوخ، ثم ظهر بعد لحظة، ووقف يحدق إليها بافتتان، ثم قام بعمل إشارات دعوة أخرى. وقفت إلين في هدوء تام، لا تحيد بعينيها عن وجهه. مشى الشاب ببطء نحو السور وأمسك بالسلك بكلتا قبضتيه، كانت عيناه تتسعان، بينما كان يضغط السلك الشائك في راحتيه، ثم أحنى جذعه عبر السور، ومد رأسه نحوها، وعيناه مثبتتان في عينيها بتركيز

شديد وقوة غير معقولة. لعدة ثوان أخذ يرقب كل منهما الآخر؛ ثـم تقدمت تخطـو نحوه قليلا، وهي تحدق فـي وجهه وجبينها مقطب. فـي هذه اللحظة صرخ وأفرغ فمه مـن الماء الذي كان مخزونـا فيه، موجها هذا الماء بقـوة إلى وجه إلين، فطال بعض منـه جزءا من وجنتها، والباقي كان من نصيب الجزء العلوي من ثوبها. انفرجت أصابعه عن السلك، ثم اعتدل قائما، وتراجع في بطء نحو الكوخ، وهو يراقب وجهها عن قرب طوال الوقت.

ظلت جامدة لبرهة ويدها على خدها. ثم انحنت إلى أسفل، والتقطت حجرا كبيرا من الطريق قذفته بكل قوتها نحو الباب. جـاءت صرخة مخيفة من الداخل؛ لـم تكن الصرخة كصوت أي صراخ سـمعته من قبل. الأمر محير، نعم، هكذا اعتقدت عندمـا بدأت تركض عائدة إلى ما وراء الأكواخ الأخرى، كانت صرخة وإهانة سـاذجة لطفل صغيـر، لكنها كانت أيضا بكاء رجل ناضج. لم يظهر أحد بينما كانت تعبر الأكواخ. عادت بعد فترة قصيرة إلى صمت الجانب الجبلي الفارغ، لكنها واصلت عدوها، وهي مندهشة لاكتشافها أنها كانت تبكي أيضا. جلست فـوق صخرة وهدّأت من روعها بمشـاهدة بعض النمل الذي يأتي على إحدى الشـجيرات حيـث كان يقوم بتقطيع أوراقها إلـى مربعات صغيرة ثم تحمل كل نملـة منها مربعا في فمها إلى البعيد. كانت السـماء قد صارت مشرقة في ذلك الوقت؛ وكانت الشمس عما قليل سـتصبح كذلك في المنتصف منها. اسـتأنفت سيرها مرة ثانية، وعندما عادت إلى البقعة العالية فوق المزرعة، صار الضباب سـحبا كبيـرة راحت تتهادى في

زحفها بعيدا لتهبط نحو سفح الجبل نحو الشعاب والوهاد. كانت مرتعبة لرؤيتها إلى أي مدى كانت على مسافة قريبة حين وقفت عند الحافة المعتمة القبيحة للممر الجبلي الضيق. وكيف بدا البيت كأنه منزل مخبول هناك في الأسفل، وقد بدا مائلا إلى الخارج كما لو كان يحاول أن يرى القاع. بعيدا إلى أسفل البيت كانت الأبخرة تتصاعد من البحيرة. تابعت بعينيها الجوانب شديدة الانحدار للجرف الصخري المقابل الذي كان يعلو مكان وقوفها. وقد جعلها هذا تشعر بأنها قد أصابها المرض، وسارت وهي تترنح في اضطراب عائدة إلى البيت وقد وضعت يدها على جبهتها، لا تعير انتباها إلى الأهالي الذين كانوا يحيونها من على عتبات منازلهم.

بينما كانت تجري مجتازة الحديقة ناداها صوت ما. التفتت إلى الخلف فرأت بروو تغسل يديها في حوض النافورة. فوقفت ساكنة.

«لقد نهضت مبكرا. لابد أنك تشعرين بتحسن»، قالت بروو، مجففة يدها في شعرها. «أمك أصابتها نوبة. ادخلي لتريها».

حدقت إلين في بروو للحظة قبل أن تقول، «كنت سأدخل. ليس عليك أن تخبريني».

«آه، أظن أنني أخبرتك».

«لست مضطرة لأن تخبريني بأي شيء. أعتقد أنني أستطيع تدبير أمري بشكل جيد جدا بدون مساعدتك».

«ليست المساعدة بالضبط هي ما أرغب في أن أعطيك إياه»، قالت بروو، وهي تضع يدها في جيبها. «ستكون ضربة

سريعة في الأسنان أكثر تفضيلا. هل تعتقدين أنني أحب أن أرى أمك وهي قلقة عليك؟ في البداية كنت مريضة في السرير، ثم تختفين تماما في الغابة الملعونة. هل تعتقدين أنني أرغب في مواصلة التحدث معها عنك، وطمأنتها كل عشر دقائق؟ بحق الجحيم ما الذي تعتقدينه في ما يتعلق بالحياة، حفلة خروج طويل المدة؟»

حدقت إلين بشكل أكثر قوة، وبكراهية شديدة. «أعتقد ذلك»، قالتها ببطء، مضيفة «إن الحياة سيئة جدا. خصوصا في هذا المكان. وأعتقد أنه يجب عليك أن تنظري مرة في المرآة ثم تقفزين بعد ذلك من الشرفة. وأنا أعتقد أن عقل امرأة كبيرة في السن مثلك يجب أن يتم فحصه».

«فهمت»، قالتها بروو بصوت تغير من الألم والكآبة. أشعلت سيجارة ومشت إلى الاستديو الخاص بها. مضت إلين مسرعة إلى داخل البيت وصعدت إلى حجرتها.

بعد أقل من ساعة، طرقت أمها باب حجرتها. عندما كانت تدخل الحجرة، لم تستطع إلين أن ترى أنها كانت تبكي قبل لحظة فقط.

«عزيزتي إلين، لديّ شيء ينبغي أن أقوله لك»، بدأت كلامها على هيئة اعتذار مضيفة، «وسيتحطم قلبي تماما من جراء الإفضاء به. لكن أنا مضطرة إلى قوله».

توقفت، كما لو كانت تنتظر أن تواتيها الشجاعة.

«أمي، ما الأمر؟»

«أظن أنك تعرفين».

«بشأن بروو، على ما أعتقد. أليس كذلك؟»

«إنـــه بشـــأنها بالتأكيد. أنا لا أعرف كيـــف يمكنني أن أصلح الأمر على الإطلاق. لقد أخبرتني هي بما قلته أنت لها، ويجب أن أقول أنني وجدته صعب التصديق. كيف استطعت التفوه به؟»

«هل تقصدين الآن مباشرة في الحديقة؟»

«أنـــا لا أعرف أيـــن قلته، لكنني أعـــرف أن ذلك لا يمكن أن يســـتمر. لذلك أنا مجبرة على أن أخبـــرك بهذا ... يجب عليك الرحيل. أنا لا أقدر على الاستثارة وتعكير الصفو بهذه الطريقة، ويمكنني أن أقول بالضبط ما الذي سيكون عليه الأمر إذا بقيت هنا».

«أنا لست مندهشة لهذا على الإطلاق»، قالت إلين، متظاهرة بالهدوء. «متى تريدينني أن أغادر؟»

«هذا مؤلم للغاية ...»

«آه، كفى! لا بأس. لقد أخذت الإجازة ويمكنني الحصول على الكثير من العمل لأقوم به قبل أن يبدأ الفصل الدراســـي. اليوم؟ أم في الغد؟»

«أعتقد أول الأسبوع. سوف أذهب معك إلى بررانكيليا».

«هل تعتقدين أنني ســـأكون ســـخيفة إذا تناولت وجباتي كلها هنا فوق؟»

«أعتقـــد أنها فكرة مثالية، يا عزيزتي، ويمكننا أن نحظى معا بزيارات قصيرة، أنت وأنا، بين الوجبات».

الآن، برغم أن التوتر يجب أن يكون قد انتهى، فإنه لم ينته من ناحيـــة أو أخرى. أثناء الليالي الأربع التي ســـبقت رحيلها، كانت

تنتـاب إلين أحلام مروعة بشـكل لا نهائي. كانت تسـتيقظ في الظلام أكثر مما ينبغي وهي تتعذب بشدة حتى لو حركت يدها. لم يكن هذا بسبب الخوف؛ فلم يكن باستطاعتها تذكر الأحلام. بدا الأمر إلى حد ما كما لو كان جزءا من أعماق أعماق وجودها قد تم اكتشـافه حديثا وأنه يعاني من حـدة الألم. كانت تتنفس بسرعة وهي مسـتلقية في تيبس تام لفترات طويلة، تستمع إلى الصوت اللانهائي للشلال، الذي يقطعه على فترات كبيرة بعض الضوضـاء الليلية الخافتة في مكان قريب بين الأشـجار. وفي النهاية، عندما كانت تستجمع الطاقة الكافية للتحرك، كانت تبدل من وضعها في السـرير، وتتنهد بعمق شديد، ثم تسترخي بقدر يكفي لأن تسقط مجددا في عالم النوم المنذر بسوء العاقبة.

عندما جاء اليوم الأخيـر، كان هناك صوت نقر خفيف على بابهـا بعد الفجر مباشـرة. نهضت وفتحت البـاب. كانت أمها هناك، تبتسم بشكل رقيق قائلة:

«هل تسمحين لي بالدخول؟»

«آه. صباح الخير. بالطبع. إن الوقت مبكر، أليس كذلك؟»

مشت أمها نحو النافذة ووقفت تنظر إلى الأسفل في الحديقة المشبعة بالضباب.

«أنا لسـت على ما يرام اليوم»، قالت. «أخشـى ألا أقدر على اصطحابك إلى بررانكيليا. أنا لست متهيئة لركوب حصاني اليوم. إنها طويلة جدا، رحلة الساعات الثلاثة تلك إلى جومونوكال، ثم بعـد ذلك القطار ثـم المركب طوال الليل. ليس عليك سـوى أن تسامحينني. فليس بإمكاني تحمل كل تلك الوسائل في الانتقال.

إنها ليست بالأمر الكبير، أليس كذلك؟» واصلت، وهي ترفع بصرها أخيرا نحو إلين. «ستودع إحدانا الأخرى هنا».

«لكن، يا أمي، كيف أذهب بمفردي؟»

«آه، سيذهب معك جوزيه طوال الطريق إلى بررانكيليا وسيعود مساء الأربعاء. هل كنت تظنين أنني سأدعك ترحلين بمفردك؟»

بدأت تضحك بشدة، ثم توقفت فجأة وبدت غارقة في التفكير والتأمل.

«إنني على العكس أكره أن أكون هنا لليلتين من دون جوزيه، لكنني لا أرى أي طريقة أخرى لإرسالك إلى هناك بحلول الغد. بإمكانك الذهاب على متن أحد المراكب المتوجهة إلى بنما. دائما ما يكون هناك مقعد في مكان ما. والآن، هيا إلى الإفطار، هيا إلى الإفطار ...»

ربتت على خد إلين، وهي تسرع إلى الخارج ثم نزلت إلى الطابق الأسفل حيث المطبخ. كان غناء طيور الصباح يصل من الغابة؛ وكان الضباب جاثما بكثافة فوق قمم الأشجار هناك في الأعلى. نقلت إلين تحديقها إلى نهاية الحديقة. فجأة شعرت بعدم قدرتها على الرحيل؛ أي كما لو أنها كانت تترك حبا خلفها. جلست على السرير. «لكن ما هو؟» سألت نفسها بشدة. «ليس تجاه أمي. ولا نحو البيت. ولا الغابة». ارتدت ملابسها بطريقة آلية وحزمت أدوات التزيين المتبقية في الحقيبة الخاصة بالرحلات القصيرة. وعلى الرغم من ذلك، ظل ذلك الإحساس موجودا هناك، يصعب تجاهله وهو مغلف في تمامه.

نزلت إلى الطابق السفلي، كانت هناك مجموعة من الأصوات وقعقعة الآنية الصيني في المطبخ. كانت كونتشا ولووز تعدان صينية إفطارها. توقفت وراحت تشاهدهما حتى أتمتا كل شيء. «لماذا لا تبقي معنا فترة أطول، يا سنيورا [٣١]؟»، سألتها كونتشا بحزن.

لم تجبها، لكنها أخذت منها الصينية وحملتها عبر المنزل إلى الخارج حيث الشرفة، ووضعتها فوق المائدة. كان كل شيء في الشرفة مبللا بندى ورطوبة الوادي. قلبت وسادة الكرسي إلى الجهة الأخرى ثم جلست لتأكل. كان صوت الشلال قد بدد شهيتها، لكنها فكرت، «هذه هي المرة الأخيرة». قالت وهي مشحونة بالعواطف، لكن هذه العواطف كانت متباينة ومشوشة جدا بالنسبة إليها بحيث لم تستطع تحديد أي منها كعاطفة واضحة بارزة لا لبس فيها. بينما كانت جالسة هناك تأكل بعزم وتصميم، أدركت فجأة أن شخصا ما كان يراقبها. تحركت فرأت بروو واقفة في المدخل. كانت ترتدي منامتها وروب الحمّام، وتمسك في يدها بكوب ماء، وبدت ناعسة جدا.

«كيف حالك؟» قالت، وهي ترتشف الماء.

نهضت إلين.

«إننا جميعا مستيقظون مبكرا هذا الصباح»، واصلت بروو بابتهاج.

«إنني راحلة، ينبغي عليّ الذهاب. بعد إذنك، فالوقت قد أزف»، غمغمت إلين وهي تتلفت ملقية بنظرة مختلسة في ما حولها.

---

(٣١) جاء السؤال بالإسبانية - المترجم.

«آه، على رسلك، يا فتاة. إنك لم تودعي أمك حتى الآن. وجوزيه لا يزال يسرج الخيول. يجب عليك أن تأخذي معك الكثير من الحقائب».

«بعد إذنك»، قالت إلين محاولة المرور متجاوزة إياها عبر المدخل.

«جيد، لنتصافح»، قالت بروو، وهي تمد يدها إلى إلين.

«أغربي عن وجهي!» صرخت إلين، وهي تكافح من أجل الاستمرار في الابتعاد عن بروو، «لا تلمسيني!» لكن بروو نجحت في أن تقبض على إحدى ذراعيها المهتاجين بشدة، وأمسكت به بسرعة.

«يكفي هذا الدخول المسرحي. لسنا مضطرتين للقيام بنفس نوع الخروج. قولي لي مع السلامة مثل الآدميين». ثم قامت بلي الذراع قليلا، رغما عنها أمالت إلين نفسها ضد الباب وصارت بشرتها شديدة الشحوب.

«هل تشعرين بالضعف؟» قالت بروو، ثم تركت ذراعها يتدلى، ورفعت كوب المياه الممسكة به، وقذفت ببعض الماء في وجه إلين بأصابعها.

كان رد الفعل فوريا. قفزت إلين عليها بشراسة مفاجئة، وهي ترفسها وتدفعها وتضربها ضربا عنيفا في آن واحد. سقط الكوب على الأرض الحجرية؛ بعد أن كانت بروو ممسكة به في حذر. بشكل آلي، وفي سرعة شديدة، وخفة كخفة الطائر ضربت الفتاة وجه ورأس المرأة في عنف وقسوة، بينما كانت تدفعها ببطء بعيدا عن المدخل وإلى الجانب الآخر من الشرفة.

صدرت من بين شــفتي بروو عدة مــرات كلمة «يا إلهي». في البداية بذلت القليل جدا لتدافع عن نفسها. فقد بدت نصف نائمة عندما تحركت نحو الحافة الخارجية تحت الهجوم الضاري. ثم ألقت بنفسها فجأة على الأرض. واصلت إلين رفسها بينما كانت تتلوى هناك على الأرض، وهي تحاول حماية وجهها.

«لا أحد! لا أحد! لا أحد! لا أحد يستطيع أن يفعل بي هذا!»، كانت تصرخ بطريقة إيقاعية بينما كانت ترفس بروو.

ارتفعت طبقة وحجم صوتها؛ توقفت للحظة، وعندئذ، رفعت رأســها، ثم أطلقت أعظم صيحة في حياتهــا. ارتدت الصيحة علــى الفور من الجدار الصخري الأســود في الطرف الآخر من الوادي بشكل مباشر خلال ضوضاء المياه. أنهى الصوت الخاص بها الحادثة بالنســبة إليها، وبدأت تعــود إلى الطرف الآخر من الشرفة.

كانت كونتشا وأمها واقفتين في المدخل وقد تملكهما الرعب؛ بدتــا كما لو أنهما قد جاءتا لمشــاهدة عاصفة فظيعة تمر عبر الريف. تنحتا جانبا بينما كانت إلين تتجاوزهما.

خارج الإســطبل، كان جوزيه يصفّر، وقد انتهى من إســراج الخيول، وكانت الحقائب قد حزمت بالفعل فوق البغل.

وهي لا تزال في منتصف حلمها العميق، أدارت إلين رأســها نحو البيــت بينما ركبا ماضيين. فرأت لوهلة قصيرة، بين أوراق الأشــجار، شكلين كانا لأمها وبروو وهما واقفتان جنبا إلى جنب في الشــرفة، وحائط الوادي الجبلي العميق يلوح في الخلف. ثم استدارت الخيول وبدأت تهبط الطريق.

حضارتنا محكوم عليها بأن تكون قصيرة: فالأجزاء المكونة لعناصرها مختلفة جدا وغير متوافقة. أنا شخصيا عندي استعداد لأن أنظر إلى كل شيء على أنه يمضي في عملية تفسخ وانحلال. وكلما زاد حجم القنابل، أجهزنا أسرع على الحياة. والحياة من الناحية الظاهرية بشعة جدا بالنسبة إلى المرء حين يقوم بمحاولة المحافظة عليها. دعها تمض في سبيلها. فربما سيبرز في يوم ما شكل آخر من الحياة. في أي من الحالتين، فإن الحياة لا أهمية لها. في نفس الوقت، ما زلت أنا جزءا من هذه الحياة، وأنا مقيد بذلك لحماية نفسي بكل جهد يكون في مستطاعي القيام به. ولذلك أنا هنا. لا تزال الحياة النباتية هنا في الجزيرة هي صاحبة اليد العليا، وعلى الإنسان أن يقاتل حتى يجعل من وجوده شيئا مرئيا بأي درجة. المكان هنا جميل، الرياح التجارية[٣٢] تهب على مدار السنة، وأنا أشك في أنه من المستبعد جدا إهدار القنابل على هذا الجانب المهجور من الجزيرة، أو بالتأكيد على أي جزء منها.

كنت كارها للتخلي عن البيت خصوصا بعد أن توفيت «هوب». لكن التهيؤ لمغادرة المكان كان واضحا. كانت وظيفتي الجامعية باستمرار مهزلة تامة (لأنني أؤمن بأنه ليس ثمة سبب لحث إنسان على التدريس، ويكون هذا السبب صائبا)، وكنت مبتهجا بفكرة الاستقالة، وبمجرد تسوية أمورها واستثمار المال بشكل جيد، لم أكن لأضيع وقتا.

---

(٣٢) الرياح التجارية: ريح تهب باطراد نحو خط الاستواء - المترجم.

أعتقد أن هذا الأسبوع كان أول فرصة لي منذ أن كنت طفلا، لاسترجاع إحساسي بكوني ضمن الوجود. لقد تنقلت من مجلس لطيف إلى الذي يليه، وأنا ألقي بتحية الوداع على الدجالين الإنجليز، ودراويش الفلسفة، وهكذا دواليك، حتى على هؤلاء الزملاء الذين كانت تجمعني بهم صلة ضعيفة تسمح لنا بمجرد التحدث فقط. وقد شاهدت الحسد على وجوههم عندما أعلنت عن مغادرتي على متن طائرة «البان أمريكان» في صباح يوم السبت، وكانت أكبر متعة شعرت بها بين كل هذا هي كوني قادرا على الرد عليهم بـ «لا شيء، أبدا»، عندما سألوني، مثلما كان يتم سؤالي دائما، عما أعتزم القيام به.

عندما كنت صبيا اعتاد الناس على الإشارة إلى أخي تشارلز بـ «الأخ الكبير سي»، على الرغم من أنه يكبرني بما لا يزيد عن السنة فقط. إنه الآن بالنسبة إلي «الأخ البدين سي» فحسب، مجرد محام ناجح. يداه الحمراوان السمينتان ووجهه اللحيم الأحمر، واحتشامه الكاذب المبالغ فيه والذي لا يسبر غوره، تلك هي السمات التي تجعله بالفعل بغيضا بالنسبة إلي. هناك أيضا حقيقة أنه بدا في إحدى المرات غير راض عن الطريقة التي عليها الآن خصال وسلوك ابني راكي. وبرغم كل شيء، فإنه لا يزال أخي الكبير، ويرفض بشكل علني كل شيء أقوم به. الاشمئزاز الذي أشعر به نحوه قوي جدا، لدرجة أنني كنت لسنوات غير قادر على ابتلاع كسرة طعام أو قطرة من شراب في وجوده بدون القيام بمجهود غير عادي. ولا أحد يعرف هذا سواي - بالطبع تشارلز لا يعرفه، فهو آخر شخص يمكن أن أخبره به. لقد وصل

في القطار الأخير قبل ليلتين من مغادرتي. ودخل معي مباشرة في الموضوع، بعد أن تم تجهيز الشراب المخفف له.

«إذن أنت ستتجه إلى البراري»، قال، وهو يجلس على طرف كرسيه مثل أحد الباعة.

«إن كان بإمكانك تسميتها بالبراري» أجبت. «بالتأكيد إنها ليست مقفرة مثل ميتيتشي». (لديه منزل في شمال كويبيك). «إنني أعتبر المكان متحضرا بالفعل».

شرب وتلمظ بشدة، وهو يخفض نظارته بصعوبة إلى أسفل على ركبته.

«وراكي هل ستأخذه معك؟»

«بالطبع».

«يترك المدرسة. إلى مكان بعيد. إلى حيث لا يرى أحدا سواك. أتعتقد أن هذا جيدا».

«نعم أعتقد ذلك»، قلت.

«قسما بالله، لو بإمكاني إيقافك قانونيا، فسوف أفعل!» صاح، ثم نهض ووضع كأسه على رف المدفأة. كنت أرتعد في داخلي من فرط الإثارة، لكنني لم أفعل شيئا خلا الجلوس ومشاهدته. واصل حديثه وهو يصيح، «أنت لست أهلا للحصول على حضانة ولد صغير!»، ورمقني بلمحة صارمة من فوق نظارته.

«هل تعتقد أنني لست أهلا؟» قلت برفق.

نظر إليّ بجدية مرة ثانية. «هل تعتقد أنني نسيت؟»

كنت متلهفا على نحو مفهوم لإخراجه من البيت بأسرع وقت ممكن. وبينما كنت أقوم بمراكمة وتصنيف الخطابات والمجلات

فوق المكتب، قلت له: «هل هذا هو كل ما جئت لتخبرني به؟ لديّ الكثير لأقوم بعمله غدا ويجب أن أحصل على قسـط من النوم. من المحتمل ألا أراك غدا على الإفطار. سيراعي «آجنيس» أنك يجب أن تأكل في الوقت المناسب لكي تلحق بالقطار المبكر».

كان كل ما قاله:» يا لله! افق! انتبه لنفسـك! إنك لن تستطيع خداع شخص مثلي، أنت تعرف هذا».

كان هـذا النوع من الكلام هو بالضبط من صميم شـخصية تشـارلز. فعقله بطـيء وبليد، وهو يتخيل باسـتمرار أن كل من يقابلهم يمارسـون لعبة خداع شـخصية معه بصفة خاصة. إنه غيـر قادر بالمرة حتى علـى متابعة أداء وظيفة التفكير بشـكل معتدل لدرجة أنه يجد الرغبة في التآمر والسـرية والخداع في كل مكان.

«ليس لديّ وقت للاستماع لذلك النوع من الهراء»، قلت، وأنا أتأهب لمغادرة الحجرة.

لكنه صاح، «إنك لا تريد الاسـتماع! لا! ترغب في القيام بما تريـد عمله. ترغب فـي المغادرة بعيدا إلى هنـاك والعيش وفق هواك، ولتذهب النتائج المترتبة على هذا إلى الجحيم!» في هذه اللحظة سمعت راكي يهبط إلى الطابق السفلي، حيث كنا نتحدث. من الواضح أن تشـارلز لم يسمع شيئا لأنه واصل هذيانه قائلا: «لكـن فقط عليك أن تتذكر. أنني قـد حصلت على رقمك على أي حال، وإذا حدثت أي مشكلة مع الولد فسوف أعرف على من يقع اللوم».

أسـرعت عبر الحجرة وفتحت الباب حتى يتمكن من الانتباه

إلـــى أن راكي كان موجـــودا هناك في المدخـــل. أوقف ذلك من تبكيته المطول لي. كان من الصعب معرفة إن كان راكي قد ســـمع أي جـــزء منه أم لا. على الرغـــم من أنه ليس صغيرا تماما، لأنه شخص عاقل وراشـــد، فإنه من المستحيل تماما معرفة ما يدور في رأسه تقريبا أكثر مما يسمح هو للمرء بمعرفته.

كنـــت متضايقا مـــن أنه كان من حق تشـــارلز أن يرفع صوته بالصيـــاح فيّ داخل بيتي. إنه بالتأكيد، الشـــخص الوحيد الذي كان بإمكاني قبول مثل هذا الســـلوك منـــه، لكن ليس هناك أب يحـــب أن يراه ابنه يتلقى النقد وهو خانع. كان راكي واقفا هناك بالفعـــل مرتديا روب الحمّام الخاص بـــه، ووجهه الملائكي خال تماما من كل تعبير، وقال: «هل من الممكن أن تقول للعم تشـــارلي ليلة سعيدة نيابة عني. فقد نسيت أن أقول له».

أخبرته أنني سأفعل، وأغلقت الباب بسرعة. عندما تراءى لي أن راكي قد عاد إلى حجرته في الطابق العلوي، تمنيت لتشـــارلز ليلة ســـعيدة. لم أقدر مـــن قبل أبدا على التخلـــص من وجوده بســـرعة كافية. فقد كان تأثيره علـــيّ راجعا إلى فترة مبكرة من حياتنا، إلى الأيام التي أكره تذكرها.

إن راكـــي ولد رائـــع. فبعدما وصلنا إلى هنـــا، ووجد أن من المستحيل علينا الحصول على بيت قريب من أي بلدة بحيث يكون بإمكانه تكويـــن صداقات مع الأولاد والبنـــات الإنجليز من مثل ســـنه، لم يظهر أي علامة على الكدر، في حين أنه كان يفترض أن يصاب بخيبة الأمل. وبدلا من ذلك، بينما كنا نخرج من مكتب تأجير العقارات إلى وهج الشارع، ابتسم لي ابتسامة عريضة ثم

قال: «حسنا. أعتقد أننا سنضطر إلى الحصول على دراجتين، هذا كل ما في الأمر».

البيوت القليلة المتاحة والتي كانت تقع على مقربة مما كان سيطلق عليه تشارلز «المدنية» كانت شديدة القبح ومنغلقة تماما حتى أننا قررنا على الفور أنا وراكي أن نطلق عليها النقطة الباردة، على الرغم من أنها كانت تقع على الطرف الآخر من الجزيرة ومنعزلة تماما فوق المنحدر الصخري على البحر. وكان هذا بلا شك إحدى الخواص الأكثر أفضلية في الجزيرة، وكان راكي متحمسا فيما يتعلق بروعتها وتميزها مثلي تماما.

«سوف ينتابك السأم لكونك وحيدا هنا في هذا المكان البعيد، معي فقط»، قلت له بينما كنا نقفل عائدين إلى الفندق.

«أوه. سأنجح في التكيف مع هذا الأمر بشكل جيد على أي حال. متى سنبحث عن الدراجات؟»

بسبب إصراره اشترينا دراجتين في صباح اليوم التالي. كنت متأكدا من أنني لن أستفيد كثيرا من استخدام دراجتي، لكنني فكرت في أن دراجة إضافية من المحتمل أن تكون مناسبة بحيث تكون قريبة من البيت. كان لدى الخدم من دون استثناء دراجات خاصة بهم، والتي من دونها لم يكونوا قادرين على الوصول إلى «أورانج ووك» والمجيء منها، حيث تبعد ثمانية أميال بطول الشاطئ. لذلك كنت مجبرا لفترة على أن أصل إلى البيت كل صباح قبل الإفطار فوق دراجتي وساقاي منفرجتان والتبديل بحماقة على امتداد الطريق إلى جانب راكي لمدة نصف ساعة. كنا نمضي خلال هواء الإبكار البارد، تحت الأشجار ذات النسيج

الحريري الشـــاهقة قرب البيت، وبعيدا إلى المنحنى الكبير عند حافة الشاطئ حيث أفرع النخيل التي تلوح وهي تميل نحو اليابسة في النسيم القوي الذي كان يهب هناك بشكل دائم. ثم نقوم بعمل التفافة واسعة ونتسابق عائدين إلى البيت، ونحن نناقش بصوت عال مدى رغباتنا الخاصة في الأنواع المختلفة للإفطار الذي كنا نعرف أنــه بانتظارنا هناك في التراس. كنا نتناول إفطارنا عند عودتنـــا إلى البيت في الهواء الطلـــق، ونحن نطل على الكاريبي، ونتحدث عن الأخبار التي نشـــرت في عـــدد أمس في الجريدة المحليـــة، والتـــي يحضرها إلينا «إيســـاه» كل صبـــاح من أورانج ووك. بعـــد ذلك يختفي راكي طيلة الصبـــاح فوق دراجته، حيث يقودها بنشاط على امتداد الطريق في هذا الاتجاه أو ذاك حتى يكتشـــف بقعة رملية جرداء غير مطروقة على امتداد الشاطئ، وتلك يمكنه اعتبارها بمثابة شاطئ جديد. في الغداء يصفها لي بالتفصيل، وهو يسرد عليّ كل الأخطار المادية التي واجهته والتي مـــن بينها إخفاؤه للدراجة بين الأشـــجار، حتى لا يلاحظها أحد السـكان المحليين الذي يمرون على امتداد الطريق ســـيرا على الأقدام، أو هبوطه مســـتعينا بيديه وقدميه المنحدرات الصخرية غير المتدرجة، والتي اتضح أنها كانت أعلى بكثير مما كانت تبدو عليه من النظرة الأولى، أو في ســـبره لعمق المياه تمهيدا للغطس فيها من أعلى الصخور، أو تقدير فاعلية سلســـلة الصخور عند ســـطح المياه في الحيلولة دون وصول أسماك القرش والبركودة. لم يكن هناك أبدا أي عنصر استعراضي متفاخر في سرد راكي لمآثره - باســـتثناء الإثارة المفعمة بالمرح والتي كان يستمدها من

حكيه لكيفية إرضائه لفضولــه الذي لا ينضب. إن عقله يفصح عن يقظته في شــتى الاتجاهات في آن واحد. لا أقصد أن أقول إنني أتوقع أنه ســيكون «مفكرا». ليس هذا من شأني، ولا يوجد لــديّ أي اهتمام خاص بما إن كان ســيصبح رجلا مفكرا أم لا. أعرف أنه ســيتمتع دائما بشــخصية ذات جرأة وبروح ذات نقاء عظيم في الحكــم على القيم والأمور. ســوف تمنعه جرأة هذه الروح النقية من أن يصبح ما أطلق عليه أنا «ضحية»: ولن يتحول أبدا إلى وحش بســبب حقائق الواقع. وهذا الإحساس الصائب بالتوازن الذي لا يخطئ في الاعتبارات الأخلاقية ســوف يحميه من الآثار المادية لعصرنا الحاضر المعوقة والكفيلة بإحداث شلل في العقل.

بالنســبة إلى ولد في السادسة عشرة فإن راكي يمتلك براءة غير عادية في رؤيته للأمــور. أنا لا أقول هذا بصفتي أبا، على الرغم من أن الله يعرف أنني لا يمكنني أبدا أن أفكر في راكي من دون ذلك الإحساس الجارف المألوف من البهجة والامتنان لكوني أنعم وأحظى بامتياز مشــاركتي لحياتي معه. وهو الشــيء الذي يأخذه هو كأمر مســلم به بشكل كلي تماما، فحياتنا اليومية هنا معا، هي مصدر لاندهاش أبدي لن ينتهي بالنســبة إلي، ويشغل حيــزا كبيرا من تفكيري كل يوم، لمجرد كوني جالســا هنا مدركا للحظ السعيد العظيم المتمثل في امتلاكي له بشكل كلي لنفسي، بعيدا عن العيون المتطفلة والألســن الخبيثة. (أظنني فكرت في تشــارلز فعلا في حــين كنت أكتب هذا). وأعتقــد أن جزءا من جاذبية مشــاركة الحياة مع راكي تتمثل بالتحديد في تعامله مع

الأمر برمته كأنه وضع طبيعي مسلم به تماما. وأنا لم أسأله من قبل إن كان يحب وجوده هنا - فمن الواضح أنه يحب وجوده هنا، جدا. أظن أنه لو التفت إليّ يوما ما وأخبرني كم هو سعيد هنا، فربما بطريقة أو أخرى، قد يفسد هذا السحر. بل وفوق ذلك لو كان راكي طائشا متهورا أو أنانيا، أو حتى قاسيا معي، فإنني كنت سأشعر بقدرتي على محبته أكثر لهذا.

أعدت قراءة الجملة الأخيرة تلك. ما الذي تعنيه؟ ولماذا يكون عليّ أن أتخيل أيضا أنها يمكن أن تعني شيئا أكثر مما تقوله؟

حتى الآن، بقدر ما يمكنني أن أحاول: لا أستطيع أن أؤمن أبدا بالحقيقة المجانية، والمنعزلة. ما يتعين عليّ أن أعنيه هو أنني أشعر بأن راكي كان بالفعل طائشا إلى حد ما. لكن بأي طريقة؟ بالتأكيد لا يمكنني الاستياء من رحلاته على الدراجة؛ فليس بإمكاني أن أتوقع منه أن يرغب في البقاء في البيت ويجلس للتحدث معي طوال اليوم. ومن جانبي لم ينتابني القلق أبدا بشأن تعرضه للخطر، فأنا أعرف أنه أكثر قدرة من معظم البالغين على الانتباه لنفسه، وأنه ليس من المحتمل تعرضه للأذى بسبب زحفه فوق المنحدرات أو السباحة في الخلجان أكثر من أي مواطن محلي. وفي نفس الوقت ليس هناك من وجهة نظري ما يجعلني مرتابا أو متضايقا من وجودنا هنا. يجب عليّ أن أستاء من بعض التفاصيل حتى التي تسير في المسار المثالي الصحيح، أيا كان ما عليه هذا المسار. ربما لأنه في سن الشباب، وأنا أحسده على جسده المرن، وبشرته الملساء، وما يتمتع به من الطاقة والرشاقة والحيوية.

جلسـت لفتـرة طويلة هذا الصبـاح وأنا أتطلـع إلى البحر، محـاولا حل ذلك اللغـز الصغير. جاء طائـران من طيور مالك الحزين لونهما أبيض وحطا فوق بقعة ميتة في شـرق الحديقة. وظـلا هناك لفترة طويلة مـن دون أن يتحركا أدنى حركة. كنت أدير رأسي بعيدا وأجعل عيني تألفان أفق البحر اللامع، ثم أنظر إليهما فجأة لأرى إن كانا قد بدّلا من وضعهما أم لا، لكنهما في كل مرة كانا في نفس الوضع. حاولت أن أتخيل البقعة السـوداء من دونهما - مشهد طبيعي صرف من النباتات الخضراء - لكن الأمر كان مسـتحيلا. كنت أجبر نفسـي ببطء طوال تلك الفترة على تقبل تفسير سـخيف لضيقي من راكي. ذلك الضيق الذي انتابنـي بالأمس فقط، عندما بدلا من أن يظهر في وقت الغداء كما هو معتاد، أرسـل إليّ ولدا أسود البشـرة من أورانج ووك، ليقول لي إنه سـيتناول غداءه في القرية. تمكنت بكل سهولة من ملاحظة أن الولد كان يركب دراجة راكي. كنت قد أخّرت موعد الغداء لمدة نصف ساعة انتظارا له، فجعلت الخادمة جلوريا تعده لي على الفـور بمجرد انطلاق الولد، عائـدا إلى القرية. كانت تحدوني الرغبة لمعرفة نوع المكان والصحبة التي كان يمكن لراكي أن يأكل معها، نظرا لأن أورانج ووك، بقدر ما أعرف، لا يقطنها سوى الزنوج، وكنت واثقا من أنه سيكون بمقدور جلوريا أن تلقي ببعض الضوء على المسـألة، لكنني كنت لا أقوى على سـؤالها. لكـن، عندما أحضـرت إليّ الحلوى، قلت: «مـن كان ذلك الولد الذي أحضر الرسـالة من السـيد راكي؟» فهزت كتفيها وقالت: «صبي صغير من أورانج ووك، يدعى ويلموت».

عندما عـــاد راكي وقت الغـــروب، متورد الوجـــه من فرط الإجهاد (لأنه قاد الدراجة بطريقة متواصلة ولمســـافة طويلة)، أخذت أراقبه بعناية. صدم عيني المرتابتين أصلا ســـلوكه لأنه بالفعل كان ســـلوكا ودياً زائفا وإلى حد ما تبدت منه روح مرح مكرهة مجبرة. ذهب إلى حجرته مبكرا وراح يقرأ لفترة قبل أن يطفئ ضوء حجرته. قمت بنزهة طويلة في ضوء القمر الساطع تماما، ورحت أنصت لأصوات حشرات الليل على الأشجار. ثم جلســـت لفترة في الظلام فوق الســـور الحجري للجسر الممتد فوق النهر الأســـود. (إنه في الحقيقة مجرد جدول يندفع إلى أسفل فوق الصخور من جبل على بعد أميال قليلة في الجزيرة، حتى يصل إلى الشاطئ قرب البيت). دائما ما يبدو صوته أكثر صخبا، وأعظم شـــأوا في الليل عنه في النهار. موسيقى المياه فـــوق الصخور جعلت أعصابي تهدأ، على الرغم من أنني كلما كنت أفكر في ســـبب لمثل هذا التوتر الذي أشعر به كنت أجده صعب الفهم، باســـتثناء أنني كنت متضايقا بالفعل بسبب عدم مجـــيء راكي إلى البيت وقت الغداء. لكن لو كان هذا صحيحا فســـأكون أنا ســـخيفا بل وخطيرا أيضا - إنـــه بالضبط ذلك الشـــيء الذي يجب على والد المراهـــق أن يحترس ويحذر منه ويقاتـــل ضده، إلاّ لو كان غير مبـــال باحتمال فقده لثقة وحب نســـله، وعلى نحو دائم. يجب أن يبقى راكي بالخارج متى أحب هو، ومع من يحب، والمدة التي يرغب فيها، ويجب عليّ ألاّ أفكر في هذا الأمر ثانية، وألاّ أشـــير إليه من قريب أو بعيد أو آتي على ذكره إليه، وإلاّ فسوف أعطي انطباعا بالتطفل بأي شكل

من الأشكال. إن فقدان الثقة من جانب الوالد هو الإثم الفادح الوحيد الذي لا يغتفر.

على الرغم من أننا كنا ما نزال نقوم بغطستنا الصباحية عندما نستيقظ من النوم، فقد مرت ثلاثة أسابيع منذ قيامنا معا بجولتنا المبكرة. فذات صباح وجدت راكي وقد قفز فوق دراجته بسروال السباحة المبتل بينما كنت أنا لا أزال أسبح، وذهب بمفرده، ومنذ ذلك الحين كانت هناك اتفاقية ضمنية بيننا بأن الأمر سوف يسير بهذه الطريقة، أي أنه سيذهب بمفرده. ربما أتسبب أنا في إعاقته، وهو يحب الانطلاق بسرعة شديدة.

البستاني الصغير المبتسم بيتر، من «خليج القديس إيفيز»، هو الصديق المفضل لراكي. من اللطيف رؤيتهما معا بين الأحراش، وهما يجثمان فوق بيوت النمل أو يسرعان هنا وهناك محاولين الإمساك بسحلية، إن الاثنين في نفس السن تقريبا، لكن ثمة اختلاف كبير بين الاثنين، فراكي ببشرته السمراء يبدو أبيض تقريبا مقارنة ببشرة الآخر السوداء اللامعة. أعرف أنني سأكون اليوم بمفردي على الغداء، نظرا لأن اليوم هو يوم إجازة بيتر. فعادة ما يذهبان في مثل هذا اليوم معا على دراجتيهما إلى «خليج القديس إيفيز»، حيث يمتلك بيتر زورقا صغيرا. ويقومان بالصيد هناك على امتداد الساحل، لكنهما لم يرجعا أبدا بأي شيء حتى الآن.

في تلك الأثناء أكون هنا بمفردي، أجلس على الصخور في الشمس، ومن وقت إلى آخر أنزلق إلى أسفل لأبرّد جسدي في الماء، وأنا أدرك تماما أن البيت يقع وراء أشجار النخيل العالية

مثل قارب زجاجـي كبير ممتلئ بنباتات الأوركيد والسوسـن. الخدم يتمتعـون بالنظافة والهدوء، والعمل يتم إنجازه بشـكل تلقائي تقريبا. الخدم السـود جيدون إنهم نعمة أخرى من نعم الـجـزر، والبريطـانيون، الذيـن ولـدوا هنا في هـذه الجـنة، لا يدركون كم هم من المحظوظين. إنهم في الحقيقة، لا يقومون بشـيء سـوى الشـكوى. كان من الواجب على المرء أن يعـيش أولا فـي الولايات المتحدة الأمريكية ليقدر أعجوبة هذا المكان. لا تزال الأفكار تتغير كل يوم، حتى هنا. وقريبا سـيقرر الناس أنهم راغبون في التحديث، في أن يكون بلدهم جزءا من بشاعة عالم اليوم، وبمجرد أن يحدث هذا، سينتهي كل شيء. فبمجرد أن تتملـكك هذه الرغبة، فأنت مصـاب بفيروس مميت، وتبدأ أعراض المرض في الظهور عليك. فتعيش بلغة وبشروط الوقت والمال، وتفكر بمعاييـر المجتمع والتقدم. حينها يكون كل ما قد تم تركـه لك هو أن تقتل النـاس الآخرين الذين يفكرون بنفس الطريقـة، مع كثيرين من هـؤلاء الذين لا يفكرون كذلك، نظرا لأن هذا هو الإعلان النهائي للمرض عن نفسه. هنا في الوقت الحالي وعلى جميع المستويات - يشعر المرء بالسكونية - توقف الوجود عن أن يكون عبارة عن تلك الثواني القليلة الضئيلة التي تنفلت في السـاعة الرملية عندما يأخذ فجأة ما تبقى من رمل في التسرب بسرعة إلى القاع دفعة واحدة. يبدو الزمن معطلا فجـأة، للحظة. وإذا بدا معطلا، فهـو كذلك بالفعل. كل موجة عند قدمي، كل صرخـة طائر في الغابة من خلفي، لا تحملني خطوة واحدة باتجاه الكارثة النهائية. فالكارثة أكيدة الحدوث،

لكنها ستحدث فجأة، هذا كل ما في الأمر. وحتى ذلك الحين، يبقى الزمن ساكنا.

انزعجت اليوم من جراء ما وصلني في بريد الصباح، فالبنك الملكي الكندي يطلب مني أن أحضر بنفسي إلى مركزه الرئيسي لتوقيع إيصالات الوديعة وأوراق أخرى متعلقة بمبلغ كان قد تم إرساله برقيا من البنك في بوسطن. ونظرا لأن البنك يقع في الجانب الآخر من الجزيرة، على بعد خمسين ميلا، فإنه سينبغي عليّ قضاء الليل هناك والعودة في اليوم التالي. ليس هناك ما يستدعي اصطحاب راكي معي. فقد يثير مشهد الحضارة فيه حنينا إليها لم يعرفه من قبل. أنا متأكد من أنه كان سيفعل بي الشيء نفسه لو كنت في مثل سنه. وإذا كان لابد لهذا أن يبدأ مرة أخرى، فسيكون تعيسا فحسب، نظرا لأنه ليس له من شيء سوى الإقامة معي هنا، على الأقل لمدة سنتين قادمتين، عندما آمل في تجديد عقد الإيجار، أو، إذا طرأت انتعاشة في نيويورك، القيام بشراء المكان. بعثت برسالة مع إيساه عندما يذهب إلى بيته في أورانج ووك هذا المساء، لإحضار سيارة «ماك كوي» لي غدا في السابعة والنصف صباحا. إنها سيارة باكار قديمة ضخمة ومكشوفة، وبوسع إيساه أن يختصر على نفسه الطريق إلى هنا ويكوم دراجته في مؤخرتها ويركب مع ماك كوي.

كانت الرحلة عبر الجزيرة جميلة وممتعة، وكانت ستصبح أكثر إمتاعا لو لم يتلاعب بي خيالي في حيلة غريبة جدا في مستهل الرحلة. فقد توقفنا في أورانج ووك للتزود بالوقود. وبينما كان ذلك يتم، نزلت من السيارة وذهبت إلى محل على

الناصية لشــراء بعض السجائر. ونظرا لأنها لم تكن بعد الثامنة تماما، فقد كان المحل مغلقا، فأســرعت إلى شارع جانبي حيث يوجد محــل آخر صغير ظننت أنه قد يكــون مفتوحا. وقد كان كذلك، فاشــتريت ســجائري. وفي طريق عودتــي إلى الناصية لاحظت امرأة ســوداء ضخمة كانت تستند بذراعها على البوابة الأمامية لبيتها الصغير، وهي تحدق في الشــارع. وعندما مررت متجاوزا إياها، نظرت إلى وجهي مباشــرة وقالت شيئا ما بلكنة غريبــة خاصة بأهــل الجزيرة. وبدا لي أن مــا قالته كان يحمل نبــرة عدوانية، وكان موجها إليّ بشــكل ظاهر، لكن لم تكن لديّ فكرة عما قالته. فرجعت إلى الســيارة وقام الســائق بتشغيلها. كان وقع الكلمات قد بقي في رأســي، بشــكل مــا مثلما يتضح شــكل لامع بفعل الظلام فإنه من المرجح أن يبقى هذا الشــكل في الخيــال، بحيث عندما يغلق المرء عينيه فإنه يتمكن من رؤية المعالم الدقيقة المحيطة أو المؤطرة للشــكل. كانت الســيارة الآن تهــدر بالفعل صاعدة التل صوب الطريق البري عندما ســمعت فجــأة نفس الكلمات تتردد مجــددا. وكانت الكلمات: «أبق ابنك في البيت، يا رجل». جلســت متصلبا للحظــة بينما كان الريف المفتوح يسرع إلى خلفنا عن اليمين وعن اليسار. لماذا ينبغي عليّ أن أظن أنها قالت ذلك؟ وقررت على الفور أنني كنت أعطي معنى اعتباطيــا لعبارة لم يكن بإمكاني فهمها حتى لو كنت منصتا وأنا منتبه تماما. وعندئذ تســاءلت لماذا تحتم على عقلي الباطني أن يختار ذلك المعنى على وجه التحديد، ونظرا لأنني همســت الآن بالكلمات لنفســي فقد أخفقت في التواصل مع أي قلق ربما كان

عقلي قد مال إليه. فــي الحقيقة أنني لم ألق بالا على الإطلاق لجولات راكي هنا في أورانج ووك. بوسعي ألاّ أجد لديّ مثل هذا الانشغال بغض النظر عن كيفية طرحي للسؤال على نفسي. ثم، هــل قالت المرأة بالفعل تلك الكلمات؟ وظللت طوال الطريق عبر الجبال أتأمل السؤال، على الرغم من أن هذا كان مضيعة للطاقة على نحو جلي. وســرعان ما لم يعد بإمكاني ســماع صوتها في ذاكرتي: فقد قمت بتشغيل المسجل لفترة طويلة جدا، وقد أتلفته بسبب ذلك.

هنا فــي الفنــدق كان يجري احتفــال راقص. الأوركســترا الرديئــة، المكونة من آلتي ساكســوفون وآلة كمان ســيئة، كانت تعزف موســيقاها في الحديقة أســفل نافذتي مباشرة، وكانت أزواج الراقصين ذوي المظهر الجدي تدب وتنســاب هنا وهناك فوق أرضية الشــرفة الخرســانية المعالجة بالشــمع، على ضوء مجموعة من أشرطة الفوانيس الورقية. أظن أن المقصود بها أن تبدو مثل الفوانيس اليابانية.

في تلك اللحظة تساءلت عما كان راكي يفعله هناك في البيت برفقة بيتر وإرنست الحارس. تساءلت إن كان نائما. البيت الذي تعــودت علــى التفكير فيه كمكان مبهج ومريــح، يمكن تماما أن يكون الآن في أكثر المناطق سوءا وبعدا عن الكرة الأرضية، نظرا لأنني هنا في هذا المكان جالس بصحبة الأوركسترا السيئة التي تعــزف هنا في الطابق الســفلي، وأنا أقوم برســم صورة للبيت لنفســي، وهو يصدمني بشدة لأنه عرضة للأذى في عزلته. أرى في خيالي البقعة المقمرة وأشــجار النخيل الطويلة التي تلوح في

الريح بلا انقطاع، ومنحدراتها المظلمة والأمواج من تحتها تمسها مسا رفيقا. أحسسست فجأة، وعلى الرغم من أنني كنت أصارع هذا الإحساس القوي، أنني سعيد بشكل يفوق الوصف لكوني بعيدا عن البيت، أحسست بعجز وأسى هنا في هذا المكان بعيدا عن البقعة التي يوجد بها البيت، في صمت الليل. ثم تذكرت أن الليل هناك نادرا ما كان هادئا. فهناك البحر الصاخب عند قاعدة الصخور، وأزيز آلاف الحشرات، والصرخات المتقطعة بين الفينة والأخرى لطيور الليل، كل الضوضاء المألوفة التي تجعل النوم عميقا جدا. وراكي هناك محاطا بها كالعادة، وليس بإمكاني سماعها. لكنني أشعر بالذنب على نحو عميق لتركي له، ضعف فظيع لا يوصف وحزن عند التفكير فيه، وهو مستلق هناك بمفرده في البيت مع الزنجيين، الآدميين الوحيدين على مسافة ميل. إذا واصلت التفكير في النقطة الباردة فسأصبح عصبيا أكثر فأكثر.

لم أذهب إلى السرير حتى الآن. إنهم يصرخون جميعا بالضحك هنا في الطابق السفلي، هؤلاء البلهاء، لن أستطيع النوم أبدا بأي حال. لا يزال البار مفتوحا، لحسن الحظ، أنه في شارع جانبي مجاور للفندق. إنني بحاجة في هذه المرة إلى القليل من الشراب.

بعد فترة طويلة لاحقا، لم أشعر بتحسن، ربما أصبحت سكرانا بعض الشيء. انتهى الرقص الصاخب والحديقة هادئة الآن، لكن الغرفة كانت حارة جدا.

بينما كنت أروح في النوم الليلة الماضية، وأنا بكامل ثيابي،

والضوء اللامع مسلط بخسة على وجهي، سمعت صوت المرأة السوداء ثانية، كان الصوت أكثر وضوحا حتى أكثر مما كان عليه بالأمس في السيارة. لسبب ما في هذا الصباح لم يكن هناك شيء من شك في عقلي في أن الكلمات التي سمعتها كانت هي الكلمات التي قالتها. سأقبل بهذا الأمر وأنطلق من هذا الأساس. على فرض أنها قد أخبرتني أن أبقي راكي في البيت، فمن الممكن أن ذلك كان يعني فقط، أنها أو أي شخص آخر في أورانج ووك، كان قد تشاجر شجارا طفوليا معه، على الرغم من أنني يجب عليّ أن أقول إنه من الصعب تصور دخول راكي في أي نوع من المهاترة أو العداء مع هؤلاء الناس. ولكي أبعث في نفسي الهدوء (فيبدو أنني بالفعل قد أخذت الأمر بكثير من الجدية)، سأتوقف في القرية عصر اليوم قبل أن أذهب إلى البيت، وأحاول أن أرى المرأة. فأنا في توق شديد إلى معرفة ما الذي كانت تعنيه.

لم أكن واعيا حتى هذا المساء عندما عدت إلى النقطة الباردة، كم هي قوية كل تلك العناصر المادية التي ترتب وتنظم وجودها: البحر وأصوات الريح التي تعزل البيت عن الطريق، ولمعان المياه، والسماء والشمس، والألوان الناصعة والروائح القوية للأزهار، والإحساس باتساع الفراغ داخل البيت وخارجه. فهذه الأشياء تتفاعل مع المرء بشكل طبيعي عندما يعيش هنا. عندما عدت اليوم بعد الظهر كنت واعيا بها من جديد، بوجودها وقوتها. إنها كلها مثل مخدر قوي، فالعودة جعلتني أشعر وكأنني صرت ثملا تماما وأنني كنت أرجع إلى مشهد من مشاهد انغماسي الذاتي

السابقة. الساعة الآن الحادية عشرة كما لو أنني لم أغب أبدا ولو لساعة. فكل شيء كما كان عليه دائما، حتى أفرع النخيل الجافة التي كانت تحتك بستارة النافذة عند الكومودينو الخاص بي. وبالطبع، لم تنقض سوى ست وثلاثين ساعة منذ أن كنت هنا، لكنني كنت أنتظر دائما غيابي عن المكان لإحداث تغييرات لا سبيل إلى التراجع عنها.

برغم غرابة الموقف، بعدما فكرت فيه، فقد كنت أشعر بأن شيئا ما قد تغير منذ أن غادرت صباح الأمس، وهذا هو السلوك العام للخدم بصفة عامة، الجو المميز الذي يلفهم جميعا كالهالة، إن جاز التعبير قد تغير. فبمجرد عودتي لاحظت الاختلاف على الفور، لكنه لم يكن قابلا للتفسير أو التحديد. إنني الآن أراه بوضوح. فشبكة التفاهم المشترك التي بسطت نفسها ببطء عبر الأسرة والتي كانت تدار بنجاح قد تم تدميرها. أصبح كل شخص الآن بمفرده. ليست ثمة عداوة فيما بينهم، ومع ذلك، فبإمكاني رؤيتها. إنهم يتصرفون جميعا بمجاملة قصوى، ربما باستثناء بيتر، الذي أصابتني كآبته غير المعتادة بالذعر عندما قابلته في المطبخ بعد العشاء. وكنت قد عزمت على سؤال راكي إن كان قد لاحظها، لكنني نسيت وذهب هو إلى السرير مبكرا.

توقفت قليلا في أورانج ووك توقفت قليلا متحججا لماك كوي برغبتي في رؤية الخياطة في الشارع الجانبي. سرت جيئة وذهابا أمام البيت حيث كنت قد رأيت المرأة، لكن لم تكن هناك علامة على وجود أي شخص.

فيما يتعلق بغيابي، بدا أن راكي كان راضيا تماما، فقد قضى

معظم اليوم في السباحة بعيدا عن الصخور التي توجد أسفل الشرفة. كانت أصوات الحشرات قد بلغت ذروتها الآن، والنسيم أكثر برودة عن المعتاد، وسأنتهز الفرصة لكي أنعم بالراحة في هذه الليلة الطويلة.

كان اليوم أحد أكثر الأيام صعوبة في حياتي. نهضت مبكرا، وتناولنا إفطارنا في الوقت المعتاد، ثم مضى راكي باتجاه كهوف القديس إيف. استلقيت في الشمس في الشرفة في الوقت المعهود لذلك، وأنا أستمع إلى ضوضاء الحركة المنزلية. كان بيتر يتجول في جميع أرجاء المبنى وما حوله، وهو يجمع أوراق النباتات والأزهار الميتة في سلة كبيرة ويحملها بعيدا نحو كومة السماد. وقد بدا في مزاج أكثر سوءا حتى من الليلة الماضية. عندما أصبح على مقربة مني في مكان من الأماكن وهو في طريقه إلى الطرف الآخر من الحديقة ناديته. فوضع السلة على الأرض ووقف ينظر إليّ، ثم مشى نحوي عبر العشب ببطء - على مضض، حسبما تراءى لي.

«بيتر هل كل شيء على ما يرام؟»

«نعم، يا سيدي».

«هل توجد مشكلة في البيت؟»

«آه، لا، يا سيدي».

«ذلك حسن».

«نعم، يا سيدي».

عاد بيتر إلى عمله. لكن وجهه كان يخفي كلماته. ليس لأنه بدا لي أنه كان في حالة مزاجية عصبية غير جيدة من دون

شك، بل لأنه بدا في ضوء الشمس مريضا بكل تأكيد. ومع ذلك، لم يكن الأمر يعنيني، ما دام قد رفض الاعتراف به.

عندما وصلت حرارة الشمس الشديدة إلى درجة غير محتملة بالنسبة إلي، نهضت عن الكرسي وهبطت جانب المنحدر بطول سلسلة من الدرجات المقطوعة هناك في الصخر. كان مستوى الدرج واطئا، وكذلك كان لوح الغطس، لأن المياه كانت عميقة. كانت الصخور ممتدة في كل جانب وكانت الأمواج تتكسر عليها، لكن عند البسطة كان هناك حائط رأسي من الصخر وكانت المياه تضربه فقط تحت منصة الوثب. المكان عبارة عن مدرج صغير، معزول تماما عن الصوت وعن النظر إليه من البيت. في هذا المكان أيضا أحب أن أستلقي في الشمس، وغالبا عندما أخرج من المياه أخلع سروالي وأتمدد عاريا تماما فوق منصة الوثب. كنت أسخر من راكي بشكل متكرر وأنا أداعبه لأنه كان يشعر بالحرج من أن يفعل الشيء نفسه. كان يقوم به بين الحين والآخر، لكن ليس أبدا من دون مداهنة وملاطفة من جانبي. كنت ممددا هناك وأنا مجرد من ملابسي تماما، واستمتع بهدهدة المياه التي كانت تضربني في رفق، عندما قال صوت غير مألوف على مقربة شديدة مني: «هل أنت السيد نورتون؟»

انتفضت بعصبية، وتقريبا سقطت عن منصة الوثب، فاعتدلت جالسا، وأنا أحاول في الوقت نفسه الوصول إلى سروالي، لكن من دون جدوى، فقد كان ملقى فوق الصخور تقريبا عند قدمي الرجل الخلاسي الذي كان في منتصف

العمر. وكان مرتديا حلة بيضاء من نسيج قطني متين، وقميصا برقبة عالية ورابطة عنق سوداء، وبدا لي أنه كان ينظر إليّ بدرجة معينة من الرعب.

كان رد الفعل التالي الذي صدر عني غاضبا لانتهاك خصوصيتي بهذه الطريقة. نهضت وارتديت سروالي، لكنني ارتديته بهدوء ولم أتفوه بشيء ذي معنى أكثر من: «لم أسمعك وأنت تهبط الدرج».

«هل لنا أن نصعد؟» قال ضيفي. بينما كان يتقدم الطريق، كنت متوجسا بشكل واضح من أنه كان هنا في مهمة غير سارة. جلسنا في الشرفة، وعرض عليّ سيجارة من سجائره الأمريكية لم أقبلها.

«هذا المكان مبهج»، قال، وهو يلقي بنظرة سريعة إلى البحر ثم عند نهاية سيجارته، التي كانت متوهجة بشكل جزئي، فنفخ فيها، قلت له: «نعم»، منتظرا منه أن يمضي في حديثه؛ وهو ما فعله بعد ذلك بقليل.

«أنا من شرطة . المنطقة، كما ترى»، ونظر إلى وجهي، «وهذه محادثة ودية. لكن حتى الآن يجب أن تؤخذ كتحذير. يا سيد نورتون. إن الأمر خطير جدا. فلو كان شخص آخر قد جاءك بشأن هذا الموضوع فإن مشكلة كان يمكن أن تحدث. مشكلة كبيرة. لهذا السبب أردت رؤيتك بشكل خاص وبهذه الطريقة لكي يتسنى لي تحذيرك بصفة شخصية. كما ترى».

لم أكن متأكدا تماما من أنني كنت أستمع إلى كلماته. بعد فترة قلت بفتور: «لكن بخصوص ماذا؟»

«ليســت هذه زيارة رسمية. يجب ألا تنزعج. لقد أخذت على عاتقــي التحدث إليــك لأنني أرغب في أن أوفر عليك مشــكلة عميقة».

«لكنني منزعــج!» صحت، ووجدت أن صوتــي قد بلغ مداه. «كيف يسعني ألاّ أنزعج، وأنا لا أعرف ما الذي تقصده؟»

حرّك كرسيه بالقرب مني، وتحدث بصوت منخفض جدا.

«كنت أنتظر حتى يبتعد الشاب الصغير عن البيت حتى يمكننا أن نتحدث على انفراد. أنت ترى، الأمر متعلق به؟»

لم يفاجئني هذا بطريقة أو أخرى. أومأت إليه فقال:

«ســأخبرك باختصار شــديد. الناس هنا ريفيون بســطاء، ويخلقون مشكلة بســهولة. إنهم جميعا يتكلمون الآن عن الشاب الذي يعيش معك هنا. إنه ابنك، على ما سمعت».

كانت تعبيرات صوته تحمل نبرة شك.

«إنه ابني بكل تأكيد».

لــم يتغير تعبير وجهه، لكن صوته أصبح محملا بالاســتياء. «أيا كان هو، فهذا الشاب سيئ».

«ما الذي تعنيه؟» صحت، لكنه قاطعني بشــكل عنيف «من المحتمــل أن يكون ابنــك، وقد لا يكون كذلــك. لكنني لا أعبأ بمن يكون. فهذا ليس شــأني. لكنه ســيئ بكل ما في الكلمة مــن معنى. ليســت لدينا هنا أشــياء مثل هــذه تحدث بهذه الطـريقة، يا ســيدي. الناس فــي أورانج ووك وخليج القديس إيفيز غاضبون الآن جــدا. أنت لا تعرف ما الذي يفعله هؤلاء الناس عندما يستثارون».

اعتقــدت أنه قد حان دوري الآن لكــي أقاطعه. «من فضلك أخبرني لماذا تقول أن ابني سيئا. ما الذي فعله؟» ربما أثرت فيه الجدية التي كان صوتي محملا بها، لأن وجهه اعتراه مظهر ينم عــن اللطف والدماثة. وهو لا يزال علــى مقربة مني همس إليّ تقريبــا قائلا: «لا يتمتع بأي نــوع من حمــرة الخــجل. إنه يـفعل ما يسره مع الأولاد الصغار جميعا، ومع الرجال أيضا، ويعطيهم في كل مرة شلنا حتى لا يفضحوا أمره. لكنهم يتكلمون. فكل رجل على مسافة عشرين ميلا في جميع أنحاء الساحل يعرف بأمره. والنساء كذلك، يعرفن بأمره». كان هناك فاصل من الصمت.

أحسســت بنفسي وأنا أتأهب للوقوف على قدميّ في الثواني القليلة الباقية، لأنني كنــت أريد الدخول إلى حجرتي وأن أكون علــى انفراد، لأبتعد عن ذلك الحديــث الهامس الصادم والمروع أخلاقيا. وأعتقد أنني تمتمت له بينما كنت أنصرف بشيء يشبه «عمت صباحا» أو «شــكرا لك»، وبدأت في الســير نحو البيت. لكنــه كان لا يزال بجانبي، ومازال يهمس فــي أذني مثل متآمر مشــتاق، قال: «دعه يلزم البيت، يا سيد نورتون، أو أرسله بعيدا إلى المدرســة، إذا كان ابنــك. لكن اجعله يبقــى بعيدا عن هذه الأنحاء. لمصلحته».

صافحته وذهبت للاستلقاء في سريري. ومن هناك سمعت باب سيارته ينغلق، وينطلق بسيارته. كنت أحاول في ألم صياغة الجملــة الافتتاحيــة التي ســوف أســتخدمها عندما أتحدث مــع راكي فيما يتعلق بهــذا الموضوع، فأنا أشــعر بأن الجملة الاستهلالية سوف تحدد موقفي. كانت المحاولة مجرد نوع من

الفعل العلاجي، لأجنب نفسـي التفكير في الموضوع ذاته. وقد بدا كل موقف مسـتحيلا. لم يكن هناك مـن طريق إلى طرح الموضوع. وأدركت فجأة عدم قدرتي على التحدث معه مباشرة عـن الموضوع. فالإتيان على ذكر خبر كهذا قد يجعل من راكي شـخصا آخر - بالغ، وغامض ومرعب. لأكون على بينة، خطر لي أن قصة الرجل الخلاسـي قد لا تكـون صحيحة بالفعل، لكننـي وبطريقة آلية رفضت الشـك في القصة. بدا لي الأمر علـى أنني كنت راغبا في تصديقها، كما لو كنت على دراية بها بالفعل، ولم يقم الشرطي سوى بتأكيدها ليس إلاّ.

عاد راكي في الظهيرة، وهو يلهث ويبتسم ابتسامة عريضة. كان من الضروري استخدام مشط في الخُصَل الصعبة المبللة بالعـرق. وعندما جلـس لتناول الغداء، هتف إلـيّ قائلا: «يا للعجب، صدقني، لقد عثرت على شـاطئ رائع هذا الصباح! لكن أي جهد شـاق كان للوصول إليـه!» حاولت أن أبدو غير مهتـم بينما كنت أرمق تحديقته، وبـدا كما لو كانت أوضاعنا قـد تم تبادلها، وكنـت آمل في إيقاف توبيخـه العنيف. فقد كان يثرثر عن أشـجار الزعرور الشـائكة والنباتات المعترشة وعـن منجله. وظللت أقول لنفسـي طيلة الوجبـة «الآن هذه هـي اللحظة المناسـبة. يجب عليك أن تقول شـيئا ما». لكن كل ما قلته كان: «هل تريد المزيد من السـلطة؟ أم ترغب الآن في تناول الحلوى؟» هكذا مر الغداء ولم يحدث شـيء. بعدما انتهيـت من تناول قهوتي مضيت إلى حجرة نومي ونظرت إلى نفسـي في مرآة كبيرة. فرأيت عيني تحاولان أن تضفيا على

صورتهما المنعكسة في المرآة بعض الشجاعة. وبينما كنت واقفا هناك سمعت ضجة في الجناح الآخر من البيت، أصوات، وارتطامات، وصوت مشاجرة. وفوق كل هذه الضوضاء جاء صوت جلوريا الحاد في غطرسة واستثارة قائلة: «لا، يا ولد! لا تضربه!» وبصوت أكثر ارتفاعا» إنه بيتر، يا ولد، لا».

ذهبت بسرعة نحو المطبخ، حيث بدا أنه مكان حدوث المشكلة لكنني اصطدمت في الطريق براكي، الذي كان يترنح في المدخل ويداه أمام وجهه.

«ما هذا، يا راكي؟» صحت.

اندفع متجاوزا إياي إلى حجرة المعيشة من دون أن يحرك يديه بعيدا عن وجهه، فاستدرت وتبعته. من هناك دخل إلى حجرته، وترك الباب مفتوحا خلفه. سمعته في حمّامه يفتح المياه. كنت مترددا ما الذي أفعله. فجأة ظهر بيتر في مدخل الصالة، وقبعته في يده. عندما رفع رأسه، اندهشت لرؤيتي أن خده كان ينزف. وكان في عينيه تعبير غريب ومضطرب لخوف عابر وعداء عميق. نظر إلى أسفل مرة ثانية.

«هل من الممكن أن أتحدث معك، يا سيدي؟»

«ما كل هذه الضجة؟ ما الذي كان يحدث؟»

«هل من الممكن أن أتحدث معك في الخارج، يا سيدي؟» قالها بعناد، وهو لا يزال ينظر إلى أسفل.

ونظرا للظروف فقد جاريته. سرنا ببطء فوق طريق مفروش بالحصى إلى الطريق الرئيسي السريع، ثم عبرنا الكوبري، وتوغلنا في الغابة بينما كان يخبرني بقصته. لم أقل شيئا.

وفي النهاية قال: «لم تكن بي رغبة في ذلك أبدا، يا سيدي، حتى في المرة الأولى، لكنني كنت خائفا، وكان السيد راكي يطاردني وفي أثري كل يوم».

وقفت ساكنا، وفي النهاية قلت: «فقط لو كنت أخبرتني بهذا في المرة الأولى التي حدث فيها هذا، فقد كان من الممكن أن يكون الأمر أفضل بكثير للجميع».

أدار قبعته في يديه، وتفرس فيها بحزم وتمعن. ثم قال «نعم. يا سيدي. لكنني لم أكن أعرف ما الذي كان الجميع يقولونه في أورانج ووك حتى اليوم. فأنت تعرف أنني أذهب دائما إلى الشاطئ في خليج القديس إيفيز مع السيد راكي في يوم إجازتي. لو كنت أعرف ما كانوا يقولونه جميعا ما كنت لأخاف، يا سيدي. وأنا أرغب في مواصلة العمل هنا. إنني بحاجة إلى المال». ثم أعاد ما سبق أن قاله بالفعل ثلاث مرات. «قال السيد راكي إنك ستشهد بهذا الذي أقوله لك ليتم وضعي في السجن. فأنا أكبر من السيد راكي بسنة، يا سيدي».

«أعرف، أعرف»، قلت بضيق نافد، وتبين لي أن القسوة هي ما كان يتوقعها مني بيتر في هذه اللحظة فأضفت: «من الأفضل أن تلملم أغراضك وتذهب إلى بيتك. لا يمكنك العمل هنا بعد الآن، أنت تفهم».

كانت درجة العداوة البادية في وجهه تعكس خوفه من جميع النواحي عندما قال: «حتى لو قتلتني لن أعمل بعد الآن في النقطة الباردة، يا سيدي».

استدرت وسرت بخفة عائدا إلى البيت، تاركا إياه واقفا هناك في الطريق. يبدو أنه قد عاد ساعة الغروب، منذ فترة قصيرة، وأخذ متعلقاته.

كان راكي يقرأ في حجرته. كان قد وضع شريطا طبيا لاصقا على ذقنه وفوق عظمة خده.

«لقد طردت بيتر». قلت ذلك مضيفا. «فقد قام بضربك، أليس كذلك؟»

رفع رأسه إليّ. كانت عينه اليسرى متورمة، لكنها لم تكن قد صارت داكنة بعد.

«فعل ذلك بالتأكيد. لكنني ناولته واحدة، أيضا. وأظن أنني كنت أستحق هذا على أي حال».

استندت على الطاولة. «لماذا؟» سألت بلامبالاة.

«آه. كان عندي شيء ما بخصوصه منذ فترة طويلة وكان يخشى أن أخبرك به».

«والآن فقط هددته بإخباري؟»

«آه، لا!» قال إنه كان على وشك أن يترك العمل هنا، ومازحته قائلا له إنه وغد حقير».

«ولماذا أراد أن يغادر؟ أعتقد أنه كان يحب العمل هنا».

«حسنا، لقد كان كذلك فعلا، على ما أعتقد، لكنه لم يكن يحبني». خانت تحديقة راكي الصريحة ظل الكبرياء الجريحة لديه. لازلت أنا مستندا على الطاولة.

واصلت، «لكنني ظننت أنكما منسجمان معا. وأنت بدورك كنت منسجما معه».

«لا. كان خائفا فقط من أن يفقد عمله. كان عندي شـــيء ما عليـــه. كان ولدا جيدا، ومع ذلك، فقـــد أحببته حبا خالصا. هل ذهب حقا الآن؟» تسللت إلى صوته رعشة غريبة بينما كان ينطق الكلمات الأخيرة، وفهمت للمرة الأولى في ذلك الحين أن التكلف أو مظاهـــر الخوف من الزلل غير مناســـبة تماما للموقف. كان منزعجا جدا لافتراقه عن بيتر.

«نعم، لقد ذهب»، قلت بشكل مقتضب. «ولن يرجع ثانية، أيضا». وبينما راح راكي يســـتمع إلى التغيير غير المألوف في صوتي، نظر إليّ فجأة بدهشة غير واضحة في عينيه الصغيرتين، فأدركت أن اللحظة قد باتت مناســـبة للمواصلة في إصرار وإلحاح، مناســـبة لأن أقول له: «ما الذي أمســـكته عليه؟» وكأنه قد وصل إلى نفس النقطة في عقلي قبلي بجزء من الثانية، شـــرع في انتزاع فرصتي بعيدا بقفزه إلى أعلى، وانفجاره في غناء عال، ثم تجرد من ملابسه كلها في آن واحد. وبينما كان واقفا أمامي عاريا، وهو يغني بأعلى صوته، ثم اندس في سروال السباحة الخاص به، أدركت مرة ثانية أنني غير قادر على أن أقول له ما يجب عليّ أن أقوله.

كان موجودا داخل البيت وخارجه طيلة فترة بعد الظهر، يقرأ في حجرتـــه بعض الوقت، ومعظم الوقت في الأســـفل عند لوح الغطس. إنه لســـلوك غريب علـــيه، فـقط لو تســـنى لي معـرفة ما يدور في عقله. عندما اقترب المساء، اتخذت مشكلتي مظهرا استحواذيا مفرطا. سرت جيئة وذهابا في حجرتي، وكنت أتوقف بشـــكل مســـتمر في طرف منها لأتطلع عبر النافذة إلى الخارج حيـــث البحر، وفي الطرف الآخر منها لألقي بنظرة خاطفة على

وجهـــي في المـــرآة. كما لو أن هذا كان فيه عـــون لي! ثم تناولت كأســـا. ثم أتبعتها بأخرى. واعتقدت أنني ســـأقوى على القيام بهذا في العشـــاء، بســـبب التشـــجيع الذي منحني الشراب إياه وأشـــعر به. لكن لا. فبعد وقت قصير سينبغي عليه الذهاب إلى ســـريره. ليس لتلك الدرجة التي توقعتها تمكن لي مواجهته بأي اتهامـــات، فأنا أعرف أنني لـــن أقوى على القيام بهذا أبدا. لكن يجب أن أجد طريقة لأمنعه من القيام بجولاته، ويجب أن أقترح سببا آخر لأسوقه إليه، حتى لا يشك أبدا في أنني أعرف.

نخشى من المستقبل على أولادنا. إنه موقف جدير بالسخرية والضحك منه، لكنه فقط أكثر وضوحا وصراحة بعض الشـــيء مـــن أي موقف آخر فـــي الحياة. انقضت مدة مـــن الزمن، أيام أنـــا راض لأنني عرفتها، بالرغم مـــن أنها انتهت الآن. اعتقد أن هـــذه الفترة كانت كل مـــا انتظرنه من الحيـــاة لتعطيه لي، إنها التعويـــض الذي حصلت عليه من دون وعـــي مني لكنني توقعته بشـــدة، كمقابل لكوني ممسوكا بإحكام شديد في قبضة الوجود كل هذه السنوات.

يبدو ذلك المســـاء وكأنه منذ عهد طويل، فقط لأنني تذكرت تفاصيلـــه مرات عديدة إلى درجة أنها اتخذت لون الأســـطورة. في الحقيقة أن مشـــكلتي قد تم حلها بالفعل بالنسبة إلي وقتها، لكننـــي لم أعرف هذا. لأنني لم يكن بإمكاني إدراك النمط، فقد تخيلـــت بحماقة أنني يجب أن أفكر بعمـــق لأعثر على الكلمات الصحيحة المناسبة لمفاتحة راكي في الموضوع. لكنه هو الذي جاء إليّ في ذلك المســـاء نفســـه، بينما كنت على وشك أن أخرج في

نزهة بمفردي اعتقدت أنها ستساعدني في أن أعثر على صيغة مناسبة، وظهر عند باب غرفتي.

«هل أنت ذاهب لممارســة رياضة المشي؟» سألني، وهو يرى العصا في يدي.

احتمــال الخروج على الفور بعــد التحدث معه جعل الأمور تبــدو أكثر بســاطة. «نعم»، قلت، «لكنني أريــد التحدث معك أولا».

«بالتأكيد. عن ماذا؟» لم أنظر إليه لأنني لم أرغب في رؤية البريق المنتبــه الذي كنت متأكدا من أنه يتحرك في عينيه في هذه اللحظة.

بينمــا كنت أتحدث رحت أطرق بعصــاي على التصميمات المنقوشــة على بلاط الأرضية. «راكي هل تحــب أن تعود إلى المدرسة؟»

«هل تمزح؟ أنت تعرف أنني أكره الدراسة».

نظرت إليه نظرة خاطفة. «لا. أنا لا أمزح. لا ترتعب بشــدة هكذا. فربما ستســتمتع بوجودك مع مجموعة من الرفاق في مثل سنك».

(لم يكن هذا هو النقاش الذي قصدت أن أديره).

«ربما أحــب أن أكــون مع الأولاد مــن نفــس ســني، لكنــي لا أرغب في الذهاب إلى المدرسة لأكون برفقتهم. لقد نلت من التعليم ما يكفي».

مضيت إلى الباب وقلت بضعف: «ظننت أن هذا هو ما كانت تعنيه ردود أفعالك».

ضحك. «لا، شكرا».

«هذا لا يعني أنك لن تذهب»، قلت ملتفتا إلى الخلف بينما كنت أمضي إلى الخارج.

كنت أثناء سيري أدق بعصاي على أسفلت الطريق في قوة، وقفت على الكوبري وانتابتني تصورات درامية كان من بينها احتمالات عدة مثل انتقالنا عائدين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، أو أن يسقط راكي عن دراجته بطريقة سيئة ويصاب بالشلل بضعة أشهر، أو حتى احتمالية تركي للأمور أن تأخذ مجراها الطبيعي، الأمر الذي قد يعني من دون شك زيارتي له من وقت إلى آخر في السجن الحكومي بهدايا وطعام، لكن كل تلك الاحتمالات لم تعن ما هو أكثر من المأساوية والعنف. «لن يحدث شيء من هذه الأمور»، قلت لنفسي، وأنا أعرف أنني كنت أهدر وقتا ثمينا، وأنه يجب ألاّ يعود إلى أورانج ووك غدا.

رجعت إلى المكان بخطى بطيئة جدا. لم يكن هناك قمر، ولا يكاد يوجد نسيم. عندما اقتربت من البيت، حاولت أن أخطو برفق فوق الحصى كي لا أوقظ الحارس إرنست واضطر إلى أن أبين له أنني أنا وليس شخصا آخر، لم يكن ثمة ضوء في حجرة راكي. كان البيت مظلما إلاّ من مصباح خافت فوق الكومودينو الخاص بي. وبدلا من أن أمضي إلى الداخل، درت حول البيت، فاصطدمت بالأحراش والتصق وجهي بأنسجة العنكبوت، ثم ذهبت للجلوس لفترة في الشرفة حيث كان يبدو أن ثمة نسمة هواء هناك. كان صوت البحر بعيدا في الخارج على الصخور، حيث كانت الأمواج تتنهد. وهنا في الأسفل، لم يكن من شيء سوى الهدير الخافت والخرير الناعم

مـــن وقت إلى آخر. كان المد منخفضا على غير العادة. دخنت ثلاث سجائر بطريقة آلية، وأنا أتوقف حتى عن التفكير، ثم، عندما أصبح مذاق فمي مرا من أثر الدخان، مضيت إلى الداخل.

كانـــت حجرتـــي خالية من الهـــواء. قذفت ملابســـي على أحد الكراســـي ونظرت إلى الكومودينـــو لأرى إن كان إبريق الماء هناك. ثـــم انفغر فمي متثائبا. كانت ملاءة الســـرير العلوية قد أزيحت إلى الوراء عند مؤخرة الســـرير. وهناك في الطرف الآخر من السرير، اســـتطعت أن أميز اللـــون الداكن نوعا ما في مقابـــل بياض ملاءة السرير السفلية، كان راكي، مستلقيا على جانبه، وعاريا تماما.

وقفت أنظر إليه لفترة طويلة، وأنا ممسك بأنفاسي على الأرجح، لأننـــي أتذكر أنني أحسســـت بالدوار قليلا في وقـــت معين، وبينما راحت عيناي تتبعان انحناءة ذراعه، وكتفه وظهره، وفخذه، وســـاقه، كنت أهمس لنفسي قائلا: «طفل، طفل». القدر، عندما يلاحظه المرء وبوضوح من جميع جوانبه، فســـوف يكتشـــف أنه لا ملامح له على الإطلاق. فالتعرف عليه والوعـــي بالتصورات والتخيلات الواضحة الرؤية لا يتركان أي مـــكان في أفق العقل. في النهاية أطفأت النور واستلقيت إلى أسفل برفق. كان الليل حالكا تماما.

ظل مستلقيا بشكل ثابت حتى الفجر. لن أعرف أبدا ما إن كان نائما بالفعل طوال ذلك الوقت أم لا. بالطبع لم يكن بمســـتطاعه النـــوم، إنه لا يزال مســـتلقيا في ثبات تام. دافئ وســـاكن، لكنه كالميـــت. كان الظلام والصمت ثقيلين من حولنـــا. عندما بدأت الطيـــور في الغناء، غرقت في إغفاءة نوم هادئ غلفتني، وعندما استيقظت فيما بعد في ضوء الشمس، كان قد ذهب.

وجدته في الأســفل عند الماء، يثب بمفرده في مرح فوق لوح القفز، وقد تخلص للمرة الأولى من سرواله من دون أي إيحاءات أو اقتراحات من جانبي. بقينا معا طوال اليوم هنا وهناك، قرب الشرفة وفوق الصخور، ونحن نتحدث، ونسبح، ونقرأ، واستلقينا بشــكل تام في الشمس اللاهبة. لم يعد راكي إلى حجرته عندما حل المســاء. بدلا من ذلــك، بعدما نام الخــدم، أحضرنا ثلاث زجاجات شــمبانيا ووضعناها في الدلو الذي قمنا بتجهيزه فوق الكومودينو.

وهكذا حدث أنني كنت قادرا على التطرق إلى الموضوع الذي كان لا يزال يشغلني ويؤرقني، واستغلالا لفرصة التفاهم الجديد بيننا، أدليت بمطلبي في سهولة، وبطريقة طبيعية جدا.

«راكي هل تسدي لي معروفا كبيرا إذا طلبته منك؟»

استلقى على ظهره، ويداه تحت رأسه. بدا لي أن نظرته كانت حذرة، وتتوق إلى الصراحة والصدق. متسائلا:

«أظن ذلك»، قال. «ما هو؟»

«هل من الممكن أن تبقى فــي دائرة البيت لبضعة أيام، لنقل، أســبوعا؟ فبإمكاننا القيام ببعض النزهات معا، بقدر ما تحب. هل من الممكن أن تفعل هذا لأجلي؟»

«يقينا»، قال وهو يبتسم.

كنت أحاول كسب الوقت، لكنني كنت فاقدا الأمل.

ربما بعد مرور أســبوع - فقط عندما يكون المرء غير ســعيد تماما يدقق إلى حد الوسوســة فيما يتعلــق بالوقت، لدرجة أنه قد يكون تقريبا مصابا بالوســواس - وبينما كنا نتناول إفطارنا،

وإيســـاه واقفا على مقربة منا، في الظل، فـــي انتظار أن نطلب منـــه أن يصب لنـــا المزيد من القهوة. قال راكـــي: «لاحظت أنك قد تلقيت خطابا من العم تشـــارلي في الأيام القليلة الماضية، ألا تعتقد أنه تجب علينا دعوته إلى هنا؟»

بدأ قلبي يخفق بشدة.

«إلى هنا؟ إنه يكره المكان هنا»، قلت بشكل عرضي. «بالإضافة إلى أنه ليست هناك حجرة له. أين سينام؟» بينما سمعت نفسي أنطق بهذه الكلمات، تبينت أنها كانت كلمات خاطئة، لدرجة أنني لم أعد أشارك في المحادثة بصورة فعلية. وللمرة الثانية شعرت بالضعف الكامل الذي ينتاب المرء عندما يدرك فجأة ويرى أمام عينيه قدره يتشكل.

«في حجرتي»، قال راكي. «فهي خالية».

أمكننـــي في تلك اللحظة أن أرى المزيد من المخطط الذي في ذهنه بأكثر مما توهمت وجوده. «هراء»، قلت، «ليســـت هذه من نوعية الأماكن المفضلة لدى العم تشارلي».

بدا أن راكي قد اهتدى أو هو بســـبيله إلى الاهتداء إلى فكرة ممتازة. «ربما إذا كتبت أنا إليه ودعوته»، قال اقتراحه هذا، وهو يومئ إلى إيساه لمزيد من القهوة.

«هـــراء»، قلت ثانية، وأنا لا أزال أرقب المخطط وهو يكشـــف عن نفسه، مثل الصورة الفوتوغرافية التي تصبح واضحة بشكل متدرج منتظم في صينية محلول الإظهار.

ملأ إيســـاه فنجان راكي وعاد إلى الظل. وراح راكي يشـــرب ببطء، متظاهرا بتلذذ بالفنجان.

«حســنا، لن أتجشــم أي عناء من جراء المحاولة، وهو بدوره سيقدر الدعوة»، قال في تأمل.

لسبب ما، عرفت عند هذه النقطة المفصلية ما الذي عليّ أن أقوله، وبينما كنت أقوله، صرت على دراية بما كنت على وشــك أن أفعله.

«اعتقــدت أن بإمكاننا أن نطير إلى هافانــا لبضعة أيام في الأسبوع القادم».

بدا مهتما في تحفظ، ثم ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة. «رائع!» صاح. «ولماذا ننتظر حتى الأسبوع القادم؟»

وفــي الصبــاح التالي كان الخــدم يقولون لنا إلــى اللقاء، بينما كنا ننطلق فوق الطريق الحجري في ســيارة ماك كوي. أقلعنا من المطار في السادســة مساء. كان راكي مبتهجا، وظل يتجــاذب أطــراف الحديث مــع المضيفة طــوال الطريق إلى «كاماجوي[٣٣]».

كان مســرورا أيضــا بهافانا. ونحن جالســان فــي البار في «ناســيونال»، استأنفنا مناقشة احتمال قيام تشارلز بزيارتنا في الجزيرة. لــم يكن من الصعب عليّ في النهايــة إقناع راكي بأن الكتابة لعمه ستكون غير مستحسنة.

قررنا أن نبحث هناك عن شــقة مناســبة مــن أجل راكي في فيــدادو. لم يبد أنه يود العودة إلى هنا في النقطة الباردة. قررنا أيضا أن المعيشة في هافانا ستحتاج إلى دخل أكبر له مما سأحتاج إليه أنا. إنني بالفعل أملك الجزء الأكبر من ملكية أمه «هوب» وقد

(٣٣) مدينة في وسط كوبا - المترجم.

قمت بتحويلها إلى وديعة ستكون تحت إدارتي حتى يبلغ راكي سن الرشد، فهي نقود أمه بالرغم من كل شيء.

اشـــترينا سيارة جديدة مكشـــوفة، واصطحبني بها إلى «رانكو بوبيروس «عندما كنت ذاهبا لألحق بطائرتي. وكان راكي قد التقى بولد كوبي يدعى كلاوديو، ذو أســـنان شـــديدة البياض، في حمّام السباحة ذلك الصباح، وكان يجلس بيننا.

كنا ننتظر أمام مهبط الطائرة. أخيرا قام أحد المسؤولين بفك السلســـلة ليدع الركاب يمرون. «إذا أحسســـت بالسأم، تعال إلى هافانا»، قال راكي، وهو يضغط على ذراعي.

كان الاثنـــان واقفين خلـــف الحبل، يلوحان لـــي، وقميصاهما يرفرفان في الريح عندما بدأت الطائرة في التحرك.

الريـــح تعصف برأســـي، بين كل هبة ريح وأخـــرى كانت هناك آلاف الأصوات الصغيرة والمتقطعة بالضبط مثلما تسرع المياه إلى الخارج من الصدوع والفتحات؛ إحســـاس بطفو جزئي، وإحساس بانغمار جزئي وبكون المياه تســـكن عقلي بينما الشـــمس الساخنة تلهـــب وجهي وتحرقه. إنني جالس هنا أقرأ، وأنتظر الإحســـاس اللطيف بالامتلاء الذي يعقب تناول وجبة شهية، ثم يتحول ببطء، بينما تنقضي الساعات، إلى الإحساس الداخلي العميق بمزيد من البهجة والسرور، والذي يصاحب انبعاث الشهية واستيقاظها.

أنا في الحقيقة سعيد تماما هنا، لأنني لا زلت أعتقد أنه ليس ثمة شـــيء شـــديد العنف من المحتمل أن يضـــرب أو يصيب هذا الجزء من الجزيرة في المستقبل القريب.

في باسو روجو

عندما ماتت السيدة سانشيز العجوز، قررت ابنتاها ليتشا وتشاليا زيارة أخيهما في مزرعته من منطلق الولاء لأمهما، كانت الابنتان قد اتفقتا على ألا تتزوجا أبدا مادامت أمهما على قيد الحياة، وبعدما رحلت، وكانتا قد تجاوزتا الأربعين بقليل، بدت فرصة زواجهما الآن في العائلة صعبة جدا عنها في أي وقت مضى. ربما لن تعترفا بهذا حتى لأنفسهما، مهما كان. اقترح دون فدريكو بتفهم كامل على أختيه أن تتركا المدينة وتأتيا إلى باسو روجو لقضاء بضعة أسابيع.

وصلت ليتشا مرتدية الكريب الأسود علامة الحداد. بالنسبة إليها، كان الموت أحد الأشياء التي تحدث في الحياة بانتظام معين، وبناء عليه كان الأمر يتطلب مراعاة خارجية للتقاليد الاجتماعية. بخلاف ذلك كانت حياتها لا سبيل إلى تغييرها، باستثناء أنها في المزرعة ستضطر إلى التعود على مجموعة كاملة من الخدم الذين لم تتعامل معهم من قبل.

«الهنود، أشياء رثة، حيوانات ناطقة»، قالت لدون فدريكو في الليلة الأولى بينما كانا جالسين لتناول القهوة، كانت بنت حافية قد حملت لفورها أطباق الحلوى إلى الخارج.

ابتسم دون فدريكو. «إنهم أناس طيبون»، قال في تأن. كانت المعيشة في المزرعة لمدة طويلة قد قللت من معاييره في الحكم - كما كانت تقول - وعلى الرغم من أنه كان دائما ما يقضي شهرا أو نحو ذلك كل سنة في العاصمة، فإنه أصبح غير مبال بشكل متزايد بالحياة الاجتماعية للمدينة.

كانت ليتشا قد اعتادت أن تقول للسيدة سانشيز «إن المزرعة تأكل روحه بالتدريج»، وفي المرة التي أجابت فيها السيدة العجوز قالــت: «إذا كانت روحه في ســبيلها إلى التــآكل، فلندع المزرعة تلتهمها إذن».

تفحصت حجرة الطعام البدائية بديكوراتها البسيطة المكونة من أوراق وأفرع النخيل: «إنه يحب المكان هنا لأن كل شـــيء ملك له»، فكرت ليتشـــا، «وبعض هذه الأشـــياء لن تصبح ملكا له إذا لم يقم بتغييرها عن عمـــد لتصبح ملائمة». لم تكن تلك الفكرة مقبولة تماما. كانت تعرف أن المزرعة قد جعلته سعيدا ومتسامحا وحكيما، وبالنسبة إليها فقد بدا من المحزن أنه لم يكن قادرا على امتلاك هذه الأشـــياء من دون أن يفقـــد تحضره وتمدنه البراق المتألق، الذي خســـره، من دون شك. كانت له بشرة فلاح، سمراء ومغضنة فـــي كل جزء منها، كان يتحدث ببـــطء كالرجال الذين عاشوا لفترات طويلة من الزمن في الخلاء. وكانت نبرات صوته توحي بالصبر الذي يمكن أن يكتسب من التحدث إلى الحيوانات أكثر من التحدث إلى البشر. كانت ليتشا امرأة على دراية ووعي، ومع ذلك لم تكن لتقدر على الحيلولة دون الإحساس بقدر معين من الأســـف لأن أخاها الصغير، الذي كان في فترة ســـابقة من حياته أفضـــل راقص بين أعضاء النادي فـــي البلدة، قد أصبح ذلـــك الرجل النحيل، الحزين الملامح، الهـــادئ الذي كان يجلس أمامها.

- «لقد تغيرت كثيرا»، قالت فجأة وهي تهز رأســـها من جانب إلى آخر في بطء.

- «نعم. إنك تتغيرين في هذا المكان كثيرا، لكنه مكان جيد».
- «جيد، نعم، لكنه كئيب جدا».

ضحك دون فدريكو: «ليس كئيبا على الإطلاق. سوف تعتادين الهدوء. وبعد ذلك ستجدين أنه غير هادئ على الإطلاق. لكنك لم تتغيري كثيرا. أليس كذلك؟ تشاليا تختلف، هي التي تغيرت. هل لاحظت ذلك؟».

- «كانت تشاليا مجنونة دائما. إنها لم تتغير أيضا».
- «لقد تغيرت كثيرا جدا». نظر إلى ما وراء المصباح الزيتي، إلى الخارج حيث الظلام: «أين هي؟ لماذا لم تتناول قهوتها؟».
- «إنها تعاني الأرق. إنها لا تشربها على الإطلاق».
- «ربما تجعلها ليالينا تنعم بالنوم»، قال دون فدريكو.

كانت تشاليا جالسة في الشرفة العلوية في نسيم الليل اللطيف. كانت المزرعة تقع في خلاء شاسع أحاط بالغابة من جميع الجهات تقريبا، لكن القرود كانت تطلق صرخاتها من طرف إلى آخر، كأنه لم تكن هناك مساحة خلاء أو بيت المزرعة، كانت قد قررت تأجيل موعد ذهابها إلى السرير، بهذه الطريقة سيكون الظلام أقل حلكة ليحتمل إذا بقيت مستيقظة. كانت أبيات الشعر التي قرأتها في القطار قبل يومين لا تزال في ذهنها: «بصحبة الليل[٣٤]... في بعض الأحيان يأخذك الليل في داخله، يلفك، يطويك طيا، تاركا إياك مغسولا في النوم حتى حدود الصباح». كان هذان البيتان بمنزلة عزاء. لكن كان هناك بيت فظيع لم يأت بعد: «وفي بعض الأحيان يمضي الليل من

(٣٤) وردت بالإسبانية [المترجم].

دونــك». حاولت أن تهرب من الصورة الخاصة بالصباح الجديد المشـــمس إلى فكرة غريبة تماما: النادل في نادي الشـــاطئ في «بونتاريـنــاس»[٣٥]، لكنهــا كانــت تعرف أن الفكــرة الأخرى في انتظارها هناك في الظلام.

كانــت في أثنـــاء رحلتها من العاصمة ترتــدي بنطلون ركوب الخيل القصيــر وقميصا كاكيا مفتوحا عند الرقبة، وقد أطلعت ليتشا على اعتزامها الاستمرار في ارتداء هذه الملابس طوال فترة وجودها في باسو روجو. وقد تشاجرت مع ليتشا في المحطة.

«الجميــع هنا يعرف أن أمنا قــد توفيت، والذين لن يصدموا سوف يسخرون منك»، قالت ليتشا.

أجابت تشـــاليا بنبرة احتقار شديد في صوتها: «أنت أخذت رأيهم، على ما أعتقد».

عندما كانتا في القطـــار، وبينــما كان ينحني عبر الجبال باتجاه «الأرض الدافئة»[٣٦]، قالت فجأة ومن دون مناسبة: «إن اللون الأسود لا يناسبني». ما أصاب ليتشا بالانزعاج والضيق فعلا أنها ذهبت في بونتاريناس واشترت بعض طلاء الأظافر القرمزي حيث استعملته بصعوبة بنفسها في غرفة الفندق.

«هذا غير ممكن، يا تشاليا!» صرخت أختها بدهشة، «إنك لم تفعليها من قبل. لماذا تفعلين هذا الآن؟».

ضحكت تشاليا ضحكة طويلة: «مجرد نزوة!» قالت وهي تمد يديها المزينتين أمامها.

---

(٣٥) ميناء في جنوب كوستاريكا [المترجم].

(٣٦) وردت بالإسبانية [المترجم].

جاء صوت خطوات تصعد السلالم ثم على امتداد الشرفة، التي اهتزت قليلا بفعل هذه الخطوات. نادتها أختها: «تشاليا!».

ترددت للحظة، ثم قالت، «نعم».

- «إنك تجلسين في الظلام! انتظري، سأحضر مصباحا من حجرتك، يا لها من فكرة جيدة!»

- «سـوف تغطينا الحشرات»، قالت تشـاليا معترضة، وعلى الرغـم من أن مزاجها لـم يكن صافيا، فإنها لـم ترغب في أن تتسبب في تشويشه.

- «فدريكو يقول لا!» صاحت ليتشـا مـن الداخل، «يقول إنه ليست هناك حشرات! لا توجد حشرات من النوع الذي يلسع أو يقرص، على أي حال!».

ظهـرت الآن ومعها مصباح صغير وضعته على منضدة قبالة الحائط. جلسـت في أرجوحة مجاورة وأخذت تؤرجح نفسـها برفق ذهابا وإيابا، وهي تدندن. نظرت إليها تشاليا بتجهم، لكن يبدو أنها لم تلحظ ذلك.

- «يا للجو الساخن!» هتفت ليتشا أخيرا.

- «لا تجهدي نفسك كثيرا»، اقترحت تشاليا.

كانتا هادئتين. سرعان ما أصبح النسيم ريحا عاتية، تأتي من اتجاه الجبال البعيدة، لكنها كانت شـديدة الحرارة، مثل أنفاس حيوان ضخم. تراقص ضوء المصباح، منذرا بالانطفاء، فنهضت ليتشـا وخفضت من إضاءته. عندما كانت تشاليا تحرك رأسها كي تشـاهدها، كان انتباهها مشـغولا بشـيء آخر، وسرعان ما بدلـت تحديقها إلى حيث الحائط. كان هناك شـيء ما ضخم،

أسود وســريع كان موجودا على الحائط منذ لحظة لكن الآن لم يعد هناك شــيء. أخذت ترقب المكان بعــزم ودقة. كان الحائط مكســوا بأحجار صغيرة لصقت فوقه وجــرى طلاؤها بالكلس من دون عناية، لذلك كان الســطح خشنا جدا ومملوءا بالثقوب الواسعة. نهضت فجأة واقتربت من الحائط، وأخذت تحدق فيه عن كثب. جميع الثقوب، الكبيرة والصغيرة، كانت مبطنة بأشكال بيضــاء على هيئة أقماع. كان بإمكانهــا أن ترى الأرجل الطويلة النحيلــة للعناكب التي كانت تعيش في الداخــل، وهي تبرز إلى الخارج من وراء بعض هذه الأقماع.

«ليتشــا، هــذا الحائــط مملوء بكائنــات غريبــة ومخيفة!» قالت صارخة. طارت خنفســاء قرب المصبــاح، ثم غيرت رأيها وحطت على الحائط. انطلق أقرب عنكبوت إلى الأمام، وأمسك بالخنفساء ثم اختفى بها إلى داخل الحائط.

«لا تنظري إليها»، نصحتها ليتشــا، لكنها ألقت نظرة خاطفة إلى الأرض قرب قدميها بطريقة متوجسة.

جذبت تشــاليا سريرها إلى وســط الحجرة وحركت منضدة صغيــرة إلى جواره. أطفأت المصباح واســتلقت علــى «المرتبة» القاســية. كان صوت الحشرات الليلية عاليا بشكل غير محتمل، والصراخ الحاد المستمر يغطي على ضوضاء الريح. كانت جميع النباتات في الخارج جافة، وكان يصدر عنها الملايين من أصوات الاحتكاكات في الهواء كلما اندفعت الريح خلالها، والقردة ينادي بعضها البعض من وقت إلى آخر من مختلف الأنحاء، وكان أحد الطيور الليلية يصدر أصوات احتجاج بشكل عرضي، لكن صوته

فــي كل مرة كانت تبتلعه الأصوات اللحوحة للحشــرات واندفاع الريح عبر الريف الساخن، الذي كان مظلما تماما.

أضــاءت المصباح المجاور لســريرها بعد ســاعة، ثم نهضت، وذهبت بقميص نومها للجلوس في الشرفة. وضعت المصباح حيث كان موضوعا من قبل، قرب الحائط، وأدارت كرسيها بمواجهته، وجلست ترقب الحائط حتى ساعة متأخرة من الليل.

في الفجر كان الهواء بــاردا، ومملوءا بالأصوات المتواصلة لخوار المواشــي، بعيدا وفــي الجوار. كان الإفطــار قد جرى إعداده بمجرد أن أشــرقت الســماء تماما. كانت هناك جلبة صادرة عن أصوات النســاء في المطبــخ. وكانت حجرة الطعام مملوءة برائحة الكيروسين والبرتقال. في منتصف المائدة طبق كبير مكدس بشــرائح الأناناس السميكة الفاتحة اللون. جلس دون فدريكو في طرف المائدة، وظهره إلى الحائط. كانت خلفه كوة صغيرة، مضاءة بالشموع، والسيدة العذراء واقفة هناك في ثوب أزرق وفضي.

- «هل نمت جيدا؟» قال دون فدريكو متوجها إلى ليتشا.
- «آه، بشكل رائع جدا!»
- «وأنت؟» إلى تشاليا.
- «لم أنم بشكل جيد على الإطلاق».

جرت دجاجة بشــكل عشوائي إلى داخل الحجرة من الشرفة فطاردتها إحدى الخادمات وأخرجتها. كانت مجموعة من أطفال الهنود تقف خارج الباب تحرس ركنا تمتد فيه مجموعة من أحبال الغســيل التي كانت تغطيها تشــكيلة من اللحم الأحمر (أشرطة

من اللحم وتلافيــف وبقايا الأعضاء الداخليــة)، عندما انقض نســر إلى أســفل، أخذ الأطفال يقفزون إلى أعلى وإلى أسفل، وهم يصرخون في صوت واحد بشــكل جماعي، حتى تمكنوا من دفعه إلى التحليق في الهواء مرة ثانية. كانت تشاليا متجهمة من ضوضائهم. ابتسم دون فدريكو قائلا:

- «كل هــذا تكريما واحتفاء بكما»، «بالأمس ذبحنا بقرة وفي الغد سيختفي كل هذا».

- «لن تختفي النسور!» صرخت تشاليا.

- «بالتأكيد لا. رعــاة البقر والخدم كلهم يأخذون بعض هذه القطع إلى بيوت أسرهم، وينجحون في استخلاص قطع مناسبة منها لأنفسهم».

- «أنت كريم جدا»، قالت تشاليا، «إنه سيئ لهم. إنها تجعلهم غير راضين وتعساء، لكنني أعتقد أنك إن لم تعطها لهم، فسوف يسرقونها على أي حال».

دفع دون فدريكو كرسيه إلى الوراء.

«لم يســرق أحد هنا أي شــيء مني أبدا». نهض ومضى إلى الخارج.

بعد الإفطار عندما يكون الوقت لا يزال مبكرا، وقبل أن ترتفع الشمس في منتصف السماء، كان دون فدريكو يقوم بجولته المعتادة في المزرعة وكانت تســتغرق ساعتين. ونظرا إلى أنه كان يفضل القيام بزيارات مفاجئة إلى رعاة القطعان المسؤولين عن المناطق المختلفــة، فإنه لم يكن يقوم في كل مرة بتغطية المناطق نفســها، كان يشــرح هذا لليتشــا بينما كان يحل لجام حصانه ويســحبه

إلى خارج السور السلكي الشائك العالي المحيط بالبيت: «ليس لأنني آمل في أن أجد شيئا ما خطأ، لكن هذه هي أفضل طريقة لاكتشاف أن كل شيء على ما يرام دائما».

كانت ليتشا مثل تشاليا متشككة في قدرة الهندي على القيام بأي شيء بشكل مناسب. «فكرة جيدة جدا»، قالت: «أنا متأكدة من أنك رؤوف جدا ومتساهل مع هؤلاء الأولاد. إنهم في حاجة إلى قبضة قوية ومن دون شفقة أو رحمة».

فوق الأشجار العالية التي نمت خلف البيت كانت الببغاوات الأمريكية الحمراء والزرقاء ذات الذيل الطويل تزعق، وهي تكرر مسارها البيضاوي في السماء بشكل لا نهائي. نظرت ليتشا إلى مسارها في الأعلى فرأت تشاليا واقفة في الشرفة العلوية، وهي تدس طرف قميصها الكاكي في بنطلونها القصير.

«ريكو، انتظر! أريد أن أذهب معك»، نادت تشاليا، وأسرعت إلى داخل حجرتها.

التفتت ليتشا إلى أخيها: «إنك لن تأخذها معك بكل تأكيد، إنها لن تستطيع! ما يتعلق بأمنا ...».

قطع دون فدريكو عليها حديثها، لئلا يستمع إلى ما كان سيسبب له ألما. «كلتاكما في حاجة إلى الهواء الطلق والمران. تعاليا».

صمتت ليتشا للحظات، وهي تنظر بذهول إلى وجهه. وفي النهاية قالت: «لن أستطيع»، ومضت بعيدا لتفتح البوابة. كان عدد من رعاة البقر يتحركون بأحصنتهم في بطء من الإسطبل باتجاه واجهة البيت. ظهرت تشاليا في الرواق السفلي وأسرعت إلى البوابة، حيث وقفت ليتشا تنظر إليها.

- «أنت ذاهبة إذن لركوب الخيل». قالت ليتشا. لم يكن صوتها ينم عن أي تعبير.

- «نعم. هل ستأتين؟ أعتقد لا. علينا أن نعود سريعا، أليس كذلك يا ريكو؟».

تجاهلها دون فدريكو، ثم قال لليتشا: «سيكون من الجيد أن تأتي معنا».

لم تجب ليتشا بل مضت إلى البوابة وأغلقتها، فأشار إلى أحد رعاة البقر بالنزول عن حصانه ومساعدة تشاليا في امتطاء حصانه. جلست فوق الحيوان منفرجة الساقين وهي تبتسم إلى الشاب.

- «الآن، لن يمكنك المجيء معنا. فليس لديك حصان!» صاحت بالشاب وهي تجذب اللجام بعنف لتجعل الحصان يقف ساكنا تماما.

- «نعم، يا سيدتي. سأذهب مع الرجال». كانت لغته قديمة ووقورة، لغة هندي قادم من الريف. كانت كلماتهم الهادئة المهذبة تضايقها دائما، لأنها كانت تعتقد، بطريقة خاطئة بعض الشيء، أن بإمكانها استشفاف السخرية تحت هذه الكلمات. «مثل الببغاوات التي تعلم بيتين من جونجورا[٣٧]»، كانت ستقول هذا وهي تضحك، إذا ما طرح الموضوع. لكنها كانت متضايقة جدا الآن لسماعها تخاطب بلقب سيدة. «الأبله! يجب أن يعرف أنني لست متزوجة»، فكرت. لكنها عندما خفضت بصرها لتنظر إلى راعي البقر مرة ثانية لاحظت أسنانه البيضاء ووجهه الصغير

---

(٣٧) جونجورا يا أرجوتي (١٥٦١ - ١٦٢٧) شاعر إسباني [المترجم].

جدا. ابتسمت ثم قالت، «هذا الجو، كم هو ساخن بالفعل»، وفكت زر القميص العلوي.

جرى الولد إلى الإسطبل وعاد من فوره، ممتطيا حصانا أكبر وأكثــر عصبية. كانت هذه بمنزلة مزحــة لرعاة البقر الآخرين، الذين أخذوا في الضحك على الفور. ســار دون فدريكو وتشاليا جنبا إلى جنب، والولد خلفهما، يصفر لحنا ويطلق كلمات مهدئة على التناوب إلى حصانه الجفول.

سارت المجموعة لمسافة ميل أو نحو ذلك في المساحة المفتوحة الواقعة بين البيت والغابة، ثم أخذ العشــب العالي يحتك بأرجل الراكبين، بينما كانت الخيول تمضي إلى أســفل نحو النهر الذي كان جافــا إلا من جدول ماء ضيق في وســطه. ســاروا متتبعين قاع النهر في اتجاه التيار، وكانــت النباتات تزداد ارتفاعا، على امتداد الضفتين بينما كانوا يواصلون تقدمهم. كانت تشاليا في حالــة مزاجية جيدة وقد طلت أظافرها مجددا قبل أن ينطلقوا. وراحــت تناقــش إدارة المزرعة مع دون فدريكــو. كانت النفقات والقدرة على تحقيق المكســب هي التي استحوذت على اهتمامها بصفــة خاصة، علــى الرغم من أنه لم تكــن لديها أي فكرة عن ســعر أي شيء. كانت قد وضعت قبعة مكسيكية ضخمة وناعمة مصنوعة من القش ظلت تســقط حافتها على كتفيها بينما كانت تتقدم في ســيرها. كل عدة دقائق كانت تلتفت إلى الخلف وتلوح إلى راعي البقر الذي كان لا يزال في المؤخرة، وتصيح إليه: «أيها الولد[٣٨]! إنك لم تضل طريقك بعد؟».

(٣٨) وردت بالإسبانية [المترجم].

كان النهر قد انقسم في تلك اللحظة إلى قاعين شديدي التباعد عـن طريق جزيرة كبيرة ظهـرت أمامهم، وفي الجـزء العلوي من الجزيرة يوجد سياج منيع من أفرع الأشجار وكرمات العنب. أسفل الأشـجار العملاقة وسـط بعض الصخور الرمادية الضخمة كان هناك قطيع من الأبقار أو نحو ذلك، وقد بدت الأبقار صغيرة جدا في الواقع بينما كانت مسـتلقية بانحناء في الطين أو تسـير ببطء هنا وهناك بحثا عن ظل وارف. تقدم دون فدريكو فجأة بسرعة إلى الأمام وتحدث بصوت عال مع رعاة القطعان الآخرين.

فـي الوقت نفسـه تقريبا جذبت تشـاليا لجامهـا وأجبرت حصانها على التوقف. بسـرعة كان الرجـل إلى جوارها. بينما كان يقترب قالت له: «الجو ساخن، أليس كذلك؟».

سار الرجل إلى الأمام، ودار دورة حولها. «صحيح، يا سيدتي. لكن هذا لأننا في الشـمس» وأشار إلى الجزيرة «ثمة ظل. إنهم هناك الآن تقريبا».

لم تقل شـيئا، لكنها خلعت قبعتها وراحت تهوي على نفسـها بطرفهـا. وبينمـا كانت تحرك يدهـا ذهابا وإيابـا نظرت إلى أظافرها المطلية باللون الأحمر قائلة:

«يا له من لون قبيح».

- «ماذا يا سيدتي؟».

- «لا شيء». صمتت ثم قالت «آه، يا للحرارة!».

- «هيا، يا سيدتي. هل لنا أن نمضي؟».

جعدت قمة القبعة المكسـيكية في غضـب بين قبضتها. «أنا لسـت سـيدة»، قالت بشـكل واضح، وهي تنظر إلى الرجل في

المقدمة. ابتســـم الولد وواصلت هي ســـيرها بينما كانا ينطلقان إلى حيث توجد الأبقار ليوقظاها من خمولها. «أنا آنســـة. وهذا ليس الشيء نفسه. أم أنك تعتقد أن الأمر لا يختلف؟».

كان الرجـــل متحيرا، فقد كان واعيـــا بانفعالها المفاجئ، لكن لـــم تكن لديه أي فكرة عن ســـببه. «نعم، يا آنســـة»، قال بأدب، ومـــن دون اقتناع. ثم أضاف، بثقة زائدة، «أنـــا روبيرتو باز، في خدمتك».

ســـقطت أشعة الشـــمس عليهما وكانت تنعكس بفعل الميكا[٣٩] الموجودة في الأحجار أســـفل قدميهما. فكت تشـــاليا زرا آخر من قميصها.

- «الجو ساخن. هل سيعودون قريبا؟».

- «لا، يا آنســـة. إنهم يعودون عبر الطريق الكبير. هل لنا أن نذهب؟» أدار حصانه صوب الجزيرة في المقدمة.

قالـــت بعصبية: «أنا لا أريد أن أكون حيث توجد الأبقار، إنها حاملة للجاراباتا التي تصل إلى تحت جلدك».

ضحـــك روبيرتو كأنه يدللها «لن تتحـــرش بك إذا بقيت على حصانك، يا آنسة».

«لكنني أريد أن أنزل وأستريح. أنا متعبة جدا!» أصبح الإعياء الناجم عن الحـــرارة المزعجة واضحا بينما كانت تنطق كلماتها، هذا الضيق الذي كانت تشعر به كان من الممكن تحويله إلى حالة عامة من الشفقة على الذات والاكتئاب اللذين اعترياها كأوجاع مفاجئة. انتحبت وقد طأطأت رأســـها: «أي، مادر ميا ! يا لأمي

(٣٩) الميكا: مادة شبه زجاجية [المترجم].

المسـكينة!» بقيت على هذا الوضع لفترة، ثـم بدأ حصانها في السير ببطء نحو الأشجار الموجودة على ضفة قاع النهر.

ألقـى روبيرتو نظرة سـريعة حائرة في الاتجاه الذي سـلكه الآخـرون. كانوا قد رحلوا جميعا خارج نطاق الرؤية إلى ما بعد الجـزيرة، كانت الأبقار قد اسـتلقت على الأرض مـرة ثانية. «لا ينبغي أن تبكي يا آنسة».

لم تجـب نظرا إلى أن اللجـام قد واصل ارتخـاءه، وواصل حصانها أيضا التقدم بخطوات أسـرع نحو الغابة. عندما وصل الحصان إلى بقعة ظليلة على حافة الجدول، مضى الولد نحوها بسرعة قائلا «يا آنسة!».

تنهـدت ورفعت بصرها إليـه، وقبعتها لا تزال في يدها. «أنا متعبة جدا»، قالت مكررة. «أريد أن أنزل وأستريح».

كان هناك طريق يؤدي إلى الغابة. مضى روبيرتو إلى المقدمة ليقود السـير، وهو يقطـع العرائش والأحـراش بمنجله. كانت تشـاليا تتبعه، وهي تسير بكسل وتراخ فوق صهوة حصانها، وقد صارت أكثـر هدوءا بفعل الدخول المفاجـئ في العالم الأخضر للصمت ولطف الهواء النسبي.

تقدما ببطء خلال الغابة لمدة ربع ساعة أو نحو ذلك من دون أن يتحـدث أحدهما إلى الآخر. عندمـا وصلا إلى بوابة فتحها روبيرتـو من دون أن يترجل وانتظر تشـاليا لكـي تعبر خلالها. عندما مرت بجواره ابتسمت وقالت: «كم هو مكان لطيف هنا».

أجـاب، بطريقة جـافة بعض الشيء، حسبما خُيِّل إليها: «نعم، يا آنسة».

فـي المقدمة، خفـت كثافة النباتات، وفـي البعيد امتدت أرض شاسـعة مفتوحة متعرجة قليلا، مزينة هنا وهناك، كما لو كان عن قصد، بجذوع بيضاء عملاقة من أشـجار السـيبة[٤٠]. كانت الريح السـاخنة تهب عبر هذه الأرض المرتفعة، وكانت صيحات الزرازير تمـلأ الهواء. أوقفت تشـاليا حصانها وقفزت إلـى الأرض. كانت النباتات الصغيرة شـبه الشـوكية التي غطت الأرض كلها تطقطق تحت حذائها. جلسـت بعناية في الظل عنـد أقصى حافة الأرض المفتوحة.

ربـط روبيرتـو الحصانين إلى شـجرة ووقف ينظـر إليها، بعينـين عدائيتين حذرتين لهندي يواجه مـا لا يقوى على فهمه أو استيعابه.

«اجلس. هنا». قالت.

أطاع على مضض، وجلس وساقاه ممدتان على الأرض أمامه، كان ظهره شديد الاستقامة. أراحت يدها على كتفه. «يا للحرارة»، تمتمت بالإسبانية.

لـم تتوقع منه أن يرد، لكنه فعل، وبدا صوته بعيدا. «إنه ليس خطئي، يا آنسة».

أطلقت ذراعها حول رقبته وأحست بالعضلات وقد أصبحت مشـدودة. مسـحت وجهها في صدره، فلم يتحرك هو أو ينبس بكلمة. بعينيها المغلقتين ورأسها الذي كانت تضغطه بقوة، أحست كمـا لو كانـت على صلة بالوعـي فقط عن طريـق الصرخات الصاخبـة المتواصلة للزرازير. ظلت على هذا الوضع برهة. كان

---

(٤٠) السيبة: شجرة أمريكية استوائية ضخمة [المترجم].

وجهه قد أصبح قناعا صعب الاختراق، لم يبد عليه التفكير في أي شيء، ولا حتى في كونه موجودا.

وهي تتنفس بصعوبة، رفعت رأسها لتنظر إليه، لكنها وجدت أنها لم تكن تملك الشجاعة لتبلغ عينيه بتحديقها. بدلا من ذلك نظرت إلى حنجرته وأخيرا همست، «لا يهم ما تظنه بي. يكفيني أن أتعلق بك هكذا».

أدار رأســه بجفاء بعيدا عن وجههــا، وراح ينظر عبر الخلاء إلـى الجبال. وقال بصوت أجش «مــن الممكن أن يأتي أخي عبر هذا المكان. يجب علينا أن نعود إلى النهر».

حاولــت أن تدفن وجهها في صدره، كي تفقد نفســها مرة أخرى في هذا الإحســاس العذب. مــن دون تحذير، تحرك بسرعة ونهض، إلى درجة أنها سقطت إلى الأمام ووجهها في الأرض.

المفاجأة الناجمة عن ســقوطها البســيط بدلت مزاجها في الحــال. نهضــت قافزة، وانطلقــت على نحو أعمــى إلى أقرب حصــان، وفي لحظــة كانت قد امتطته بســرعة، قبل أن يتمكن هو من الصراخ قائلا: «إنه الحصان الشــكس!» كانت قد لكزت جانبي الحيوان بكعبيها. رفع الحصان رأســه في انفعال، وبقفزة عنيفة بدأ فــي العدو بطول الطريق. عند الحركة الأولى أدركت بشــكل طفيف أن ثمة تغييرا، وأنه ليس الحصان نفسه، لكن في غمرة إثارتها تناســت ملاحظتها. كانــت مبتهجة بكونها تتحرك بســرعة وخفة عبر السهل ضد الرياح الســاخنة. وكان روبيرتو وراءها في الخلف.

«أبله!» صرخت في الهواء بكل قوتها بالإسبانية، «أبله! أبله!» كان أمامها نسـر ضخم، أصيب بالرعـب والفزع من الأصوات الهستيرية للحوافر المقتربة، فحلق بعيدا في السماء بشكل أخرق تعوزه البراعة.

بدأ السـرج، الذي كان قد ربط خصيصا من أجل حركة أقل قوة ونشاطا، في الانزلاق. أمسكت بالحافة الأمامية المرتفعة من السـرج، بيد واحدة، وبالأخرى أمسكت بقميصها مما أسفر عن جذب متشـنج مزقه تماما فصار مفتوحا. انتابها إحساس قوي بالجـذل والبهجة عندما ألقت بنظرة خاطفة إلى أسـفل ورأت بشرتها البيضاء في ضوء الشمس.

على مسـافة في أحـد الجوانب، رأت بشـكل باهت بعض أشـجار النخيل تمتد فـوق بقعة صغيرة في مـا وراء النباتات السفلية. أغلقت عينيها: بدا النخيل مثل عناكب خضراء لامعة. كانت تعاني ضيقا في التنفس بسـبب الاهتزاز. بينما الشـمس ترسل أشـعتها الحارقة. ظل السرج ينزلق أكثر فأكثر، ولم يكن بمقدورهـا أن تضبطه. لم يظهـر الحصان أي علامة تدل على إدراكـه لوجودها. جذبت الأعنة بقوة قدر اسـتطاعتها من دون أن تسـقط إلى الوراء، لكن لم يكن لهذا أي تأثير في الحصان، الذي واصل عدوه بأقصى سـرعة، من دون أن يتبع أي مسـار وتتفادى بعض الأشجار التي كانت على مقربة منه بقرب لا يزيد على بوصة.

«أين سأكون بعد ساعة؟» سألت نفسها. «ميتة. ربما؟» لم تكن فكرة الموت تخيفها بالطريقة نفسها التي تخيف بها بعض الناس.

كانت خائفة من الليل لأنها لا تستطيع النوم، لم تكن خائفة من الحياة أو الموت لأنها لم تشعر بتورطها أو انغماسها في أي من الاثنين إلى أي حد ولو ضئيل. فقط الناس الآخرون الذين عاشوا وماتوا، هم من يعرفون الحياة والموت، أما هي، بكونها داخل نفسها، فهي موجودة فقط كذاتها وليست كجزء من أي شيء آخر. البشر، والحيوانات، والأزهار، والأحجار كلها كيانات، وتنتمي جميعها إلى العالم الخارجي. وكانت التقابلات وعلاقات الجوار بينها هي التي صنعت الأنماط أو الأشكال العدائية أو الودودة. كانت تنظر في بعض الأحيان إلى يديها وقدميها لعدة دقائق، محاولة مقاومة الإحساس غير المحدد الذي كانت تمنحه لها بانتمائها هي أيضا إلى العالم الخارجي. لكن هذا لم يقلقها على نحو عميق من قبل أبدا. كانت تتلقى كل الانطباعات وتستقبلها من دون سؤال، فقد كان بإمكانها مكافحتها إلى حد بعيد عندما كانت تقلق راحتها بشكل قوي جدا.

بدأت تشعر هنا في شمس الصباح الساخنة، لكونها منجذبة إلى الأمام خلال الهواء، بأن كل ما بها تقريبا قد انسل إلى الخارج من عالمها الداخلي، وأن جزءا صغيرا منها هو الذي تبقى لها. وكان ذلك الجزء المتبقي مفعما بالدهشة وعدم التصديق، وفيه يكمن عدم الراحة الوحيد المتمثل الآن في تقبل حقيقة أن جذوع الأشجار البيضاء الضخمة كانت مستمرة في الإسراع على مقربة منها.

حاولت عدة مرات أن تشعر نفسها بالتواجد في مكان آخر: وسط حديقة الأزهار في البيت، في غرفة الطعام في الفندق

في بونتاريناس، حتى كملاذ أخير قد يكون مجديا، نظرا إلى أنها مارســت ذلك في جو من التأزم من قبل، في سريرها بالمزرعة، والظلام من حولها.

بقفــزة كبيرة، وثب الحصان فوق إحــدى القنوات، فانزلق الســرج بشــكل كامل من الجانبين وتدلى إلى أسفل. واصلت بقدر استطاعتها، التشبث بجنبي الحصان عن طريق ساقيها وكانت تجذب عنانه بشــكل مســتمر. فجــأة أبطأ الحصان من سرعته وخطا بنشــاط إلى داخل دغل. كان هناك طريق رديء، شــكت في أنه كان الطريق نفسه الذي كانوا قد سلكوه عندما قدموا عن طريق النهر. جلست بخمول، لترى إلى أين سيذهب الحصان.

وفي النهاية ظهــر قاع النهر كما توقعــت، وهرول الحصان عائدا إلى المزرعة. كانت الشــمس فوق الرأس مباشــرة عندما وصلت هي والحصان إلى الإسطبل. وقف الحصان في الخارج، فــي انتظار أن يدخــل، لكن لم يبد أن هنــاك أحدا في المكان. بمجهــود كبير، نزلــت إلــى الأرض ووجدت أنهــا كانت تعاني صعوبة شــديدة في الوقوف لأن ســاقيها كانتا ترتعشان بشدة. كانت مهتاجة وتشــعر بالخجل. عندما كانت تعرج باتجاه البيت تمنت من أعماق قلبها ألا تراها ليتشا. قلة من البنات الهنديات ظهرن وكــن الوحيدات الموجودات في المكان. جرجرت نفســها إلى الطابــق العلوي وأغلقت عليها باب حجرتها. كان الســرير قد جرى دفعه إلى الخلــف قبالة الحائط، ولم تكن لديها القوة لتسحبه إلى المنتصف حيث كانت تريد.

عندما رجع دون فدريكو والآخرون، مضت ليتشـــا، التي كانت تقرأ في الطابق السفلي، إلى البوابة وصاحت «أين تشاليا؟».

«كانت متعبة. أعادها أحد الأولاد منذ فترة»، قال. ثم أضاف «حدث هذا مباشـــرة عندما أصبحنا فـــي منتصف الطريق إلى كاناس».

تناولت تشـــاليا غداءها في الســـرير ونامت بعمق حتى وقت متأخـــر من بعد الظهر. وعندما خرجت من حجرتها ووقفت في الشـــرفة، كانت امرأة تمســـح الغبار عن الكراسي الهزازة وتعيد ترتيبها في صف قبالة الحائط.

«أين أختي؟» سألت تشاليا.

«ذهبت في الشـــاحنة مع الســـيد إلى القرية»، أجابت المرأة، ومضت إلى أعلى الســـلالم وبدأت كنســـها ونفض الغبار عنها، الدرجة تلو الأخرى، بينما كانت ترجع إلى الخلف وهي تهبط.

جلست تشاليا في كرسي ووضعت قدميها على سور المدخل، فكرت أن ليتشـــا لو كانت هنا لكان من الممكن أن تســـتهجن هذا الوضع. كان هناك منحنى فـــي النهر - الجزء الوحيد من النهر الذي كان على مقربة من البيت أسفلها مباشرة - وكان جانب من الضفة مرئيا لها عبر أوراق النباتات من حيث كانت تجلس. مدت شـــجرة خبز[٤١] عملاقة فروعها إلى الخارج حيث الضلع المقابل للجدول تقريبـــا. كانت هناك بركة ماء عنـــد المنحنى، بالضبط حيث نما جذع شـــجرة من الضفة الطينية. من بين الشـــجيرات خرج هندي يمشي بتثاقل وراح يخلع بنطلونه وقميصه في هدوء.

(٤١) شجرة من فصيلة الخبزيات ثمارها كبيرة ذات لب نشوي يستعمل كالخبز [المترجم].

ثم وقف هناك للحظة، عاريا تماما، وهو ينظر إلى المياه، قبل أن يمشي إلى داخلها ويبدأ في الغوص والسباحة. عندما انتهى من استحمامه وقف على الضفة مرة ثانية، وهو يملس شعره الأزرق الداكن. كانت تشاليا متحيرة، لمعرفتها أن قلة من الهنود كانوا وقحين وغير محتشمين جدا بحيث يستحمون عرايا على مرأى من الشرفة. للحظة أدركت، بإحساس غريب مفاجئ، بينما كانت تشاهده أنه كان روبيرتو وأنه كان يعلم تماما أنها موجودة.

«إنه يعرف أن ريكو قد ذهب وأن أحدا لن يراه من الطابق السفلي»، فكرت، وقد أصرت على إخبار أخيها عندما يعود إلى البيت. ملأتها فكرة الثأر من روبيرتو بإثارة ممتعة. راقبت تحركاته المتأنية بينما كان يرتدي ملابسه. جلس على صخرة مرتديا قميصه فقط وأخذ يمشط شعره. لمعت شمس العصر المتأخرة عبر أوراق الأشجار وأضفت على بشرته لونا برتقاليا. عندما ذهب أخيرا من دون أن يلقي ولو بتحية باتجاه البيت، نهضت هي ودخلت حجرتها. ونقلت السرير إلى منتصف الأرضية مرة ثانية، وبدأت تمشي حوله، كانت حالتها المزاجية تضطرب أكثر فأكثر كلما دارت في الحجرة.

سمعت باب الشاحنة ينغلق بقوة، وبعد لحظة، سمعت أصواتا في الأسفل. وهي تضع إصبعها على صدغها، حيث كانت تضعه هكذا دائما عندما كان قلبها ينبض بسرعة شديدة، تسللت إلى الخارج حيث الشرفة ثم إلى الطابق السفلي. كان دون فدريكو في مخزن المؤن، الذي كان يفتحه لمدة نصف ساعة كل صباح ومساء. خطت تشاليا إلى الداخل عبر الباب، وفمها مفتوح بالفعل،

وهي تشـعر بأن الكلمات على وشـك أن تنفجر من رئتيها. كان اثنان من الأطفال يدفعان بعملاتهما النحاسـية بطول الكاونتر، وهما يشـيران إلى الحلوى التي كانا يرغبان فيها. قرب المصباح كانت امرأة تتطلع إلى أحد المزاليج بين البضائع والسـلع. وكان دون فدريكو فوق السـلم، يحضر رتاجا آخر. انغلق فم تشـاليا ببـطء. خفضـت بصرها إلى مكتـب دون فدريكـو القريب من الباب المجاور لها، حيث كان يحتفظ بدفاتر الحسـابات وأوراقه النقدية. في صندوق سيجار مفتوح تقريبا في متناول يدها كانت هناك حزمة قذرة مـن أوراق البنكنوت. عادت إلى الحجرة قبل أن تعـرف مقدارها. أغلقت البـاب ورأت أنه كان في يدها أربع ورقات بنكنوت من فئة العشـرة كولونات[٤٢]. حشـرتها في جيب بنطلونها.

في العشاء سخرا من نومها الطويل بعد الظهر، وذكرا لها أنها ستبقى مستيقظة طوال الليل مرة ثانية.

كانت منهمكة في تناول طعامها «لو حدث ذلك، فسيكون هذا سيئا جدا»، قالت من دون أن ترفع عينيها نحوهما.

«لقد قمت بترتيب حفلة موسـيقية صغيرة بعد العشاء»، قال دون فدريكو. كانت ليتشا مبتهجة. واصل قائلا: «لدى رعاة البقر بعض الأصدقاء هنا، جميعهم من باجاسـيس، وقد انتهى راؤول من صناعة الماريمبا[٤٣] الخاصة به».

(٤٢) الكولون وحدة النقد في السلفادور وكوستاريكا [المترجم].

(٤٣) الماريمبا: آلة موسيقية أفريقية الأصل، انتشرت وتطورت في أمريكا الوسطى، وتتألف من مجموعة من القضبان الخشبية المدرجة، وتزود في الغالب بجهاز في أسفلها لتقوية وتضخيم الصوت، يُعزف عليها بعصي خشبية [المترجم].

بدأ الرجال والأولاد في التجمع بعد العشـــاء بوقت قليل. كان هناك ضحك، وكانت الجيتارات تعزف في ظلام الشرفة. ذهبت الأختـــان للجلوس في المؤخرة قريبا من حجرة الطعام، وكان دون فدريكـــو في المنتصف مع الرعـــاة، بينما الخدم قد اصطفوا في مؤخـــرة المطبخ. بعـــد عزف عدة مقطوعات منفـــردة من جانب رجال مختلفين على الجيتار، بدأ راؤول وصديقه في العزف على الماريمبا. كان روبيرتو جالســـا على الأرض بين رعاة البقر الذين لم يكونوا يقومون بالعزف.

«أقترح أن نرقص جميعا»، قال دون فدريكو، ونهض وأمســـك بليتشا. تحركا هنا وهناك معا في مؤخرة الشرفة لفترة، لكن لم يتحرك أحد آخر.

«هيا إلى الرقص»، صاح دون فدريكو، وهو يضحك.

بدأ العديد من الفتيات في الرقص مثنى مثنى وهن خائفات، ثم أخـــذن يضحكن بصوت عال. لم يتزحـــزح أحد من الرجال. اســـتمر راؤول وصديقه في دق اللحن نفســـه علـــى آلة الماريمبا مرارا وتكرارا. رقص دون فدريكو مع تشـــاليا، التي كانت مرهقة من ركوبها في الصباح، وســـرعان ما استأذنت وغادرت. بدلا من أن تصعـــد إلـــى الطابق العلوي وتذهب إلى الســـرير مضت إلى الشـــرفة الأمامية وجلست تنظر في الخلاء المقمر الشاسع. كان الليل يوحي بالأبدية. وكان بوســـعها أن تشعر به هناك، بالضبط وراء البوابة. لكن النغمات الموسيقية الرتيبة أبقت البيت حبيسا داخـــل حدود الزمـــن، محافظا عليه من أن يبتلـــع، وبينما كانت تســـتمع إلى المرح المتزايد، تولد لديها انطبـــاع أن الرجال كانوا

يشاركون بدور أكبر فيه الآن. «من المحتمل أن يكون ريكو قد فتح لهم زجاجة شراب»، فكرت بغضب شديد.

في النهاية بدا أن الجميع كانوا يرقصون. ازداد فضولها إلى درجة عالية جدا، وكانت على وشك أن تنهض وتعود إلى الشرفة، عندما ظهر شـخص ما في الطرف الآخر من الشـرفة. لم تكن فـي حاجة إلى أن يخبرها أحد أنه كان روبيرتو. كان يسـير في صمت نحوها، بدا أنـه كان مترددا عندما وصل إليها، ثم جلس القرفصاء قرب مقعدها ورفع بصره إليها. كانت محقة، فرائحة الشراب كانت تشتم منه.

«مساء الخير، يا آنسة».

شـعرت بأنها مدفوعة إلى أن تظل صامتة. ومع ذلك، قالت، «مسـاء الخير». ثم وضعت يدها في جيبها، وهي تقول لنفسـها إنه يجب أن تقوم بهذا بطريقة سليمة وبسرعة.

بينما كان جاثما هناك ووجهه يلمع في ضوء القمر، انحنت إلى الأمام ومررت يدها فوق شـعره الأملس. وأبقت أصابعها في مؤخرة رقبته، ثم مالت بثبات إلى الأمام أكثر. كان الشراب قويا جدا. لم يتحرك. بدأت تهمس في أذنه بصوت منخفض جدا: «روبيرتـو، أنا أحبك. لديّ هدية لـك. أربعون كولونا. هنا».

أدار رأسه بسرعة وقال بصوت عال، «أين؟».

وضعت الأوراق النقدية في يده، وهي لا تزال ممسكة برأسه، ثم همسـت مرة ثانية: «هـس! لا تنبس بكلمـة لأحد. يجب أن أذهب الآن. سأعطيك المزيد غدا في المساء». وصرفته.

نهض ومضى خارج البوابة. وذهبت هي على الفور إلى الطابق العلوي حيث سريرها، وبينما كانت تروح في النوم كانت الموسيقى لا تزال مستمرة.

استيقظت بعد فترة طويلة وأشعلت مصباحها، كانت الساعة الرابعة والنصف. سوف يطلع النهار قريبا. وهي تشعر بامتلائها بطاقة غير معتادة، ارتدت تشاليا ثيابها، وأطفأت المصباح ومضت إلى الخلاء، أغلقت البوابة بسرعة خلفها. كانت الخيول في الإسطبل تتحرك بنشاط. سارت بمحاذاة الإسطبل ثم بدأت تمشي على امتداد الطريق إلى القرية. كانت ساعة هدوء شديد، حيث توقفت حشرات الليل عن إصدار الضوضاء التي تصدرها، ولم تبدأ الطيور بعد في تغريدها الصباحي المبكر. كان القمر منخفضا في السماء، لذلك بقي خلف الأشجار معظم الوقت. أمامها في المقدمة كان كوكب الزهرة يتلألأ مثل قمر صغير. مشت بسرعة، على الرغم من أنها كانت تشعر بوخزة ألم من وقت إلى آخر في وركها.

شيء ما قاتم ممدد أمامها في الطريق جعلها تتوقف عن المشي. لم يكن يتحرك. نظرت إليه بعناية، وهي تخطو بحذر نحوه، وهي على استعداد لأن تركض إلى الطريق الآخر. نظرا إلى أن عينيها كانتا معتادتين على شكله، أدركت أنه رجل مستلق في سكون تام. وعندما أصبحت على مقربة منه عرفت أنه روبيرتو. لمست ذراعه بقدمها. لم يستجب. انحنت فوقه ووضعت يدها على صدره. كان يتنفس بعمق، وكانت تنبعث منه رائحة شراب قوية إلى حد ما. انتصبت وركلته برفق في رأسه. كانت

هناك أنة صغيرة من بعيد صادرة من داخله. أحست بقوة وخفة رائعتين بينما كانت تتحايل لتتمكن من تحريك جسده بقدمها في بـــطء إلى الجانب الأيمن من الطريـــق. كان هناك جرف صغير، على ارتفاع عشـــرين قدما تقريبا. عندما وصلت به إلى الحافة، انتظـــرت برهة من الوقت، وراحـــت تنظر إلى ملامحه في ضوء القمر. كان فمه مفتوحا بعض الشـــيء، والأسنان البيضاء بارزة إلى الخارج من خلف الشـــفتين. ملســـت على جبهته عدة مرات وبدفعة رقيقة دحرجته من فوق الحافة. ســـقط بتثاقل شـــديد، مصدرا صوت حيوان غريب عندما اصطدم بالأرض.

عادت ثانيـــة إلى المزرعة بأقصى ســـرعة. كان الصباح على وشـــك الحلول عندما وصلت. مضت إلـــى داخل المطبخ وطلبت إفطارها، ثم قالت: «لقد استيقظت مبكرا». قضت اليوم بأكمله فـــي أرجاء البيت، تقـــرأ وتتحدث إلى ليتشـــا. اعتقدت أن دون فدريكو كان مشغولا عندما خرج في جولته الصباحية التفقدية، بعد إغـــلاق مخزن المؤن. وظنت أنه كان لا يزال مشـــغولا أيضا عندما عاد، وأخبرته بذلك على العشاء.

- «إنـــه أمر هـــين»، قال. «لا يبـــدو أنني قـــادر على ترصيد دفاتري».

- «لقد كنت بارعا دائما في الرياضيات»، قالت تشاليا.

أحضر بعض رعاة البقـــر روبيرتو بعد الظهر إلى المزرعة. ســـمعت ضجة في المطبخ وبعـــض صيحـــات الخـــدم قائلة: «يـــا إلهي، إنها الخمـــر!»[٤٤]، فخرجت لتتبـــين الأمر. كان قد

---

(٤٤) وردت بالإسبانية [المترجم].

استرد وعيه، وكان ممددا على الأرض وجميع الهنود الآخرين من حوله يحدقون فيه.

«ما الأمر؟» قالت.

ضحك أحد رعاة البقر. «لا شيء ذا أهمية. لقد شرب كثيرا - أتى راعي البقر بإشارة تجسد وصف الشرب من زجاجة - فسقط بعيدا على جانب الطريق. لم يصب إلا بكدمات، على ما أظن».

بعد العشاء طلب دون فدريكو من ليتشا وتشاليا أن تحضرا إلى مكتبه الخاص الصغير. بدا متوترا، وتحدث ببطء فاق بطأه المعتاد. عندما دخلت تشاليا رأت روبيرتو واقفا في الباب. لم ينظر إليها، جلست ليتشا وتشاليا، وظل دون فدريكو وروبيرتو واقفين.

«هذه أول مرة يفعل فيها أحد هذا معي»، قال دون فدريكو، وهو ينظر إلى الأرض في السجادة، ويداه معقودتان خلف ظهره. «لقد سرقني روبيرتو. لا يزال بعض المال المفقود في جيبه، ما يزيد على أجرته الشهرية. أعرف أنه قد سرقه لأنه لم يكن معه مال بالأمس ولأنه»، والتفت إلى تشاليا، «لأنه يستطيع تبرير امتلاكه له فقط عن طريق الكذب. فهو يقول إنك قد أعطيته له. هل أعطيت روبيرتو أموالا بالأمس؟».

بدت تشاليا متحيرة. «لا»، قالت، «فكرت في إعطائه كولونا عندما أعادني من النزهة صباح الأمس. لكنني اعتقدت أنه سيكون من الأفضل لو انتظر حتى موعد مغادرتنا إلى المدينة. هل كانت كثيرة؟ إنه مجرد صبي».

قال دون فدريكو: «كانت أربعين كولونا. لكن هذا يعادل أربعين سنتافو. السرقة...».

قاطعته تشاليا. «ريكو! أربعون كولينزا! ذلك كثير! هل أنفق الكثير منها؟ يمكنك أن تستقطع ما أنفقه من أجرته بالتدريج».

كانت تعرف أن أخاها كان سيقول ما قاله بالفعل، بعد لحظة.

«أبدا، سيرحل الليلة. ومعه أخوه».

أمكن لتشاليا أن ترى في الضوء الخافت الكدمة الأرجوانية الكبيرة في جبين روبيرتو، الذي أبقى رأسه منكسا ولم يرفعه، حتى عندما نهضت هي وليتشا وغادرتا الحجرة بناء على إشارة من أخيهما.

ذهبتا إلى الطابق العلوي وجلستا في الشرفة.

«يا لهم من همجيين!» قالت ليتشا في سخط. «قد يتعلم ريكو المسكين يوما ما كيف يعاملهم. لكنني أخشى أن يقتله أحدهم أولا».

تأرجحت تشاليا ذهابا وإيابا، وهي تحاول التهوية على نفسها بكسل «ربما يتغير مع المزيد من هذه الدروس»، قالت. ثم صاحت «يا للحرارة!».

سمعتا صوت دون فدريكو في الأسفل عند البوابة. قالت في صرامة بالإسبانية «أبله!». كانت هناك ردود خافتة ثم أغلقت البوابة. انضم دون فدريكو إلى أختيه في الشرفة. كان يجلس في حزن.

«لم تكن بي رغبة في طردهما ليلا سيرا على الأقدام»، قال، وهو يهز رأسه. «لكن هذا الروبيرتو شخص سيئ. كان من

الأفضل أن أطرده بشكل نهائي وإلى الأبد، وبسرعة. جون طيب، لكن كان يجب علي التخلص منه أيضا، بالطبع».

«واضح، واضح»، قالت ليتشا بالإسبانية في ذهول. ثم التفتت فجــأة إلى أخيها وهي ممتلئة بالقلق، وقالت «أتمنى أن تكون قد تذكرت أن تأخذ منه المال الذي قلت إنه كان لا يزال في جيبه».

«نعــم. نعم»، أكد لها، لكنها عرفت مــن نبرة صوته أنه جعل الولد يحتفظ به لنفسه.

ألقى دون فدريكو وليتشـــا بتحية المساء وذهبا إلى فراشهما. جلســت تشـــاليا لفترة، وكانت تنظر بغموض إلى الحائط الذي توجد فيــه العناكب. ثم تثاءبت وأخذت المصبـــاح إلى حجرتها. للمـــرة الثانية، كان الســـرير قد أعيد إلى مكانـــه قبالة الحائط بواســـطة الخادمة. هزت تشـــاليا كتفيها، واستلقت في السرير حيث كان، أطفأت المصباح، وأنصتت لدقائق قليلة إلى الأصوات الليليـــة، ونامت في هدوء، وهي تفكـــر في كيف أنه من المدهش أنها في غضون وقت قليل أصبحت معتادة على الحياة في باسو روجو، بـــل، ويجب عليها أن تعترف الآن، بأنها تســـتمتع بالمكان كذلك.

سنيور أونج وسنيورها

في آخر شارع البلدة الطويل يقع جبل أخضر يرتفع إلى عنان السماء بزاوية قدرها خمس وأربعون درجة، وترامت منحدراته المتسلسلة في وعورة من المرتفعات المتاخمة للسحب إلى أسفل نحو الوادي حيث كان النهر يجري. على الرغم من أن الأرض كانت خصبة في الوادي، لم تكن هناك مزارع أو بساتين؛ لأن أهل البلدة كانوا كسالى ولم يرغبوا في إزعاج أنفسهم بإزالة الصخور التي غطت الأرض. ثم إن الجو كان حارا جدا بشكل دائم بالنسبة إلى هذا النوع من العمل، وكان الجميع في ذلك المكان مصابين بالملاريا، لذلك سقطت البلدة منذ وقت طويل في قبضة نمط المعيشة المتواضع أو الضئيل المعتمد على الهنود الذين كانوا يهبطون من الجبال ويجلبون الطعام، ثم يعودون بالقماش الرخيص، والمناجل وأشياء أخرى مثل مرايا أو زجاجات فارغة. كانت الحياة في هذه البلدة سهلة دائما؛ على الرغم من أنه لم يكن هناك أحد غنيا، ومع ذلك لم يعرف أحد الجوع في أي وقت. كان لكل بيت تقريبا بعض أشجار البابايا والمانجو بجواره، وكان هناك الكثير من ثمار الأفوكادو(٤٥) والأناناس في السوق في متناول المعدم أو المفلس.

تغير القليل من هذا عندما بدأت الحكومة في بناء السد الكبير إلى أعلى. لم يبد أن أحدا كان يعرف بالضبط أين يوجد السد؛ فقد قاموا ببنائه في مكان ما في أعلى الجبال؛ حيث كانت المياه

(٤٥) نبات أمريكي استوائي ثماره شبيهة بالكمثرى - [المترجم].

قد غطت عدة قرى بالفعل، والآن بعد ست سنوات كان العمل في البناء لا يزال مستمرا. وهذا الجزء الأخير هو الأكثر أهمية في الأمر، لأنه كان يعني أن الهنود عندما كانوا يهبطون في الوقت الحالي من أعلى صاروا يجلبون معهم ليس الطعام فقط بل والمال أيضا. لذا حدث فجأة أن وجد بعض الناس في المدينة أنفسهم أغنياء. كان من الصعب عليهم هم أنفسهم تصديق ذلك، لكن كان هناك مال، ولا يزال الهنود يواصلون نزولهم ويتركون المزيد والمزيد منه على كاونترات محلات هؤلاء الأغنياء الذين لم يعرفوا ما الذي يفعلونه بكل هذه البيزوات التي هبطت عليهم فجأة. معظمهم قام بشراء الراديوهات الكبيرة التي كانوا يتركونها تعمل منذ الصباح الباكر حتى المساء، وكانت جميعها مضبوطة كلها على برنامج «تاباتشولا»، لدرجة أنهم عندما كانوا يسيرون على امتداد الشارع الرئيسي كان بإمكانهم سماع البرنامج ومتابعته من غير انقطاع. لكن حتى ذلك الحين كانوا لا يزال لديهم مال. أحضر «بيب جيمينيز» سيارة جديدة لامعة في العاصمة، لكن بمرور الوقت، كان يقفل عائدا إلى المدينة، بعد قيادته لها لما يزيد على ستين ميلا في الطريق من «ماباستينانجو»، ولم تعد السيارة شيئا مثيرا للإعجاب، وأحس أنه أقدم على عملية شراء غير حكيمة. بل إن الشارع الرئيسي كان وعرا جدا وموحلا بالنسبة إليه كي يقودها عبره جيئة وذهابا، ولذلك ظلت واقفة والصدأ يأكلها أمام بار «مي إسبيرانزا»، عند الجسر. عندما كان نيكو ورفاقه يعودون من المدرسة كانوا يعبثون بها، متظاهرين أنها بمنزلة حصن. لكن مجموعة من الأولاد الأكبر سنا من أعلى

نهاية المدينة جاءوا يوما ما وخصصوا السيارة لألعابهم، حتى أن الأولاد الذين كانوا يعيشون عند النهر لم يعودوا يجرؤون على الاقتراب منها.

عاش نيكو مع عمته في بيت صغير كانت حديقته تنتهي بمساحة شاسعة من النباتات والتعريشات، التي كان تحتها مباشرة يجري نهر سريع، ويرتطم من جانبيه بصخرة تلو أخرى في واديه الضحل المتلئ بالضباب. كان البيت نظيفا وبسيطا، وكانا يعيشان في هدوء. كانت عمة نيكو ذات طبيعة بسيطة جدا، ولأنها على دراية بهذا، شعرت أن إحدى الطرق لإعطاء ابن أختها المتوفاة الاهتمام المناسب كانت محاولة غرس الانضباط فيه؛ وكان الانضباط يتمثل في مناداته باسمه الحقيقي، وكان ديونيزيو.

لم يكن لدى عمة نيكو أي فكرة عن الانضباط في ما يتعلق بمعيشتها، لذلك لم يندهش الصبي عندما جاء يوم قالت له: «ديونيزيو، عليك أن تتوقف عن الذهاب إلى المدرسة. ليس لدينا المزيد من المال. سوف يستأجرك دون أناستازيو مقابل عشر بيزوات في الشهر للعمل في محله، ويمكن أن تحصل على وجبة الظهيرة هناك أيضا. مع الأسف[٤٦]... لكن لا توجد نقود!»

مكث نيكو لمدة أسبوع في المحل يتعلم أسعار القطع التي كان يبيعها دون أناستازيو، إلى أن عاد إلى البيت ذات مرة فوجدت رجلا غريبا في مظهره، كان يجلس على الكرسي الهزاز الآخر أمام عمته. بدا الرجل يشبه قليلا بعض الهنود الذين كانوا

(٤٦) وردت بالإسبانية - [المترجم].

ينزلون من الجبال البعيدة والعالية، لكن بشرته كانت أقل سمرة، وكان ممتلئ الجسـد وأكثر رخاوة، وكانت عيناه مغلقتين تقريبا. ابتسم إلى الولد، لكن بطريقة لم يعتقد نيكو أنها ودودة وحميمية جـدا، وصافحه من دون أن ينهض عن كرسـيه. بدت عمته في تلك الليلة بالفعل سعيدة جدا، وبينما كانا يستعدان للذهاب إلى الفراش قالت له: «سـوف يأتي السـنيور أونج للعيش معنا. لن يجب عليك العمل بعد الآن. لقد كان الله كريما معنا».

لكـن خطر فـي بال نيكو أنـه إذا كان السـنيور أونج بصدد المجيء للعيش معهما، فإنه سـيفضل الاسـتمرار في العمل عند دون أناسـتازيو، حتى لا يكون موجودا في البيت وبالتالي يضطر إلى رؤية السـنيور أونج كثيرا جدا. قال بلباقة: «إنني أحب دون أناسـتازيو». فنظرت عمته إليه بحدة، «السنيور أونج لا يريدك أن تعمـل إنه رجل متكبر، كما أنه غني بالقدر الكافي لإطعامنا، إن هذا ليس بالكثير عليه لقد جعلني أرى أمواله».

لـم يكن نيكو مسـرورا على الإطلاق، وراح فـي النوم ببطء، وذهنه ممتلئ بالهواجس والشكوك. كان خائفا من أن يجد نفسه في يوم من الأيام يتعارك مع السنيور أونج. وبالإضافة إلى ذلك، ما الذي سـيقوله أصدقاؤه؟ فقد كان السنيور أونج رجلا غريب الأطوار بعض الشـيء. لكن في الصباح التالي مباشـرة كان قد وصل من فندق «بارايسو» مع ثلاثة أولاد كان نيكو يعرفهم، وكان كل منهم يحمل فوق رأسـه حقيبة كبيرة. شاهدهم من الحديقة وهم يتلقون البقشـيش السـخي الذي أعطاه لهم السنيور أونج، ثم انطلقوا إلى المدرسـة من دون انتظار ليروا إن كان نيكو يريد

التحدث معهم أم لا. «ذلك سيئ جدا». قال نيكو لنفسه بينما كان يركل الأحجار هنا وهناك فوق أرضية الحديقة الترابية الجرداء. وبعد فترة قصيرة مضى إلى النهر وجلس فوق قمة أكبر صخرة وأخذ يشاهد الماء الذي يشبه اللبن وهو يضطرب من تحته. كان أحد ببغاواته الخمسة من نوع الكوكاتوس يصرخ من بين كتلة أوراق شجر فوق الضفة. «كالاتي!» صرخ نيكو فيه بالإسبانية؛ فقد ضايقه سلوكه السيئ بنفس القدر الذي ضايقه به وصول السنيور أونج.

وقد انتهى كل شيء تقريبا إلى ما كان يخشاه - بل وأسوأ - فبعد يومين قال له أحد الأولاد الذين يقطنون في آخر الشارع أثناء مروره: «مرحبا يا تشالي[٤٧]». رد على التحية بطريقة آلية ثم تابع سيره، لكن بعد دقيقة قال لنفسه: «تشالي؟ لكن ذلك يعني رجلا صينيا! تشينك!» بالطبع لابد وأن السنيور أونج رجل صيني. استدار ونظر إلى الولد، وفكر في أن يضربه بحجر في ظهره، ثم طأطأ رأسه ومضى في سيره ببطء، لن يمضي أي شيء على ما يرام.

انتشرت المزحة بالتدريج، لدرجة أن أصدقاءه بعد فترة قصيرة كانوا ينادون عليه بكلمة تشالي عندما يقابلونه، وعلى الرغم من أنه بالفعل هو الذي أصبح أقل توددا وصداقة، فإنه تخيلهم جميعا يتجنبونه لدرجة أنه لا أحد عاد يرغب في رؤيته بعد الآن، وكان يقضي معظم وقته في اللعب وحده عند النهر. كان صوت الماء يصم الآذان، لكنه في نفس الوقت جعله يشعر بتحسن بعض الشيء.

---

(٤٧) وردت بالإسبانية - [المترجم].

لا السنيور أونج ولا عمته أعاراه كثيرا من الانتباه، باستثناء طلباتهمـا الثابتة والمتكررة عندما تحين أوقات تناول الطعام لكي يـأكل، «الآن بعد أن أصبح لدينا المزيـد من الطعام أكثر ممـا نحتاج إليـه، لا تريد أن تأكل»، كانـت عمته تقول له في غضـب. ويقول السـنيور أونج «كل يا ديونيسـيو». فيرد نيكو بالإسبانية: «سمعا وطاعة»، وهو مفعم بالاستياء، لكن في نبرة توحي بالازدراء، وكان يقضم قطعة صغيرة من الخبز المكسيكي ويمضغها ببطء شديد.

لم يبد أن هناك سـؤالا أو اهتماما بشأن عودته إلى المدرسة، على الأقل لم يتم ذكر الموضوع أبدا، الأمر الذي كان مسـرورا به كثيرا، نظرا إلى أنه لـم تكن به رغبة للعودة بين أصدقائه فقط ليسـمعهم ينادونه بتشـالي. كان من الممكن أن يكون الاسم ذاته محتملا لو لم يكن ينطلق من السـخرية من حياته المنزلية، وقد بدا ضعفه تجاه تغيير ذلك الوضع أكثر خزيا بكثير من أي وضع كان من الممكن أن يجد نفسـه مخطئا فيـه. ولذلك كان يقضي أيامه بعيدا عند النهر، وهو يقفز مثل عنزة عبر الصخور، ويلقي بالأحجار لإخافة النسور وإبعادها من جثث الأحياء النافقة التي كانت تخلفها لهم المياه، باحثا عن بركة كبيرة ليسبح فيها، ويتعقب اتجاه مجرى النهر، ثم يستلقي عاريا في كسل فوق الصخور في الشـمس الساخنة. بغض النظر عن مدى اللطف الذي ربما كان عليه السنيور أونج معه - وقد أعطاه حلوى بالفعل في مناسبات عديدة، بالإضافة إلى قلم رصاص أحمر - لكن نفسه لم تطاوعه علـى قبول وجوده كجزء من الأسـرة. ثم كانـت هناك الزيارات

المفردة لأنـــاس غرباء وأغنياء من المدينة، أشـــخاص لم تعرفهم عمته مـــن قبل، لكن الأمر الآن بدا طبيعيـــا تماما في أن يجيء هؤلاء إلى البيت، وكانوا يمكثون لخمس أو عشر دقائق يتحدثون فيها إلى الســـنيور أونج، ثم يذهبون ثانية من دون أســـئلة كثيرة عن صحـــة عمته، التي كانت تهتم دائما وتصر على وجودها في مؤخـــرة البيـــت أو في الحديقة عندما كانـــوا يأتون. لم يكن في وسعه فهم هذا على الإطلاق. إنه لا يزال بيتها. أو ربما لا! ربما أعطته للسنيور أونج. النساء في الأغلب مجنونات. لم يجرؤ على ســـؤالها. والمرة الوحيدة التي كان قادرا على سؤالها عن الناس، الذين كانوا يواصلون المجيء بأعداد متزايدة، أجابته فيها قائلة: «إنهم أصدقاء الســـنيور أونج»، ونظرت إليه بتعبير بدا أنه يقول: «هل هذا كافيا بالنســـبة إليك. أيها الفضولي؟» كان مقتنعا أكثر من أي وقت مضى بأن شـــيئا أكثـــر تتوجب معرفته في ما يتعلق بهـــؤلاء الزوار. ثم قابل لووز، ولأنه لم يعد وحيدا بعد ذلك، فقد توقف لبعض الوقت عن التفكير بشأن أولئك.

عندما، رآها لأول مرة في يوم عاصف، واقفة على الجســـر، ورأســـها المضيء يتألق قبالة الجبـــال الداكنة في الخلف، توقف عن الســـير ووقف ســـاكنا تماما كي ينظر إليها بعناية أكثر، فقد اعتقـــد أن هناك خطأ في مـــا رآه، لم يكن من الممكن أن يصدق أبدا أن يبدو إنســـان ما بهذه الهيئة، كان شعرها الأبيض الناعم ملفوفا على هيئة خوذة فوق رأســـها، ووجهها كله أبيض، تقريبا كمـــا لو كانت غطته بطـــلاء، حاجباها وأهـــداب عينيها، وحتى عينيها، كانت كلها فاتحة جدا لدرجة بدت كما لو أنها كانت غير

موجودة، فقط شفتاها القرنفليتان هما اللتان تبدوان حقيقيتين. كانت متشــبثة بسور الجســر في إحكام، وتعبير وجهها ينم عن انشــغال شــديد - أو ربما ألم غامض - كلمــا كانت تحدق إلى الخارج من تحت حاجبيها الأبيضين غير الوافيين بالغرض. كان رأسها يتحرك ببطء في كافة الأنحاء كما لو كانت تحاول العثور على زاوية للرؤية محتملة لتلــك العينين الضعيفتين اللتين كانتا تعانيان خلف الرموش البيضاء.

قبل أســابيع قليلة مضت كان يقف وينظر إلى ظله ليس إلا؛ الآن كان يتأمل بعزم وتأن إلى أن بدت الفتاة، التي كانت من عمره تقريبا، على وشــك الانحدار إلى الأمام صوب أسفلت الطريق، وعندئذ أســرع نحوها ثم أمسك بذراعها بإحكام، فتراجعت إلى الخلف في التو، وهي تحدق في وجهه.

«من؟» قالت، بارتباك.

«أنا ما الأمر؟»

هدأت الفتاة، وتركت نفســها ليقودها إلى الأمام «لا شــيء»، أجابت بعد لحظة. مشى معها نيكو إلى نهاية الطريق حيث النهر، عندما وصلا إلى الظل، اختفت الخطوط الرفيعة من جبينها. «هل تؤذي الشمس عينيك؟» سألها، فأجابت بنعم. أسفل إحدى أشجار ثمــر الخبز العملاقة كانت هناك صخور رمادية ملســاء؛ جلســا وشرع نيكو في سلسلة من الأسئلة. ردت بهدوء، كان اسمها لووز، وجاءت مع أختها منذ يومين فقط من «ســان لوكاس»، لتبقى هنا مع جدها لأن أبويها نشــب بينهما شجار في المنزل. وبينما كانت تنطق إجاباتها راحت تحدق بعيدا إلى الطرف البعيد من الخلاء،

كان نيكو متأكدا في تلك الأثناء من أنه لم يكن في استطاعتها أن ترى الأشجار النحيلة على الجانب الآخر من النهر أو الجبال التي في الخلف. سألها: «لماذا لا تنظرين إليّ عندما تتكلمين معي؟»

وضعت يدها على مقدمة وجهها. ثم قالت «عيناي قبيحتان».

«هذا ليس صحيحا!» صاح في سخط. ثم أضاف، بعدما نظر إليهما بعناية للحظة، «إنهما جميلتان».

تبينت الفتاة أنه لم يكن يسخر منها، وقررت على الفور أنها أحبته أكثر من أي ولد عرفته في أي وقت.

في تلك الليلة أخبر عمته عن لووز، وبينما كان يصف ألوان وجهها وشعرها رأى نظرتها المسرورة. «إنها ابنة الشمس على الفور! [٤٨]» أعلنت بقوة. «إنهم يجلبون الحظ السعيد. يجب أن تدعوها إلى هنا في الغد. سأعد لها فطيرة ساخنة ومنعشة من التاماريندو». قال نيكو إنه سيفعل، لكن لم تكن لديه أي نية لتعريض صديقته لفحص عمته المتلهف. وعلى الرغم من أنه لم يكن مندهشا على الإطلاق لسماعه أن لدى الأشخاص المصابين بالمهق قوى خاصة، فقد اعتبر أن رغبة عمته في الانتفاع الفوري من إحدى هذه القوى التي ربما كانت تتميز بها لووز، كانت رغبة أنانية من جانبها.

في اليوم التالي عندما ذهب إلى الجسر ووجد لووز واقفة هناك، كان حذرا وهو يقودها عبر ممر ضيق خفي، إلى أسفل حيث النهر، حتى يمكنها أن تبقى غير مرئية لأنهما كانا يمران قرب بيته.

---

(٤٨) وردت الجملة بالإسبانية - [المترجم].

كان قــاع النهر ممتدا بشــكل كبير في الظــلال الملقاة عليه من الأشـــجار الكبيرة التي نمت على امتـــداد ضفتيه. تجول الطفلان ببـــطء في اتجاه مجرى النهر، وهما يقفزان من صخرة إلى أخرى. من وقت إلى آخر كانا يفزعان نســـرا من النســـور، التي كانت تبرز منتصبة في طريقهما مثل جمرة ضخمة كبيرة، ثم يأخذ النسر في التأرجح بشـــكل غير متقن في الهواء، وهما يتقدمان في سيرهما، ويحـــط بعد ذلك في نفس المكان بعد لحظة، كان هناك مكان بعينه أراد نيكـــو أن يريه لها، حيث كان النهر يتســـع وتصبح له شـــواطئ رملية، لكنها كانت تقع على مســـافة طويلة في اتجاه مجرى النهر، لذلك اســـتغرقا وقتا طويلا ليصلا إلـــى هناك. عندما وصلا، كان ضوء الشـــمس قد صـــار ذهبيا وبدأت الحشـــرات تطلق أصواتها فوق التل، غير مرئيين خلف ذلك الســـاتر الســـميك من الأشجار، كان الجنـــود يقومون بتدريبهم علـــى المدافع الآلية، كانت الأصوات الضعيفة غيـــر الحادة لطلقاتهم تأتي على شـــكل مجموعات على فترات غيـــر منتظمة. طوى نيكو ســـاقي بنطلونه إلـــى أعلى فوق ركبتـــه وخاض بقوة في الجدول الضحـــل: «انتظري!» نادى عليها. وهـــو منحن، غرف حفنـــة رمل من قاع النهـــر. كان مظهره عندما أحضره لها لتراه يدل على الانتصار الشـــديد والبهجة لدرجة أنها أمســـكت أنفاســـها، ومدت رقبتها لرؤيته قبل أن يصـــل إليها. «ما هذا؟» سألته.

«انظري! إنها فضة!» قال، وهو يســـقط الرمل المبتل باحترام فـــي كفها الممتد، الذي راحت تلمع فيه حبات الميكا الصغيرة في ضوء الشمس الغاربة.

«كم هو جميل ورائع[٤٩]!» صرخت بابتهاج. جلسا على بعض الجذور عند الماء. وعندما جفّ الرمل، سكبته بعناية في جيب ثوبها.

«ما الذي ستفعلينه بهذه الفضة؟» سألها.

«أعطيه لجدي».

«لا. لا!» صرخ. «لا تفشي أمر الفضة. خبئيه. ألا يوجد لديك مكان تخبئين فيه الأشياء؟»

كانت لووز صامتة؛ لم يسبق لها التفكير في إخفاء أي شيء. «لا»، قالت على الفور، ونظرت إليه بإعجاب.

أمسك بيدها. «سأعطيك مكانا خاصا في حديقتي حيث يمكنك أن تخفي كل ما ترغبين. لكن يجب عليك ألا تخبري أي شخص أبدا».

«بالطبع لا». كانت متضايقة لخشيتها من أن يكون ظنها غبيا جدا. كانت راضية لفترة من الوقت أن تجلس هناك فقط ونيكو جالس إلى جوارها؛ أما الآن فكانت راغبة في العودة بصبر نافد وإيداع الكنز. حاول إقناعها أن تبقى لفترة أطول قليلا، قائلا إنه سيكون هناك متسع من الوقت إذا عادا في وقت متأخر، لكنها كانت قد نهضت حتى لا تجلس مرة ثانية. تسلقا الصخور ضد اتجاه التيار، فجأة صادفتهما بركة حيث وقفت امرأتان صغيرتان على عمق فخذ تغسلان الملابس، وهما عاريتان إلا من تنورتين ملفوفتين حول خصريهما الممتلئين اللحيمين، حيث طفت التنورتان على سطح الماء برفق في اتجاه التيار. ضحكت المرأتان وأطلقتا تحية. كانت لووز في حالة من الصدمة.

---

(٤٩) وردت بالإسبانية – [المترجم].

«يجب أن تشعرا بالخجل!» صرخت. «إذا فعلت امرأة ذلك في سان لوكاس، فستقذف بالحجارة حتى تدفن تحتها».

«لماذا؟» قال نيكو، معتقدا أن سان لوكاس لابد أن تكون بلدة شريرة جدا.

«لأنهم سوف يفعلون ذلك»، أجابت، وهي لا تزال متلذذة بالصدمة والخجل اللذين شعرت بهما عند رؤيتها للصدرين الذهبيين وهما يلمعان في ضوء الشمس.

عندما رجعا إلى البلدة انعطفا إلى الطريق المفضي إلى بيت نيكو، وبينما كانا لا يزالان في نهاية حوش الحديقة المتشابك الشجيرات، توقف نيكو وأشار إلى شجرة ميتة كان جذعها قد فسد بشكل جزئي. بإيماءة المتآمر نحّى جانبا أطراف ستائر التعريشات التي تدلت إلى أسفل فوق معظم الشجرة، كاشفا عن عدة فتحات مظلمة. ثم اقترب نيكو من إحدى هذه الفتحات، وجذب نيكو علبة صفيح لامعة ونفض منها النمل المتحارب الذي كان يتسابق بانفعال حولها، وحملها إليها.

«ضعيه هنا»، همس.

استغرق الأمر فترة كي ينقلا الرمل كله من جيبها إلى العلبة الصفيح؛ وعندما انتهت العملية أعاد العلبة إلى داخل الجذع المظلم وترك النباتات المتعرشة تسقط أمامه مباشرة لتغطي المكان. ثم قاد لووز بسرعة عبر الحديقة، حول البيت، إلى حيث الشارع. عمته التي كانت قد لمحتهما، نادت: «ديونيزيو!» لكنه تظاهر بعدم سماعها ودفع لووز أمامه بعصبية. انتابه الرعب فجأة خشية أن ترى لووز السنيور أونج؛ ذلك الشيء كان يجب تجنبه بأي ثمن.

«دونيسـيو!» كانت عمتـه لا تزال تنـادي؛ وكانت قد خرجت ووقفت أمام الباب، وهي تنظر إلى نهاية الشارع في أثرهما، لكنه لـم يلتفت إلى الوراء. وصلا إلى الجسـر، الذي كان خارج نطاق الرؤية من البيت.

«وداعا»، قال بالإسبانية.

«إلى أن نلتقي في الغد[٥٠]»، أجابت، وهي تحدق فيه بمظهرها الغريب وهي تبذل جهدا كبيرا. راقبها وهي تسير إلى أعلى الشارع، وتحرك رأسها من جانب إلى آخر كما لو كانت هناك آلاف الأشياء التي تستدعي الرؤية، في حين أنه لم تكن هناك في الحقيقة سوى قلة من الخنازير وبعض دجاجات تهيم هنا وهناك.

في وجبة المسـاء نظرت إليه عمته بنوع مـن التأنيب. تجنب نيكـو تحديقها؛ لم تذكر وعده لها بإحضار لووز إلى البيت لتناول فطيرة «الريفريسـكوس» السـاخنة. في تلك الليلة استلقى فوق حصيرته وهو يشـاهد الخنافس الفسفورية. كانت حجرته مطلة على الفناء؛ وكانت ذات جدران ثلاثة فقط، فقد كان الجدار الرابع مفتوحا. كانت أشـجار الليمون تصل إلى الحجرة وتنحني قبالة الحائط فوق رأسـه، هناك في الأعلى، وكانت هناك أيضا أوراق ضخمة لشجرة موز غير متفتحة كانت تواصل طريقها كل يوم إلى مدى بعيد داخل الحجرة. كان الفناء آنئذ يبعث على الدوار بسبب الأنوار الحادة للخنافس، التي كانت تزحف فوق النباتات أو تطير بينها بصورة هسـتيرية، وهي تطلق وميضها بصورة متقطعة في إصرار مزعج. وفي الحجرة المجاورة احتلت عمته والسـيد أونج

---

(٥٠) وردت بالإسبانية - [المترجم].

ســرير البيت، مستمتعين بخصوصية المســاكن المغلقة من جميع الجهــات. أنصت نيكو: كانت الريح تهب. وكان صوت الريح يبدو جليا أثناء الليل، وتظل الريح تلاعب وتحرك أوراق الشــجر حتى تتلاشــى مرة ثانية قبل الفجر. غدا سوف يأخذ لووز إلى أسفل النهــر للحصول على المزيد من الفضة. تمنى ألا يكون الســنيور أونج قد تجســس عندما قام بكشف الفتحات الموجودة في جذع الشــجرة. وضعته الفكرة المجردة لمثل هذا الاحتمال في حالة من القلق، فظل يتقلب على حصيرته من جانب إلى آخر.

قرر أن يذهب على الفور ويرى إن كانت الفضة لا تزال هناك. بمجرد أن يؤكد لنفسه أنها كانت في أمان أو تمت سرقتها، فسوف يشعر باطمئنان تجاه هذا الأمر ويتمكن من النوم. اعتدل جالسا، واندس في بنطلونه، وخــرج إلى الفناء. كان الليل ممتلئا بالحياة والحركة؛ وكانت أوراق وأفرع الأشجار تحتك ببعضها وهي تصدر تنهيدات صغيرة. كان غناء الحشرات يسري أزيزا فوق الأشجار، وفي كل مكان كانت الخنافس الوامضة تبعث بإشاراتها الصامتة. بينما كان واقفا هناك وهو يشعر بالريح الخفيفة تطوف من حوله أحس بالأصوات الأخرى القادمة من اتجاه الصالة[٥١]. كان النور مضــاء هناك، وللحظة اعتقد أنه ربما يكون لدى الســنيور أونج زائــر متأخر، نظــرا إلى أن هذه الحجرة هي التي كان يســتقبل فيها زائريه. لكنه لم يسمع أي أصوات. تحاشى الأغصان الحادة لشــجرة الليمون، وســلك طريقه في صمت إلــى الأبواب المغلقة وحدق من خلالها.

---

(٥١) وردت بالإسبانية، sala - [المترجم].

كانت هناك كـوة مربعة في حائط الصالة في الطرف المقابل والذي عندما وصل السنيور أونج لأول مرة إلى البيت، قام بوضع تقويم كبير عليه يحمل صورة ملونة لفتاة متكررة صينية مبتسمة. كانت ترتدي ثوب سباحة أزرق وحذاء طويلا برقبة به فرو أبيض، وكانت تجلس عند حمام سـباحة من القيشاني القرنفلي اللامع. وفوق رأسها في سماء مضيئة كانت طائرة ضخمة ذات محركات أربعـة تحلق، وإلى أعلى فوقها في البعيـد، وفي منطقة لا تزال خالية في سماء الصورة، كان الوجه الكريم للقائد العام تشيانج. أسـفل الصورة كانت هناك كلمـات: «أباروتيز فينوس. صن مان نجاي، هوكستلا، التشـي». كان التقويم هو الشيء الوحيد الذي أحضره معـه السـنيور أونج لدرجة أن نيكو كان في وسـعه أن يعجب به بصـدق؛ فقد كان يعرف كل تفصيلـة في الصورة عن ظهـر قلب. كان وجودها قد حول الصالـة من حجرة كئيبة ذات كرسيين هزازين قديمين ومنضدة إلى مكان من الممكن أن يحدث فيه أي شيء إذا انتظر المرء لفترة كافية. والآن بينما كان يختلس النظر عبر الشق، رأى وقد أصابته الدهشة أن السنيور أونج أزال التقويم من مكانه علـى الحائط، ووضعه على المنضدة. كان معه شـاكوش وإزميل وكان يدق ويحفر في الجزء الأسـفل من الكوة. بين الفينة والأخرى، كان يحفـن بيديه الصغيرتين البدينتين إلى الخارج الجبـس والتراب الناتج، ويلقيه فـي كومة منتظمة على المنضدة. انتظر نيكو لفترة طويلة من دون أن يجرؤ على التحرك. حتى عندما هبت الريح بقوة أكثر وبعثت القشعريرة في ظهر نيكو العاري لم يتحرك ولو حركة ضئيلة، خوفا من رؤية السنيور أونج

يلتفت إلى الوراء وينظر بعينيه الضيقتين نحو الباب، والمطرقة في يد، والإزميل في اليد الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، كان من المهم معرفة ما الذي كان يفعله. لكن السنيور أونج لم يبد في عجلة من أمره. انقضت ساعة تقريبا، وكان لا يزال يواصل عمله المنهجي بمثابرة، وكان يتوقف بشكل منتظم ليزيل البقايا ثم يكومها على المنضدة. في النهاية عندما بدأ نيكو يشعر بما يشبه الرغبة في العطس؛ عاد إلى حجرته وهو يجري في جنون عبر الفناء، حتى أن صدره كان يحتك بالأفرع في الطريق. ذهب الانفعال الناجم عن انطلاقه السريع برغبته في العطس، لكنه استلقى على أي حال خوفا من أن تعاوده تلك الرغبة إذا رجع إلى الباب ثانية، وسط تعجبه واندهاشه من السنيور أونج وسقط في النوم.

في الصباح التالي عندما دخل إلى الصالة كانت الفتاة الصينية الجميلة تغطي الكوة كالمعتاد، وقف ساكنا في مكانه وأرهف السمع: كانت عمته والسنيور أونج يتحدثان في الحجرة المجاورة، بسرعة جذب نيكو دبوس التثبيت الموجود في الركن السفلي الأيسر للتقويم ومد يده ليتحسس ما وراء التقويم، لكن لم يكن في وسعه الإحساس بشيء هناك. أعاد دبوس التثبيت مرة ثانية وهو يشعر بالإحباط ثم خرج إلى الحديقة. كان الكنز الخاص به موجودا في الشجرة لم يمس، لكنه الآن يشك في أن لدى السنيور أونج كنزا أيضا، وبدت علبة الرمل لا تستحق أن تكون محط اهتمامه.

ذهب إلى الجسر وانتظر لووز عندما حضرت سارا إلى النهر أسفل الحديقة وجلسا عند الماء، كان ذهن نيكو مستغرقا في

صورة السنيور أونج وهو منحن على الكوة بأدواته، وكان خياله منشغلا بالتخمين في ما كان يفعله السنيور أونج بالضبط وكان غير متأكد إن كان يشرك لووز في سره أم لا، وتمنى ألا تتحدث عن فضتها هذا الصباح؛ ولكي يسبق مقدما استفساراتها عنه ذكر باقتضاب أنه قد ألقى نظرة عليه من نصف ساعة ووجد أنه لم يمس. كانت لووز جالسة تراقبه في حيرة؛ فقد بدا بالكاد أنه كان نفس الشخص الذي كان بالأمس. في النهاية قالت، بينما استمر هو في تحديقه في الحصى الأسود أسفل قديمه، «ما هي حكايتك اليوم؟»

«لا شيء». أمسك بذراعها ليؤكد لها كلمته؛ فقادته هذه الحركة إلى بدء الثقة فيها. «اسمعي. هناك الكثير من الذهب مخبأ في بيتي». أخبرها بكل شيء: وصول السنيور أونج، كرهه له، زيارات أصحاب المحلات الأغنياء إلى البيت، وأخيرا التصرف المريب للسنيور أونج في الصالة الليلة الماضية. أنصتت، وهي ترمش بسرعة طوال الوقت. وعندما انتهى وافقته على أنه من المحتمل أن يكون هناك ذهب مخبأ في الكوة، لكنها كانت ميالة إلى الاعتقاد بأنه كان يخص عمته، وأن السنيور أونج قد سرقه منها. لم تخطر هذه الفكرة لنيكو، وبالفعل لم يصدقها. مع ذلك، فقد أعجبته الفكرة، «سوف أحصل عليه وأعيده إليها»، صرّح قائلا. «بالطبع!» قالت لووز بجدية، كما لو لم يكن هناك بديل آخر. جلسا لفترة من دون أن يتكلما. في أعلى الحديقة كانت جميع الببغاوات تصيح في الوقت نفسه. إمكان استعادة الذهب عن طريق السرقة لإعادته إلى عمته أثاره، لكن كانت هناك أخطار.

بدأ في وصف قبح السنيور أونج في مظهره وشخصيته، وتطرق إلى التفاصيل بشكل ارتجالي بارع. ارتجفت لووز ونظرت في قلق نحو الطريق الممتلئ بالظلال. «لكن، انتبه جيدا إلى نفسك»، تمتمت. ثم أرادت فجأة الذهاب إلى بيتها.

لم يبق الآن سوى انتظار شيء واحد هو غياب السنيور أونج عن البيت، هناك في «تلالتيبيك» عاش رجل صيني اعتاد السنيور أونج زيارته كل أسبوع، حيث كان يرحل في الحافلة المبكرة في الصباح ويعود في ميعاد وجبة منتصف اليوم. انقضت حتى ذلك الحين ثلاثة أيام. حضر أناس إلى البيت وانصرفوا على الفور مرة ثانية، لكن السنيور أونج كان جالسا في هدوء في الصالة من دون أن يخرج إلى الشارع ولو لمرة، كل يوم كان نيكو ولووز يتقابلان على الجسر ويجلسان عند النهر يناقشان ويبحثان أمر الكنز بإثارة كانت تزداد بشكل ثابت مطرد. «أوه، يا للروعة!» كانت لووز تصيح بالإسبانية، وهي ترفع يديها مباعدة بينهما. «هذا الذهب كثير». كان نيكو يومئ موافقا؛ وبنفس القدر كان لديه إحساس بأنه عندما يرى الكنز فسوف يصاب بخيبة الأمل.

أخيرا جاء الصباح الذي قبّل فيه السنيور أونج عمة نيكو على خدها ورحل عن البيت حاملا صحيفة تحت ذراعه. «إلى أين سيذهب؟» سأل نيكو ببراءة.

«إلى تلالتيبيك». كانت عمته تنظف أرضية الصالة.

مضى نيكو إلى الفناء وراقب الطائر الطنان وهو يتنقل بسرعة من زهرة إلى أخرى من أزهار بيل - دي - نوتش البيضاء. عندما انتهت عمته من تنظيف الصالة أغلقت الباب وشرعت في تنظيف

أرضية غرفة النوم. تسلل نيكو في انفعال إلى الحجرة ومنها إلى التقويم، الذي فكّ ركنيه السفليين عن الحائط. كانت الكوة فارغة للمـرة الثانية. كانـت أرضيتها مكونة من أربـع قرميدات كبيرة مزخرفة بالأزهار. كان في وسـعه من دون أن يلمسـها أن يعرف أيها كانت القرميدة المخلوعة. رفعها إلى أعلى وتحسـس تحتها. كانت رزمة أوراق، ليست كبيرة جدا، والأمر الذي كان أكثر سوءا، أنها كانت ناعمة الملمس جدا. سحب مظروفا ممتلئا مصنوعا من ورق المانيلا(٥٢)، ثم أعاد القرميدة والتقويم إلى مكانهما، ومشـى برفق عبر الفناء، إلى الحديقة حيث شجرته.

كان فـي المظروف الكبير الكثير مـن المظاريف الصغيرة، وفي بعـض المظاريف الصغيرة كانت هناك كمية صغيرة من مسـحوق أبيض ليست له رائحة. وكانت المظاريف الأخرى الصغيرة فارغة، ومربوطة معا بشريط. كان هذا كل ما هناك. كان نيكو متوقعا خيبة الأمل، لكن ليس بهذا القدر الهائل والتام. كان غاضبا: لقد سخر منه السـنيور أونج، واسـتبدل هذا الغبار عديم القيمة بالذهب، فقـط إنه عمل لا يخلو من الشـيطنة. لكن عندما فكر في الأمر، قرر أن السنيور أونج لم يكن من الممكن أن يخمن أنه قد عرف بأمر الكوة، وبالتالي لابد أن يكون وراء هذا المسحوق كنز بالفعل. أحس أيضا بأنه من المسـتبعد أن يكون هذا خاص بعمته، على أي حال سـيكون السنيور أونج أكثر غضبا لاكتشـافه أنه قد فقده. أخرج مظروفـين صغيريـن فارغين، ومن المظاريف الأخرى سـكب في المظروفين الفارغين مقدارا ضئيلا من المسـحوق من كل مظروف

---

(٥٢) شجرة الأبق أو الموز الليفي - [المترجم].

به تلك المادة، حتى احتوى هذان المظروفان أيضا على نفس الكمية تقريبا. ثـم أعاد المظاريف الممتلئة والفارغة في المظروف الكبير، وعندمـا رأى أن عمتـه كانت في المطبخ، عاد إلـى الصالة ومعه المظروفان. لن يلاحظ السـنيور أونج أبدا لا المظروفين الفارغين اللذين اختفيا ولا المسحوق الذي سكبه فيهما. وبمجرد عودته إلى الحديقة أخفى الحزمتين الصغيرتين تحت العلبة الصفيح الممتلئة بالرمل، وسار إلى أسفل حيث الجسر.

كان الوقت مبكرا لانتظار لووز. تسـاقط ستار رفيع من المطر مندفعا من أعلى الوادي سـوف يصل في غضـون دقائق قليلة. كان جانب الجبل الأخضر في نهاية الشـارع يلمع في ضوء النهار نصف المعتم. جاء دون أناسـتازيو وهو يسـير بتفـاؤل من نهاية الشـارع الرئيسي، وانعطف إلى الشـارع الفرعي الجانبي حيث كان بيت نيكو. انقاد نيكو لرغبة عمياء، فصاح مناديا بالإسبانية: «نهار سـعيد، يا دون أناستازيو!» بدا الرجل العجوز وقد انعطف في سيره، غير مسرور لرؤية نيكو: «نهار سعيد»، أجاب، ثم أسرع في طريقه. ركض نيكو من الجسر ووقف عند مدخل الشارع وهو يراقبه. كما هو متوقع، كان على وشك الدخول إلى بيت نيكو.

«دون أناستازيو!» صاح، وبدأ يعدو نحوه.

توقف دون أناستازيو عن السـير وظل ساكنا، ووجهه مقطب في ضيق. وصل نيكو مقطوع النفس: «هل كنت تريد رؤية السنيور أونج؟ لقد خرج».

لم يبد أن دون أناسـتازيو سعيد في تلك اللحظة، أيضا. «إلى أين؟» قال بانفعال زائد.

«أعتقد إلى ماباستينانجو، ربما»، قال نيكو، محاولا أن يبدو غير متأكد من المكان، ومتسائلا في نفسه إن كانت تلك تعد كذبة.

«يا للحظ السيئ!» قال دون أناستازيو بالإسبانية وهو يبرطم: «لن يعود اليوم، إذن».

«لا أعرف».

كان هناك صمت.

«هل في وسعي القيام بشيء لأجلك؟» قال نيكو متلعثما.

«لا، لا»، قال دون أناستازيو بعجلة، ثم حدق فيه. طوال الأسبوع الذي كان نيكو يعمل فيه في محله، أتيحت له فرصة ملاحظة أن الولد كان سريعا على غير العادة. «هذا»، أضاف ببطء، «لا أظن - هل السنيور أونج ... ؟»

«دقيقة واحدة»، قال نيكو وهو يشعر أن دون أناستازيو كان على وشك أن يكشف السر ويصبح سيد الموقف في نفس الوقت. «انتظر هنا»، أضاف بحزم. في تلك اللحظة لم يظهر دون أناستازيو أي ميل لعمل أي شيء آخر. وقف مشاهدا نيكو وهو يختفي قرب ناصية البيت.

عاد الولد على الفور وهو يلهث، وابتسم إلى دون أناستازيو.

«هل من الممكن أن نذهب إلى الجسر؟» تساءل نيكو.

أخذ دون أناستازيو، وقد أذعن للمرة الثانية، ينظر خلسة في أنحاء الشارع الطويل بينما كانا يسيران فيه. وقفا على الجسر منحنيين فوق المياه أسفلهما، وقد أخرج نيكو أحد المظروفين الصغيرين من جيبه، وفي الوقت نفسه ألقى بنظرة سريعة على

وجه دون أناســتازيو. نعم لقــد كان محقا! فقد رأى ملامح ثابتة تعبــر عن الارتيــاح، والتوقع المتلهف. لكن لبرهــة فقط. إذ بعد تسليمه المظروف إلى دون أناستازيو، بدا وجه الرجل العجوز كما كان عليه دائما.

«جيد جدا، جيد جدا»، دمدم متذمرا بالإسبانية. حطت زخات المطــر الأولى برفق فوق رأســيهما، لكن لم يلحظهــا أي منهما. «هل أدفع لك أم للســنيور أونج؟» قال دون أناســتازيو، وهو يضع المظروف في جيبه.

لثوان قليلة كانت ضربات قلب نيكو تدق بقوة: يجب ألا يعر ف السنيور أونج شيئا عن هذا. لكن لم يكن من الممكن أن يطلب من دون أناســتازيو ألا يخبره. ابتلع ريقه وقال: «لي أنا». لكن صوته كان ضعيفا.

«آها!» قال دون أناســتازيو، مبتسما بعض الشيء، ومسح بيده على شــعر نيكو بطريقة أبوية. وجده مبتلا، فنظر إلى أعلى نحو الســماء بوجه خال من التعبير. «إنهــا تمطر»، قال معلقا، ونغمة دهشة في صوته.

«نعم، يا سيدي». وافقه نيكو بصوت ضعيف.

«كم المبلغ؟» ســأل دون أناســتازيو، وهو ينظر إليه بقوة، بينما كان الرعد في الوادي يهزم في خفوت.

أحــس نيكو بأنه يجب أن يرد على الفور، لكن لم تكن لديه أي فكرة عما يقوله. «هل بيزو واحدة مناسبة؟»

حدّق فيه دون أناســتازيو بقوة أكثر، جعلته يشــعر بأن عيني الرجل العجوز ســوف تخترقانه في اللحظــة التالية. ثم تغيرت

فجـــأة ملامح وجـــه دون أناســـتازيو، وقال: «بيـــزو، هذا جيد».
وأعطـــاه قطعة عملة فضية. ثم قال، «الأســـبوع القادم تأتي إلى
محلي بمظروف آخر. ســـوف أعطيك عشـــرين سنتافو إضافية
لأجل المشـــوار، وهـــس!» ووضع أصابعه على شـــفتيه، وهو يدير
عينيه إلى أعلى. «هس!» ربت على كتف نيكو، وقد بدا مســـرورا
جدا، ثم مضى صاعدا الشارع.

رجع الســـنيور أونج مبكرا عن المعتـــاد، وهو مبتل تماما، وفي
حالة مزاجية ســـيئة إلـــى حد ما، لم يكن نيكو يعيـــر أدنى انتباه
للمحادثـــات التي كانت تدور بين عمته والســـنيور أونج من قبل،
لكنه في ذلك الوقت كان ينصت إلى حديثهما من المطبخ، وسمعه
يقول لعمته: «ليســـت عندي ثقة فـــي «ها». أخبروني أنه كان هنا
فـــي المدينة منذ يومين. بالطبع سيقســـم إنـــه كان في تلالتيبيك
طوال الوقت».

«ثلاثـــة آلاف بيزو ملقاة في الشـــارع!» صاحت بغضب. «قلت
لك ذلك وقتها. أخبرتك أنه سيستمر في البيع هنا بالإضافة إلى
البيع في تلالتيبيك. أنا قلت لك هذا، يا رجل[٥٣]!»

«أنا لست متأكدا بعد»، قال السنيور أونج، وكان في وسع نيكو
تخيل ابتسامته الهادئة بينما كان ينطق بتلك الكلمات، الآن بعدما
سرقه فقد كرهه أكثر من أي وقت مضى، بمعنى أنه رغب في أن
يكتشف السنيور أونج الســـرقة ويوجه الاتهام إليه، وبذلك تسنح
له الفرصة ليقول له: «نعم، سرقتك، وأنا أكرهك». لكنه عرف أنه
هو نفسه لن يفعل شـــيئا للتعجيل بمثل هذه اللحظة. خرج تحت

(٥٣) وردت بالإسبانية - [المترجم].

المطر واتجه إلى شجرته. كانت نسمات الأرض الداكنة ترتفع في الأرجاء من حوله، لتعلق في الهواء المبلل بالمياه. أخرج علبة الرمل الصفيح وأسقط بداخلها البيزو.

استمر المطر في التساقط طوال النهار وأثناء الليل، ولم يتمكن نيكــو من رؤية لووز حتى اليوم التالي، وقد اتخذ مظهرا غامضا، ومحيرا وهو يقودها إلى الشجرة.

«انظري!» صــاح، وهو يريهــا العلبة الصفيــح: «لقد أنتجت الفضة بيزو!»

كانت لووز مقتنعة ومبتهجة، لكنها لم تبد مندهشة فعلا. «ياله من شيء جميل!» تمتمت بالإسبانية.

«هــل ترغبين في أخذه؟» رفع العملة المعدنية إلى أعلى، لكنه كان حريصا على أن يبقي يده فوق المظروف الموجود في تجويف الشجرة.

«لا، لا! اتركه! ربما ينتج المزيد. أعده! أعده إلى مكانه!»

كان محبطــا ومكتئبا بعض الشــيء لاكتشــافه أنها تعاملت مــع معجزته كأمر مســلم بــه تقريبا. أخــذا يضربان الأرض بقــوة بقدميهما للتخلــص من النمل الذي كان قد بدأ يتســلق سيقانهما.

«وماذا عن الذهب؟» همست. «هل أعدته إلى عمتك؟ هل كان وفيرا؟ وما الذي قاله السنيور أونج؟»

«لم يكن هناك شيء على الإطلاق»، قال نيكو، وهو يشعر بعدم ارتياح من دون أن يعرف لماذا.

«آه». كانت لووز تشعر بخيبة أمل.

سـارا مسافة طويلة في اتجاه مصب النهر، ثم فجأة أصبحا إزاء عظاية (اجوانا)[*] ضخمة كانت تشمس نفسها على صخرة فوق البركة. ألقى نيكو حجرا تجاهها، فتحرك الحيوان المخيف بتثاقل بعيدا بين الأوراق. ظلت لووز متشبثة بذراعه في إحكام إلى أن اختفى الحيوان عن النظر؛ فقد كان صوت الحيوان عاليا وعميقا وهو ينسحب عبر الشجيرات الصغيرة النامية أسفل الأشجار العملاقة. فجأة حرر نيكو نفسه، خالعا قميصه وبنطلونه، وقام بوثبة سريعة في البركة. كان يبرز إلى أعلى فوق سطح الماء، وهو يدفع الماء بذراعيه وقدميه في انفعال، وأثناء ذلك كان يصيح بصوت عال. اقتربت لووز بمشية غير متيقنة من حافة البركة، حيث جلست وأخذت تشاهده. ثم قالت الآن: «هات المزيد من الفضة». لم تبد في صدمة على الإطلاق بسبب عربه. غطس إلى القاع وفتش هنا وهناك، ولم يلمس سوى الصخر. صعد إلى أعلى ثانية، وصاح: «ليس هناك أي شيء منها!» كان رأسها الأبيض يتبع حركاته بينما كان يثب هنا وهناك في البركة. وعندما خرج، جلس على الجانب المقابل، تاركا الشمس تجففه. خلف التل كان تدريب الأسلحة الآلية يدور مرة ثانية.

«هل تعتقدين أنهم سيقذفونني بالأحجار في سان لوكاس؟». صاح.

«لماذا؟» صاحت بالإسبانية: «لا، لا! كلا بكل تأكيد!» ليست هناك مشكلة بالنسبة إلى الأولاد».

(*) حيوان ضخم من فصيلة السحالي بأمريكا الجنوبية - [المراجع].

كانت الأيام القليلة القادمة مشمسة، وقد تمكنا من المجيء كل يوم إلى البركة في فترة بعد الظهر.

ذات صباح، والمظروف الآخر الصغير في جيبه، ذهب نيكو إلى وسط البلدة حيث محل دون أناستازيو. بدا الرجل العجوز مسرورا جدا لرؤيته. فتح المظروف خلف الكاونتر ونظر بعناية في محتوياته. ثم أعطى نيكو البيزو والنصف.

«ليست معي فكة»، قال نيكو.

«الباقي لك»، قال دون أناستازيو بصوت أجش. هناك اذهب إلى السينما الليلة وعد في الأسبوع المقبل، لا تنس».

ركض نيكو إلى نهاية الشارع، وهو يتساءل متى ستسنح له الفرصة لملء مظروف آخر لدون أناستازيو. كان الأمر مسألة وقت حتى يقوم السنيور أونج برحلته إلى تلالتيبيك.

قبل لحظة من وصوله إلى الجسر خطت امرأة طويلة إلى خارج أحد المحلات ووقفت قباله. كانت لها عينان واسعتان جدا ووجه مخيف إلى حد ما.

«مرحبا، أيها الولد!» صاحت المرأة بالإسبانية.

«نعم يا سيدتي»، ووقف ساكنا وهو يحدق فيها.

«هل لديك شيء ما لأجلي؟»

«شيء لكِ؟» كرر بانشداه.

«مظروف صغير؟» وقدمت له بيزوين. نظر إليهما نيكو وقال: «لا، يا سيدتي».

أصبح وجهها أكثر إثارة للخوف. «كلا. كلا. لديك»، قالت المرأة بإصرار وهي تتحرك نحوه. ألقى بنظرة سريعة في أنحاء

الشـــارع: لم يكن هناك أحد. بـــدا المحل خاليا. فذلك الوقت من النهار كان الأشـــد حرارة. ارتعب فجأة من وجهها. «غدا»، صرخ، وهو ينحو جانبا لكي ينطلق متجاوزا إياها. لكنها أمسكت برقبته. «اليوم»، قالت بخشـــونة وفظاظة؛ كانت أظفارها الطويلة تنغرس في جلده. «نعم. يا ســـيدتي». لم يجرؤ علـــى النظر إليها، «على الجسر»، قالت في إصرار، «هذا العصر».

«نعم، يا سيدتي».

تركته يمضي في طريقه وهو ينتحب قليلا من الغضب والخجل وليس لأنه خائف.

في الصالة كان السنيور أونج وعمته يتكلمان بانفعال. لم يمض إلـــى الداخل، بل اعتلى أرجوحة الفنـــاء وأنصت إليهما. وعندما تم ذكر اســـم دون أناســـتازيو، قفز قلب نيكو إلى الأمام من شدة الرعب: شيء ما قد حدث!

«أنا الآن متأكد تقريبا»، قال الســـنيور أونج ببطء. «لقد مضى أســـبوعان منذ أن كان هنا، وقد أخبرني ساينز أنه سعيد تماما. وهذا يعني شيئا واحدا فقط: لابد وأن (ها) يبيع له مباشرة».

«بالطبع». قالت العمة بمرارة: «لم نكن في حاجة إلى الانتظار لأسبوعين كي نعرف هذا. ثلاثة آلاف بيزو سقطت في النهر. ياله من تبديد! كم أنت أحمق، يا رجل!»

لم يعرها السنيور أونج أي انتباه. «هناك أيضا امرأة فرنانديز». قال وهو مستغرق في التفكير. «كان يجب عليها أن تكون هنا منذ عـــدة أيام. أعرف أنه لا يوجد معهـــا نقود، لكنها حتى الآن كانت تنجح دائما في أن تجمع بعد أي قدر من المال».

«تلك العجوز الشمطاء!» قالت العمة بازدراء. «ستكون محظوظة لو تمكنت من جمع عشرين، وليس خمسين في الحالة التي صار إليها وجهها الآن».

«في إمكانها جمعها» قال السنيور أونج وصوته مشوب بالثقة: «السؤال هو، هل عثر عليها بالفعل وهل هو يبيع لها بسعر أقل؟»

«لا تطرح عليّ كل هذه الأسئلة!» صرخت العمة بصبر نافد: «اذهب إلى تلالتيبيك واسأل العجوز نفسه!»

«عندما أذهب إلى هناك»، قال السنيور أونج بصوت خفيض وعدائي: «لن يكون هناك ما يسأل عنه».

في تلك اللحظة سمعت طرقة على الباب الرئيسي؛ تركت العمة الحجرة على الفور، وأغلقت الباب خلفها، ومضت عبر الفناء إلى المطبخ. لدقائق قليلة كان في وسع نيكو أن يسمع فقط اختلاط همهمات أو أصوات منخفضة تتحدث في الصالة. أما الآن فقد أغلق شخص ما الباب الرئيسي. كان الزائر قد انصرف.

قبل وجبة الظهيرة ذهب نيكو إلى الحديقة وقذف العملتين الفضيتين اللتين أعطاهما له دون أناستازيو في علبة الرمل الصفيح. التفكير في إطلاع لووز عليهما جعله يشعر ببعض المتعة؛ فسذاجتها جعلته يشعر بالمهارة والتفوق لكنه اعتزم ألا يخبرها بأمر المسحوق أبدا، طوال فترة الغداء كان يفكر في المرأة الطويلة التي كان عليه مقابلتها على الجسر، عندما انتهت الوجبة فعل السنيور أونج شيئا غريبا غير معتاد: تناول قبعته وقال: «أنا ذاهب

لرؤية ساينز والتحدث معه». ثم خرج. شاهده نيكو وهو يختفي في الشارع الرئيسي؛ فدخل إلى البيت ورأى عمته تغلق على نفسها حجرة النوم لتأخذ قيلولتها. من دون تردد مشى مباشرة إلى الكوة الموجودة في الصالة وأخرج المظروف الأصفر الكبير، كان يعرف أنه يفعل شيئا خطيرا، لكنه كان قد اعتزم تنفيذه بأي حال من الأحوال. دس مظروفين صغيرين ممتلئين ومنتفخين في جيبه وترك أحد المظروفين في شجرته، ومضى بالآخر ووقف على الجسر في انتظار المرأة. لم تمض فترة طويلة قبل أن تلمحه من المحل. وبينما كانت تتجه نحوه، بدا وجهها المنهك أكثر قتامة في فترة العصر عنه قبل ذلك، قدم لها المظروف الأبيض الصغير قبل اقترابها، كما لو كان ذلك سيجعلها تبقى في مكان بعينه بمنأى عن الاقتراب منه. وصلت إليه وهي متجهمة وفي جبروت خطفته من أصابعه مثل طائر غاضب مهتاج، ودسته بعنف داخل صدريتها وباليد الأخرى وضعت بيزوين في كفه الذي كان لا يزال ممتدا، ثم هرولت بعيدا من دون أن تنبس بكلمة، قرر أن يبقى على الجسر، وهو يأمل في أن تظهر لووز في الوقت الحالي.

عندما جاءت، قرر فجأة ألا يأخذ بيدها إلى الشجرة، أو حتى إلى النهر. وبدلا من ذلك، أمسك بيدها، وقال: «لديّ فكرة»، كان هذا غير حقيقي، لكنه شعر بالحاجة إلى أن يفعل شيئا ما جديدا، شيئا ما مهما.

«أي فكرة؟»

«دعينا نذهب في رحلة!»

«رحلة! إلى أين؟»

شرعا في السير يدا بيد في الشارع.

«يمكننا أن نستقل حافلة»، قال:

«لكن إلى أين؟»

«ليس مهما إلى أين»، قال بالإسبانية.

لم تكن لووز مقتنعة بصواب الفكرة، كان ذهنها مثقلا بتخيل الوجه الصارم لأختها الكبيرة عندما ترجع إلى البيت، ومع ذلك كان في وسعه أن يرى أنها سوف تذهب معه، عندما وصلا إلى حيث بدأت البيوت والمحلات في الظهور، ترك يدها خوفا من أن يلتقي بأحد أصدقائه، لم يمش معها من قبل في الشارع، كان ضوء الشمس شديدا، لكن سحابة بيضاء ضخمة كانت تتقدم في بطء من خلف الجبال أمامهما. استدار لينظر إلى رأسها الشاحب المضيء. كانت عيناها المتألمتان نصف المغمضتين عبارة عن شقين في وجهها من أثر ضوء الشمس. بالتأكيد ليس لأحد آخر في العالم هذا الشعر الجميل. همس إليها وهو ينظر بلمحة سريعة خاطفة إلى السحابة، «سوف تختفي الشمس عما قليل».

في الميدان الرئيسي كانت هناك حافلة نصف ممتلئة بالناس. من وقت إلى آخر كان السائق، وقد وقف مستندا إلى بدن الحافلة الأحمر المعدني، يصيح، «تلالتيبيك! تلالتيبيك!» بعد وقت ليس بالقصير كانا قد استقلا الحافلة وجلسا قرب المؤخرة بجانب النوافذ حتى طلبت لووز؛ في غمرة إحساسها بالقلق والخوف، أن تنزل من الحافلة. لكنه أمسك بذراعها وقال، وهو يختلق ويخترع بسرعة: «نعم، لقد أردت الذهاب إلى تلالتيبيك لأننا مضطرون إلى القيام بشيء مهم جدا هناك. يجب علينا أن ننقذ حياة شخص ما».

اســـتمعت بانتباه إلى قصته: كان السنيور أونج البشع بصدد قتل الســـنيور ها العجوز لعدم التزامه بوعـــده بالبقاء في تلالتيبيك. وبينما كان يروي الحكايـــة، ويتذكر الصيغة التهديدية التي قالها السنيور أونج، بدأ هو نفســـه في تصديق القصة: «عندما أذهب إلى هناك لن أســـأله عن شيء». لن تتاح للرجل العجوز الفرصة للشـــرح، أو الدفاع عن نفسه. عندما تحركت الحافلة من الميدان، كان مقتنعا مثل لـــووز أنهما كانا ذاهبين إلى تلالتيبيك في مهمة بطولية.

كانت تلالتيبيك تقع في أرض منخفضة في واد محاط بالجبال مـــن جميع الجهات. الســـحابة البيضاء الكبيـــرة، كانت أطرافها اللامعة تندفع إلى الخارج، وهي ترتفع إلى مســـافة أعلى صوب الســـماء، كما لو إلى داخل كهف من الكهوف؛ دخلت الحافلة في حدود ظل الســـحابة. ثم أصبح كل شـــيء في هذا المكان أخضر فجأة. وكانت صيحات الطيور المغردة تأتي عبر النوافذ المفتوحة، في قوة وحدة لتغطي على قعقعة الحافلة العتيقة.

كانـــت لووز تتنهد من وقت إلى آخر قائلة بالإســـبانية: «يا لها من مشكلة!»

وصلوا إلى تلالتيبيك، وتوقفوا في الميدان. نزل الركاب وتفرقوا بســـرعة في اتجاهات مختلفة. كانت القرية هادئة جدا، والعشب الأخضر الفاتح ينمو وســـط الشـــوارع. قلة من الهنود الصامتين كانوا يجلســـون في جميع أنحاء الميدان أمام الحوائط. كان نيكو ولووز يتقدمان في الشـــارع الرئيسي، بعيدا عن الهدوء الذي كان يُغلِّفُ القرية. كانت الســـحابة قد غطت السماء؛ وراحت تنسحب

في ذلك الوقت ببطء مثل ستار فوق الجانب الآخر للوادي. كان جرس كنيسة صغيرة ذو صوت حزين قد بدأ يدق خلفهما في الميدان. دخلا إلى محل صغير كان مكتوبا على لافتته «الصيدلية الحديثة». كان الرجل الجالس في المحل يعرف السيد ها: فقد كان الصيني الوحيد في القرية. «إنه يسكن أمام الدير، في آخر بيت»، قال الرجل. في تلالتيبيك كان كل شيء مجاورا بعضه الى بعض. كان الجرس لا يزال يدق في الميدان. أمام الدير المتهدم الخرب كانت هناك ساحة عبارة عن مرج مفتوح؛ وفي نهاية كل طرف من أطرافه وضعت أعمدة خاصة بلعبة كرة السلة، لكن هذه الأعمدة كانت مكسورة الآن. قبل آخر بيت انتصبت شجرة كبيرة تحمل الآلاف من أزهار اللافندر. وكانت الأزهار تتساقط في الهواء بشكل مستمر، مثل دموع صامتة، نحو الأرض المبتلة تحت الشجرة.

طرق نيكو على الباب. جاءت خادمة ونظرت إلى الطفلين من دون اكتراث، وذهبت بعيدا. ظهر السنيور ها على الفور. لم يكن متقدما جدا في السن كما توقعا؛ وجهه النحيل البارز العظام كان خاليا من التعبير، لكنه نظر إليهما عن كثب. تمنى نيكو أن يدعوهما إلى داخل البيت: فقد أراد أن يرى إن كان لدى السنيور ها نفس التقويم الموجود في صالة البيت عنده، لكن مثل هذا الترحيب كان بعيد الاحتمال. جلست لووز على الدرجة الحجرية الأولى والتقطت بعض الأزهار التي كانت قد سقطت من الشجرة في حين كان نيكو يخبر السنيور ها بهويته وسبب مجيئه. وقف السنيور ها ساكنا تماما. حتى عندما قال له نيكو:

«وسوف يقدم على قتلك»، ظلت عيناه الصغيرتان الصارمتان في نفس الوضع بالضبط. لم يتحرك شيء في وجهه؛ وظل ينظر إلى نيكو كما لو أنه لم يسمع كلمة مما قال. ظن نيكو للحظة أن الرجل ربما لا يفهم سوى اللغة الصينية، لكن السيد ها قال، بوضوح شديد: «يا لها من أكاذيب!» ثم أغلق الباب.

ساراً عائدين إلى السوق من دون أن يقولا شيئاً، وجلسا على مقعد حديدي في انتظار الحافلة. تحركت حبيبات رزاز دافئة مثل المطر نحو الأرض خلال الهواء، وراحت تسقط بنعومة شديدة لدرجة أنها لم تكن مسموعة في سكون الميدان المهجور. في غضون ذلك، وبينما كانا ينتظران، نهض نيكو وذهب إلى الشارع الرئيسي بحثاً عن بعض الحلوى. عندما كان يهم بالخروج من المحل، كان رجل ضئيل الحجم يحمل حقيبة ويسير بسرعة من أمامه ثم عبر الشارع. كان هو السنيور ها.

بينما جلسا يأكلان الحلوى جاءت سيارة أجرة من الشارع الرئيسي وكانت تهتز وهي تعبر الميدان؛ وفي طرف مقعدها الخلفي كان السنيور ها يجلس منحنياً إلى الأمام وهو يتحدث إلى السائق، حدقا في بعضهما البعض، انعطفت السيارة إلى الطريق الذي كان يؤدي إلى أعلى الجبل في اتجاه البلدة، ثم اختفت في احمرار الشفق.

«إنه ذاهب لإخبار السنيور أونج!» صرخ نيكو فجأة. وترك فمه مفتوحاً وحدق في الأرض.

ضغطت لووز على ذراعه. «لا تهتم»، قالت: «إنهما مجرد رجلين صينيين. أنت لن تكون خائفاً منهما».

نظر إليها على نحو خال من التعبير. ثم أجاب في اشـمئزاز: «لا!»

تحدثا باقتضاب شديد في رحلتهما المطرة. كان الوقت ليلا عندما وصلا إلى البلدة. مبتلين وجائعين، سارا إلى أسفل الشارع نحو الجسـر، لم يتكلما حتى هذه اللحظة. عندما عبرا النهر التفت إليها نيكو وقال: «تعالي وتناولي العشاء في بيتي».

«أختي ...»

لكنه جذبها معه في صرامة. عندما فتح الباب الرئيسي ورأى عمته والسـنيور أونج بالداخل، عرف أن السـنيور ها لم يحضر إلى هناك.

«لماذا تأخرت جدا؟» قالت عمته. «إنك مبتل». ثم رأت لووز.

«أغلقي الباب يا حبيبتي». قالت، وقد بدت مسرورة.

بينما كانا يأكلان في الجزء المغطى من الفناء. استأنف السـنيور أونج ما كان يقوله بوضوح في وقت سابق من ذلك المساء.... نظرت إليّ مباشرة من دون أن تنطق بكلمة».

«من؟»، قالت عمته، وهي تبتسم إلى لووز.

«امـرأة فرنانديزاليوم بعد الظهر»، كان صوت السـنيور أونج محملا بالضجر. «كان هذا برهانا كافيا بالنسبة إلي. لقد حصلت عليه من مكان آخر».

أصـدرت عمته صوت شـخير مزمجر. «ألا تـزال تبحث عن دليـل! نينا، تناولي مزيدا من اللحـم». كومت طعاما إضافيا في طبق لووز.

«نعم، لم يعد هناك شك الآن»، واصل السنيور أونج.

«ياله من شعر جميل! أوه، يا إلهي!» وملست على رأس الفتاة. كان نيكو يشعر بالخجل: فقد كان على دراية بأنه قد قام بدعوتها إلى العشــاء لأنه كان خائفا من العودة إلــى البيت بمفرده، وكان يعرف أن عمته كانت تلمس شــعر الفتاة فقط من أجل أن تجلب لنفســها الحظ السعيد. تتهد في بؤس وألقى بنظرة سريعة على لووز؛ التي بدت راضية تماما بينما كانت تأكل.

فجأة سمعوا عدة طرقات عالية على الباب الرئيسي. فنهض الســنيور أونج وذهب إلى الصالة. كان هناك صمت. قال صوت رجل باللغة الإســبانية: «هل أنت الأصفر المدعو ســنيور أونج؟» فجــأة أعقب ذلك الكثير من الضجــة؛ تعارك بالأقدام واحتكاك الأثاث على الأرضية البلاط. قفزت عمة نيكو وجرت إلى المطبخ حيــث بدأت تصلي بصــوت عال جدا. في الصالــة كانت هناك زمجرات وحشــرجات، وعندما أصبحت الضجة أقل شــدة، قال رجل: «جيد. أعرف جيدا. مائة جرام، على الأقل في حوزته. هذا كل ما نحتاج إليه، يا صديقي فامونوس».

انزلق نيكو عن كرســيه خلســة ووقف في المدخل. رجلان في معطفين بنيين مبتلين كانا يدفعان الســنيور أونج إلى خارج الباب الرئيســي. لكنه لم يكن راغبا في المضي معهما. أدار رأسه فرأى نيكــو، وعندما همّ بفتح فمه ليتحدث إليــه، ضربه أحد الرجال بقبضته في جانب وجهه. «ليس أمام الولد»، قال الســنيور أونج وهو يلوي فكه يمنة ويسرة ليرى إن كان على ما يرام: «ليس أمام الولد»، قال ثانية بشــكل أكثر غلظــة. صفق الرجل الثاني الباب مغلقا إياه. كانت الصالة فارغة. لم يكن هنـاك سوى صوت عمته

المنتحـــب في المطبخ، وهي تولول بصـــوت عال. التفت لينظر إلى لووز، التي كانت جالسة في سكون تام.

«هل تريدين الذهاب إلى البيت؟» قال لها.

«نعم»، نهضت وجاءت عمته من المطبخ وهي تهز يديها بقوة ثم اقتربت من لووز ووضعت يدها برفق على الشـــعر الأبيض، وهـي لا تزال تتلو وتغمغم بالصلاة.

«إلى اللقاء، يا حبيبتي. عودي في الغد»، قالت لها.

كان هنـــاك مطـــر خفيف لا يـــزال يســـقط، والقليل من الحشـــرات كانت تصدر أصواتها من الأوراق المبتلة بينما كان الطفلان الصامتان يســـيران على امتـــداد الطريق إلى حيث كانت تسكن لووز. عندما طرقا الباب انفتح على الفور. كانت تقـــف هناك فتاة طويلة نحيلة. أمســـكت بلووز بإحدى يديها وجذبتهـــا بعنف إلى الداخل من دون أن تتكلم، وأغلقت الباب بيدها الأخرى.

عندمـــا وصل نيكو إلى البيت ودخـــل إلى الصالة، ظن للوهلة الأولى أن الســـنيور أونج قد عـــاد، لكنه أحس في اللحظة التالية أنه كان في منتصف حلم سيئ. فقد كان السنيور ها جالسا هناك يتحدث مع عمته. رفعت عينيها نحوه وكانت تبكي، وأمرته قائلة: «اذهب إلى السرير».

بينما كان نيكو يمر أمامه انحنى الســـنيور ها وأمسك بذراعه بإحكام. «أي»، قال نيكو رغما عنه: «لحظة واحدة». قال السنيور ها، وهو لا يزال ينظر إلى عمة نيكو، ولم يرخ قبضته ولو للحظة. «ربمـــا يعرف هذا الولد». وقال دون وهـــو يدير وجهه نحو نيكو:

«لقد أخذت الشـرطة السنيور أونج إلى السجن، إنه لن يعود إلى هنا، لقد أخفى شيئا ما في هذا البيت. أين هو؟»

بدت الأصابع القاسـية الصلبة كما لو أنها ستقطع جلد نيكو. نظرت إليه عمته آملة بطريقة متوسـلة راجية. أحس نيكو فجأة بالأهمية الشديدة.

«هناك»، قال مشيرا إلى التقويم.

نهض السـنيور ها وانتزع الفتـاة الجميلة عن الحائط. وعلى الفور كان بحوزتـه المظروف الأصفر. راح يتفحص محتوياته، ثم قال: «هل هناك المزيد؟»

«لا»، قال نيكو، مفكرا في المظروف الموضوع بأمان في مخزن شـجرته هناك في الخارج حيث الليل الممطر. بدأ السـنيور ها يلوي ذراعه، لكن التفكير في خبيئته جعله يشعر بالقوة، وبأن ألمه وكراهيته قد تدفقا في ذلك الشـعور بالقوة. ظل نيكو واقفا في صلابة تاركا السـنيور ها يؤلمه. بعد لحظة تركه السـنيور ها، ثم قام بدفعه دفعة عنيفة أرسلته إلى منتصف الحجرة. «اذهب إلى السرير»، قال.

عندما خرج نيكو وأغلق الباب، استدار السنيور ها إلى عمته، وقال، «سأعود غدا ومعي ملابسي، ليس من الجيد أن يكون لديك ولد في البيت ولا يفعل شيئا؛ سيقع في مشاكل. من الآن فصاعدا سوف يتولى تسليمه، لن يجيء إلى هنا أحد في البيت».

«لكن إذا أمسكته الشرطة ...» اعترضت.

«لن تكون هناك مشـكلة معهم. لقد تم ترتيب كل هذا. لحسن الحظ أن لدي قرابة ثلاثة آلاف بيزو تحت يدي». التقط حقيبته

ومضى إلى الباب. تبعته بإعجاب صريح، ثم تنهدت بعمق وقالت، «ألن تبقى الليلـــة؟» نطقت الكلمات بفؤاد مرتعد، وبدت الكلمات مغناجة بشكل غريب.

«لا. السيارة بانتظاري في الخارج. غدا «وفتح الباب. نهضت، ثم ذهبت إليه وأمســـكت بيده، وهي تضغطها بحرارة بين يديها. «غدا»، قال مكررا.

عندما ســـارت الســـيارة مســـافة بعيدة، ولم يعد في إمكانها سماع صوت محركها، أغلقت الباب، وأطفأت النور، وخرجت إلى الفناء، حيث مضت إلى الأرجوحة الشبكية واستلقت فوقها وهي تتأرجح برفق ذهابا وإيابا.

«رجل ذكي»، قالت لنفســـها. «ياله من حظ سعيد!» ثم توقفت عـــن التأرجح للحظة. «حظ ســـعيد! بالطبع! لابـــد أن يأتي بها ديونيسيو مرة ثانية إلى البيت يوما ما قريبا جدا».

اســـتمرت البلـــدة فـــي رخائها، وواصـــل الهنود النـــزول من المرتفعات محملين بالمال، كانت الغابة الكثيفة على امتداد الطريق إلى ماباستينانجو قد تم اقتلاعها، وتم توسيع الطريق وتحسينه. اشترى نيكو حزمة من المطاريف الصغيرة. وعثر بعيدا عند مصب النهر على شـــجرة أخرى مجوفة. وفيهـــا احتفظ بكنزه المخزون الـــذي كان يتزايد ببطء، وأثناء الشـــهر الأول بالذات احتفظ بما يكفي من المال الإضافي لشـــراء أحمر شفاه من أجل لووز ونظارة شمســـية مزينة بأحجار كريمة حمراء وخضراء في كل جزء من أجزاء إطارها.

فريسة رقيقة

كان هناك ثلاثة فيلاليين يبيعون الجلد في تبلبالة(٥٤) : أخوان والابن الأصغر لشقيقتهما. كان التاجران الأكبر سنا رجلين جادين وملتحيين يحبان الانشغال بالمناقشات اللاهوتية المعقدة أثناء المرور البطيء لساعات النهار الحارة في حانوتهما(٥٥) قرب ساحة السوق؛ وكان الشاب بالطبع يشغل نفسه بصفة مستمرة مع البنات ذوات البشرة السمراء على وجه التحديد في «الحي المحظور(٥٦)». وكانت هناك فتاة منهن بدت له أكثر جاذبية من الأخريات، لدرجة أنه شعر بشيء من الحزن عندما أخبره خالاه أنهما سوف يغادرون إلى تساليت(٥٧). لكن لكل بلدة تقريبا «الحي» الخاص بها، وكان إدريس متأكدا على نحو معقول من قدرته على الحصول على أي فتاة مقيمة في أي حي من هذه الأحياء، مهما تكن روابطها العاطفية في الوقت الراهن، لهذا فإن الإحباط الذي انتابه عقب سماعه بمشروع الرحيل كان قصير الأجل.

انتظر الفيلاليون الثلاثة حلول فصل الشتاء قبل أن يشرعوا في الخروج إلى تساليت. ولأنهم كانوا يريدون الوصول إلى هناك بسرعة فقد اختاروا طريقا في أقصى الغرب، وهو أيضا الطريق الذي يمتد في أكثر الأقاليم بعدا والقريب في نفس الوقت من أراضي قبائل الرقيبات النهّابة. كان قد مر وقت طويل لم ينزل

(٥٤) تقع في غرب الجزائر - [المترجم].
(٥٥) وردت بالعربية - [المترجم].
(٥٦) وردت بالفرنسية - [المترجم].
(٥٧) تقع في شمال مالي - [المترجم].

فيه هؤلاء الأجـــلاف من حمادتهم للانقضـــاض على قافلة من القوافل، اعتقد معظم الناس أنهم قد فقدوا بعد حرب «سارغو» الجزء الأكثر من أسلحتهم وذخيرتهم، وبقي الجزء الأكبر أهمية، وهو روحهـــم المعنوية. ثم إن مجموعة صغيـــرة مكونة من ثلاثة رجـــال وجمالهم من الصعـــب أن توقظ طمـــع الرقيبات، الذين يتمتعون بالثراء عادة بســبب الغنائم التي كانوا قد حصلوا عليها على امتداد طريق وادي الذهب(٥٨) وموريتانيا.

رافقهم أصدقاؤهم في تبلبالـــة، ومعظمهم أيضا تجار جلود فيلاليون، حتى أطراف البلدة وهم يشـــعرون بالحزن لمغادرتهم؛ ثم تمنوا لهم ســـفرا سعيدا، وشـــاهدوهم وهم يمتطون جمالهم ويمضون ببطء نحو الأفق المتألق.

وصاحوا بهـــم: «إذا قابلتم أيا من الرقيبـــات، فاجعلوهم في المقدمة أمام أعينكم!»

كان الخطر يكمن بالدرجة الأولى في الأرض التي سيهبطون إليهـــا بعد ثلاثة أيام أو أربعة من رحيلهم عن تبلبالة، وكانوا بعد أسبوع سيتركون خلفهم حدود الأرض التي يسكنها الرقيبات. كان الجو باردا بشـــكل معتدل إلاّ في منتصف النهار. كانوا يتبادلون أدوار الحراسة ليلا، وعندما كان إدريس يبقى في نوبة الحراسة كان يظل مستيقظا ويستل نايا صغيرا كانت نغماته الحادة تجعل خالـــه الأكبر يعبس من الضيق، إلى حد كان يجعله يطلب منه أن يذهب ويجلس على بعد مسافة من أماكن نومهم فوق البطاطين، وكان إدريس يجلس طوال الليل وهو يعزف أي ألحان حزينة كان

(٥٨) في الجزء الجنوبي مما كان يسمى بالصحراء الإسبانية في شمال غرب أفريقيا - [المترجم].

بإمكانه أن يتذكرها، فالألحان المرحة في رأيه لم تكن مناسبة إلاّ للحي، حيث لن يكون بمفرده أبدا.

وعندما كان الخالان يقومان بالحراسة، كانا يجلسان في هدوء، وهما يحدقان أمامهما مباشرة في ظلمة الليل. لم يكن هناك سوى ثلاثتهم فقط.

وفي أحد الأيام، ظهر شخص بمفرده، وكان يتحرك نحوهم عبر السهل المقفر من جهة الغرب. كان يركب جملا، ولم تكن هناك أي إشارة تدل على وجود آخرين، وعلى الرغم من ذلك فقد مسحوا الخلاء بأعينهم في جميع الاتجاهات. توقفوا لفترة، فغيّر الرجل من مساره قليلا. ساروا إلى الأمام، فغيّر من مساره مرة ثانية. لم يكن ثمة شك في أنه كان يريد التحدث معهم.

«لندعه يقترب، فلدى كل منا سلاح»، دمدم الخال الأكبر سنا، وهو يحملق في الأفق الفارغ مرة أخرى.

ضحك إدريس. فقد بدا له من غير المعقول حتى افتراض سعي رجل بمفرده إلى المشاكل.

عندما اقترب هذا الشخص أخيرا إلى مسافة تسمح بسماع صوته، حياهم في صوت يشبه صوت المؤذن قائلا: «السلام عليكم[٥٩]!» توقفوا، من دون أن يترجلوا عن مطاياهم، وانتظروا أن يقترب الرجل أكثر. وسرعان ما ألقى عليهم التحية مرة ثانية، وفي هذه المرة رد عليه الخال الأكبر التحية، لكن المسافة كانت لا تزال أبعد من أن تحمل صوته، فلم يسمع الرجل رد التحية. كان الآن قد اقترب منهم بدرجة كافية أتاحت لهم أن يلاحظوا أنه لم

(٥٩) وردت بالعربية - [المترجم].

يكن يرتدي ملابس الريجوبا. تهامسوا في ما بينهم: «إنه قادم من الشمال وليس من الغرب». وشعروا جميعا بالارتياح. ومع ذلك، عندما اقترب منهم أكثر بقوا فوق جمالهم، وانحنوا في وقار وجدية وهم في مجالسهم، وظلوا يبحثون في الوجه الجديد والملابس التي من تحته عن بعض مظاهر زائفة قد تمكنهم من إماطة اللثام عن الحقيقة المحتملة، وهي أن يكون الرجل دليلا مرشدا للرقيبات، الذين يركنون في انتظار وترقب على بعد ساعات قليلة في الحمادة، أو أنهم قد تحركوا الآن بالفعل في طريق مواز، لإحكام الخناق عليهم بهذه الطريقة بحيث لا يستطيعون الوصول إلى مكان يصبح بالإمكان رؤيتهم فيه قبل الغروب.

لم يكن الغريب بكل تأكيد من أفراد قبيلة الرقيبات، فقد كان خفيفا ومرحا، وكانت بشرته فاتحة ولحيته صغيرة جدا. لم يكن إدريس مستريحا لعيني هذا الرجل الصغيرتين المفعمتين بالنشاط واللتين تبدوان وكأنهما تأخذان كل شيء ولا تمنحان شيئا، لكن الانطباع العابر أصبح فقط جزءا من الريبة الأولية العامة التي لدى جميع الناس، والتي تلاشت تماما عندما تبينوا أن الرجل كان منقاريا. و«منقار» مكان مقدس في ذلك الجزء من العالم، ويقطنه سكان قليلون تتم معاملتهم باحترام من جانب الحجاج الذين يأتون لزيارة ضريح مهدم قريب من هناك.

لم يحمل القادم الجديد نفسه أي نوع من أنواع المشقة لإخفاء مشاعر الخوف التي كان يشعر بها لكونه بمفرده في تلك المنطقة، أو المتعة والسرور اللذين شعر بهما لوجوده الآن مع ثلاثة رجال آخرين. ترجلوا جميعا عن مطاياهم وقاموا بإعداد الشاي لتوثيق

عرى الصداقة بينهم، خاصة أن المنقاري قد قام بتهيئة فحم الخشب لذلك الغرض.

أثناء الجولة الثالثة للكؤوس بينهم اقترح المنقاري مرافقتهم نظرا لأنه كان سيمضي في نفس اتجاههم تقريبا إلى «تاوديني». كانت عيناه السوداوان اللامعتان تحدقان في كل فيلالي منهم على التعاقب، شرح لهم أنه قناص ماهر جدا، وأنه كان على يقين من إمكانية تزويدهم جميعا ببعض من لحم الغزال الجيد خلال الطريق، أو على الأقل أحد «الأوداد[٦٠]». أخذ الفيلاليون يتدبرون الأمر، وفي النهاية قال أكبرهم سنا: «اتفقنا». فحتى لو تبين أن المنقاري قناص غير ماهر بالدرجة التي زعمها لنفسه، فإنهم سيكونون أربعة في الرحلة بدلا من ثلاثة.

بعد نهارين، في الصمت العظيم للشمس المشرقة، أشار المنقاري إلى التلال المنخفضة التي كانت تمتد إلى الجوار منهم في جهة الشرق وقال: «تمَّ[٦١]. أنا أعرف هذه الأرض. انتظروني هنا. إذا سمعتموني أطلق الرصاص، عندئذ اقتربوا، لأن ذلك يعني أن ثمة غزلان».

ذهب المنقاري سيرا على قدميه، وراح يتسلق بين الجلاميد ثم اختفى خلف أقرب قمة. «إنه يثق بنا»، فكر الفيلاليون. «فقد ترك لنا جمله، وبطاطينه، ومتاعه». لم ينطق أحد منهم بشيء، لكن كل واحد منهم كان يعرف أن الآخرين كانا يفكران في الشيء نفسه الذي يفكر هو فيه، وشعروا جميعا بود وألفة نحو الغريب. كانوا يجلسون

(٦٠) وردت بالعربية، وهي نوع من الأغنام أو الخراف البرية في شمال أفريقيا لها أهداب طويلة من الشعر في الرقبة والصدر والأرجل - [المترجم].
(٦١) وردت بالعربية - [المترجم].

في برودة الصباح الباكر بينما كانت الجمال تدمدم.

بدا أنه من المستبعد الجزم بوجود أي غزلان في المنطقة، لكن إن كانت ثمة غزلان وكان المنقاري صيادا ماهرا كما يدعي لنفسه، فعندئذ ستكون هناك فرصة لأن يأكلوا لحم الغزال المشوي[٦٢] ذلك المساء، وسيكون هذا الأمر رائعا.

بدأت الشمس ترتفع ببطء في زرقة السماء القاسية. نهض أحد الجمال بتثاقل ومضى مبتعدا، وهو يأمل في العثور على نبات شوكي ميت أو دغل بين الصخور، أي شيء متروك على مدار سنة مضت منذ كانت الأمطار تسقط. وعندما اختفى الجمل عن الأنظار، ذهب إدريس للبحث عنه وعاد به إلى جوار الجمال الأخرى، وهو يصيح فيه: «هت!»

جلس إدريس. فجأة جاء صوت طلقة نارية، أعقبه فاصل طويل من الصمت، ثم دوت طلقة أخرى. كانت أصوات الطلقات بعيدة نوعا ما، لكنها واضحة تماما في السكون المطبق. قال الأخ الأكبر: «سأذهب. من يدري؟ فربما تكون هناك غزلان كثيرة».

تسلق الصخور، وبندقيته في يده، ثم اختفى.

انتظرا مرة أخرى. عندما جاءت أصوات طلقات نارية هذه المرة، بدا أنها كانت صادرة عن بندقيتين وليس بندقية واحدة.

«ربما قاما بقتل أحد الغزلان!» صاح إدريس.

«يمكن[٦٣]. بعون الله»، أجاب خاله، وهو ينهض متناولا بندقيته. «أريد أن أجرب، أن أختبر مهارتي».

---

(٦٢) وردت بالعربية - [المترجم].

(٦٣) وردت بالعربية - [المترجم].

أصيــب إدريس بإحباط، فقد كان يأمل في أن يذهب هو، ولو أنه بــادر بالقيام منذ ثانية فقط، فربمــا كان الأمر ممكنا، لكن رغم ذلك فقد كان من اللازم أن يتركوه وراءهم للقيام بحراســة الجمال. على أي حال، فقد فات الأوان الآن، وتكلم خاله قبله. «حسنا».

ذهــب خاله وهو يترنم بأغنية من تافيلالت[٦٤]: كانت الأغنية عن أشجار النخيل وابتســامات خفية. وظل إدريس لعدة دقائق يسمع شذرات من الأغنية، عندما كان اللحن يبلغ نغماته العالية. ثم ضاع الصوت بعد أن ابتلعه الصمت المحيط.

ظل إدريس ينتظر. بدأت حرارة الشمس تزداد سخونة، فغطى رأسه ببرنسه. كانت الجمال تنظر إلى بعضها البعض في بلادة، وهي تشرئب بأعناقها، وتكشــف عن أسنانها الصفراء والبنية. فكّر في أن يقوم بالعزف على الناي، لكن اللحظة لم تبد مناسبة: فقــد كان قلقا جدا، وبه رغبة شــديدة في أن يكون هناك معهم وبندقيته في يده، ليكمن خلف الصخور، ويتربص بطريدة رقيقة. راح يفكر في تساليت وتساءل عما ستكون عليه. مكتظة بالسود والطوراق، من المؤكد أنها أكثر حيوية ونشاطا من تبلبالة، بسبب الطريق الذي يمر بها. كان هناك صوت طلقة نارية. انتظر دوي طلقات أخرى، لكن لم يكن هناك المزيد هذه المرة. تخيل نفســه للمــرة الثانية بين الصخــور، يصوب نحو حيــوان يلوذ بالفرار. يضغط على الزناد، فيســقط الحيــوان. تظهر حيوانات أخرى، فيســقطها كلها. وفي الظلام يجلس المســافرون متحلقين حول

(٦٤) واحة جنوب شرق المغرب - [المترجم].

النـــار وهم يلتهمون اللحم الطري المشــوي، ووجوههم تلمع بفعل الدهن. ويكون الجميع ســعداء، لدرجــة أن المنقاري يعترف بأن الفيلالي الصغير كان أفضل صياد بينهم.

مع تزايد شــدة الحرارة أخذته سنة من النوم، كانت خواطره تلهو وترتع فوق مشــهد النســاء وأجســادهن، وكانــت مقاطع موسيقية تطفو في السماء مثل السحب، وكان الهواء مثقلا بعبق دخان لحم الغزال السمين.

اعتدل جالسا وألقى بنظرة سريعة إلى ما حوله. كانت الجمال جالسة ورقابها ممتدة أمامها على الأرض. لم يتغير شيء. نهض، وتفحص المشــهد الحجري من حوله في اضطراب وقلق. فبينما كان نائما، تســلل إلى وعيه وجود عدائي. وعندما حاول التعبير عما جال بخاطره وشــعر به بالفعل، أطلق صرخة مدوية. فمنذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناه على تينك العينين المفعمتين بالنشاط والحيوية شعر بعدم الثقة في صاحبهما، لكن حقيقة أن خاليه قد قبلاه بينهم دفعت الشك بعيدا إلى غيابة غور مظلم في عقله. أما الآن، فقد تجدد هذا الشك مرة ثانية، بعدما أفلت من عقاله أثناء سباته. التفت نحو سفح التل الساخن وحدّق بإمعان بين الجلاميد، وخلال الظلال القاتمة. ســمع في ذاكرته صوت الطلقــات بين الصخــور مرة ثانية، ففهم ما الــذي كانت تعنيه. أمسك أنفاســه وهو يجهش بالبكاء، وجرى لاعتلاء ظهر جمله، وهو يرغمه على النهوض، وكان قد قطع بالفعل مئات الخطوات قبل أن ينتبه لما كان يفعله. أوقف الحيوان ســاكنا للحظة، وألقى بنظرة خاطفــة على المخيم وراءه وهو خائــف ومتحير. إذا كان

خـــالاه قد تم قتلهمـــا، فعندئذ لن يكون بالإمكان القيام بشـــيء خلا التوغل في الصحراء المفتوحة بأسرع ما يمكن، بحيث يكون بمنـــأى عن الصخـــور التي يمكن أن تخفي المنقـــاري بينما يقوم بالتصويب نحوه.

وعلى الرغم من أنه لم يكن على دراية بالطريق إلى تســـاليت، ولـــم يكن معه مـــا يكفيه من الطعام أو المـــاء للوصول إليها، فقد اســـتمر في طريقه إلى الأمام، وهو يرفع يده بين الفينة والأخرى ليجفف دموعه.

واصـــل طريقه علـــى هذه الحال لمدة ســـاعتين أو ثلاث، وهو لا يـــكاد يبصر المكان الذي كان الجمل يطأه. فجأة جلس بشـــكل مســـتقيم، وراح يوجه السباب إلى نفسه، وفي غمرة غضبه، أدار الحيوان إلى الاتجاه المعاكس. فمن المحتمل في تلك اللحظة على وجه التحديد أن يكون خالاه جالســـين في المعسكر مع المنقاري، وهما يعدان المشوي ويوقدان النار، ويسألان أنفسهما بأسى لماذا هجرهما أبـــن أختهما أو ربما يكون أحدهما قـــد انطلق بالفعل بحثـــا عنه. لـــن يكون هنـــاك أي عذر ممكن لســـلوكه، الذي هو نتيجة لرعب أحمق. وبينمـــا كان يفكر في الأمر، كان غضبه من نفســـه يتعاظم: فقد تصرف بطريقـــة لا تغتفر. انقضى منتصف النهار، وكانت الشـــمس قد مالت إلى جهة الغرب. سيكون الوقت متأخرا عندما يصـــل. وبينما كان يتوقع العتاب الذي لا مفر منه والضحكات الســـاخرة التي ستكون في انتظاره، شعر بوجهه وقد أصبح ســـاخنا من فرط الخجل، فضرب جنبي الجمل بعقبيه في ضراوة.

قبل فترة طويلة من وصوله إلى المعسكر سمع غناء، فأدهشه هــذا. توقــف وأصاخ الســمع: كان الصــوت بعيدا جدا بحــيث لا يمكنــه أن يتعرف عليه ويميزه، لكن إدريس كان على يقين من أنه كان صوت المنقاري. دار حول سفح التل حتى وصل إلى مكان يتيح له رؤية الجمال. توقف الغناء، وخيم صمت بدلا منه. لاحظ أن بعــض الأمتعة قــد تم تحميلها ثانية فوق ظهــر الحيوانات، تمهيــدا للرحيل. كانت الشــمس قد انحــدرت تدريجيا، وكانت ظلال الصخور قد انبســطت على امتداد الأرض. لم تكن هناك أي علامــة تدل على أنهم قد اصطادوا أي طرائد. أطلق صيحة بينمــا كان يتأهب للنزول عن مطيته. فــي نفس اللحظة تقريبا كانت هناك طلقة نارية من مكان ما على مقربة في الجوار، وسمع صوتا قصيرا لرصاصة تمرق بجوار رأســه. أمســك ببندقيته؛ فانطلقت رصاصة أخرى شــعر على إثرها بألم حاد في ذراعه، ولم يقو على حمل البندقية فسقطت على الأرض.

ظل جالسا في مكانه للحظة ممسكا بذراعه، وهو مذهول. ثم ألقى بنفسه على الأرض بسرعة وخفة وظل جاثما بين الأحجار، وهو يحاول الوصول بذراعه الســليمة إلى البندقية التي سقطت منه إلى الأرض. وعندما لمسها، كانت هناك طلقة ثالثة، وتحركت البندقية على امتداد الأرض لبضعة بوصات وســط ســحابة من الغبار. ســحب يده ونظر إليها، كانت داكنة والدم ينســاب منها. في تلك اللحظة قفز المنقاري بســرعة إلى المســاحة التي تفصل بينهمــا، وقبل أن يتمكن إدريس من النهوض كان الرجل قد ألقى بنفسه عليه، ودفعه إلى الوراء فوق الأرض بماسورة بندقيته. كانت

السماء الصافية ممتدة في الأعلى، فرمقها المنقاري بنظرة تحد. وركب فوق الشـــاب المنبطح على ظهره، وغرس ماسورة البندقية في رقبته تحت ذقنه مباشرة، وهمس إليه قائلا: «كلب فيلالي!»

حدّق إدريـــس فيه بفضول من نوع خـــاص. كانت اليد العليا للمنقاري؛ ولم يكن بإمكان إدريس ســـوى الانتظار. نظر إلى وجه المنقاري في ضوء الشمس التي كانت على وشك الغروب، فتكشّف له عن شراسة مميزة فيه. كان على دراية بأن هذا التعبير ينجم عن تعاطي الحشـــيش. فالرجل الذي تحلق به أنفاس الحشيش الساخنة بإمكانه الهرب والانفصال بعيدا جدا عن عالم الإدراك. ولكي يتلافى إدريس ذلك الوجه الكريه الحاقد، كان يدير عينيه ذات اليمين وذات الشـــمال. لم يكن من شيء هناك سوى السماء الآخذة في الشـــحوب. كانت ماسورة البندقية تعيقه عن التنفس بعض الشيء. إلاّ أنه قال في صوت مكتوم: «أين خالاي؟»

دفـــع المنقـــاري بندقيته بقوة في عنقه، وانحنى فوقه بشـــكل جزئي وبيد واحدة نزع عنه سراويله[٦٥]، حتى أنه كان ممددا على الأرض عاريا من خصره إلى قدميه وهو يتوجع ويتلوى قليلا لأنه كان يشعر بالحصى البارد من تحته.

ثم أخرج المنقـــاري حبلا وقيد قدميه. ثم تقدم خطوتين نحو رأسه، والتفت بوجهه على نحو مفاجئ في الاتجاه الآخر، وغرس ماسورة بندقيته في سُـــرّة إدريس. وبيد واحدة، سحب ما تبقى من ملابس كانت تستر الفتى إلى فوق رأسه وربط معصميه معا. وبشـــفرة حلاقة قديمة قطع ما تبقى من الحبل. في تلك الأثناء

(٦٥) وردت بالعربية - [المترجم].

كان إدريس يصرخ في صوت عال مناديا على خاليه باسـميهما، الواحد بعد الآخر.

تحـرك الرجل مبتعـدا قليلا وراح يمعن النظر في الجسـم الصغيـر الممدد على الأحجار. ومرّر إصبعه على امتداد شـفرة الحلاقـة، فاعترته نشـوة لطيفة مدغدغة. خطـا مقتربا منه، ونظر إلى أسفل، فرأى الجزء الذي كان بارزا من قاعدة البطن. ومن دون وعي كامل بما كان يفعله، أمسك به بإحدى يديه وترك ذراعه الأخرى تهـوي عليه بحركة مماثلة لحركة حاصد يحصد بمنجلـه. اجتث الجزء البارز على الفور من دون عناء، تاركا ثقبا مسـتديرا داكنا في مسـتوى سـطح الجلد، وراح الرجل يحدق للحظـة، بوجه خال مـن أي تعبير. كان إدريـس يصرخ. وكانت عضلات جسمه كلها بارزة وتنتفض بشدة.

ابتسـم المنقاري ببطء، كاشفا عن أسـنانه. ووضع يده على البطـن المتصلب وملّس على البشـرة. ثم قام بعمل شـق طولي صغير في ذلك المكان، وباسـتخدام كلتا يديه، حشر فيه العضو المستأصل بعناية حتى اختفى داخل الشق.

بينمـا كان ينظف يديه في الرمال، صـدر عن أحد الجمال فجـأة صوت دمدمة. قفز المنقـاري إلى أعلى وأخذ يدور ويلف هنا وهناك بوحشـية، وهو يرفع يده الممسـكة بشفرة الحلاقة إلـى أعلى في الهواء. في تلك الأثناء، وهو يشـعر بالخجل من عصبيته، شـعر بأن إدريس كان يراقبـه ويحتقره، (على الرغم من أن عيني الشاب كانتا لا تبصران من فرط الألم) فركله حتى انقلـب على بطنه حيث تمدد وكانت تصدر عنه حركات تقلصية

صغيـــرة متقطعة. وبينمـــا كان المنقاري يتابع هذه التشـــنجات بناظريـــه، طـــرأت على باله فكرة جديدة. ســـيكون من اللطيف أن يلحق بالفيلالي الشاب إهانة أخيرة لا تمحى. فألقى بنفسه فوقـــه، وفي هذه المرة كان المنقاري صاخبا ويتأوه بتأن من فرط استمتاعه. وفي النهاية نام.

اســـتيقظ عند الفجر وبحث عن شـــفرة الحلاقة، التي كانت ملقـــاة بجواره علـــى الأرض. كان إدريس يتـــأوه بصوت خافت. فقلبه المنقاري على ظهره وراح يضغط بحد الشفرة جيئة وذهابا فـــي عنقه حتى تأكـــد تماما من أنه قد قطـــع القصبة الهوائية. ثم نهض، ومضى مبتعدا، وشـــرع فـــي الانتهاء من مهمة تحميل الجمال التـــي كان قد بدأها في الأمـــس. وعندما فرغ من هذا قضى فترة طويلة من الوقت وهو يسحب الجسد إلى أسفل التل ثم أخفاه هناك بين الصخور.

كان من الضروري لكي يقوم بنقل بضائع الفيلاليين إلى تساليت (فلـــن يكون هناك مشـــترون في تاودني) أن يأخـــذ جمالهم محملة بها معه. وصل إلى هناك بعد خمســـين يوما تقريبا. تساليت مدينة صغيـــرة، لذلك عندما بدأ المنقاري في عرض الجلود هناك، ســـمع فيلالـــي كبير في الســـن يدعى الشـــيباني عن وجـــوده عن طريق المصادفة. ومثله مثل أي مشتر متوقع حضوره جاء الشيباني لفحص الجلود، ولأن المنقاري لم يكن حكيما بما فيه الكفاية فقد ســـمح له برؤيتهـــا. إن الجلـــد الفيلالي لا تخطئه العين لتمييـــزه، وليس ثمة مـــن يبيعه أو يشـــتريه بكميات كبيرة غير الفيلالة. فهم الشـــيخ أن المنقاري قد حصل على الجلود بطريقة غير مشروعة، لكنه لم ينبس

بكلمــة. وعندما وصلت بعد ذلك بعدة أيــام قافلة من تبلبالة تضم بين أفرادها أصدقاء للفيلاليين الثلاثة؛ ســألوا عنهم وظهر عليهم الضيق الشديد لسماعهم أن الفيلاليين الثلاثة لم يصلوا بعد، ذهب الرجل العجوز إلــى المحكمة، حيث أفلح، بعدمــا واجهته صعوبات عديدة، في العثور على فرنســي كان راغبا في الاســتماع إليه. في اليوم التالي قام الحكمدار (رئيس الشــرطة) واثنان من مرؤوســيه بزيــارة المنقاري. وســألوه عن الكيفية التي تســنى له بها الحصول على ثلاثة جمال بالإضافة إلى جمله، وكانت لا تزال محملة ببضعة أسراج مزركشة تحمل الطابع الفيلالي؛ فاتسمت إجابته بالمراوغة. أنصت إليه الحكمدار بجدية، وشــكره، وانصرف مغادرا. ولم يتسن للمنقــاري رؤية الحكمــدار وهو يغمز بعينه إلــى رجليه بينما كانوا يخرجون إلى الشــارع. ولذلك فقد ظل جالســا فــي فنائه، وهو لا يدري أنه قد تمت محاكمته وأن إدانته قد ثبتت.

عــاد الفرنســيون الثلاثة إلــى المحكمة حيــث كان التجار الفيلاليون الذين وصلوا أخيرا يجلســون مع الشيخ الشيباني. كانت القصة ذات طابع قديم، لدرجة أنه لم يكن هناك شك على الإطــلاق في أن المنقاري كان مذنبا. «إنه لكم»، قال الحكمدار، «افعلوا به ما تشاءون».

شكره الفيلاليون بشــدة، ثم عقدوا اجتماعا بحضور الشيباني، ومضــوا في جماعة إلى الخــارج. وعندما وصلوا إلــى مقر إقامة المنقــاري وجدوه يعد الشــاي. نظر إلى أعلى، وعلى الفور ســرت قشعريرة في عموده الفقري. وبدأ يصرخ إليهم بأنه بريء؛ لكنهم لم ينطقوا بشيء، قيدوه تحت تهديد السلاح ودفعوا به إلى أحد الأركان،

حيث استمر في الهذيان والنحيب. وراحوا في هدوء يشربون الشاي الــذي كان يقوم بتجهيز منقوعه، ثم أعدوا المزيد منه، وخرجوا عند الغســق. ربطوه إلى أحد الجمال، وامتطى كل منهم جمله، وتحركوا فــي موكب صامت (إلاّ من صوت المنقاري) إلــى الخارج عبر بوابة المدينة بعيدا نحو الأرض الخراب اللانهائية.

استمروا في سيرهم لنصف ليلة، حتى وصلوا إلى منطقة مهجورة تماما في الصحراء. بينما كان المنقاري ممددا يهذي، وهو مقيد إلى الجمل، قاموا بحفر حفرة عميقة تشــبه البئــر، وعندما انتهوا من عملهم رفعوه إلــى أعلى، وهو لا يزال مقيدا بإحكام، وأوقفوه فيها. ثم ملأوا كل المكان المحيط بجســده بالرمال والأحجار، حتى لم يعد منه شــيء فوق مســتوى سطح الأرض سوى رأســه. وقد بدا رأسه الحليــق بدون عمامته في ضوء الهلال الباهت مثل صخرة صغيرة. ومع ذلك ظل يتوســل إليهم، وهو يصرخ مُشهدا الله وسيدي أحمد بن موســى على براءته. لدرجة أنهم كانوا ينصتون إلى كلماته بانتباه كامــل كما لو أنه كان يصدح بإحــدى الأغنيات. وفي الوقت الراهن كانوا ينطلقون إلى تســاليت، وبســرعة فائقة كانوا قد ابتعدوا عن نطاق وصول الصوت.

وعندمــا انصرفوا صمت المنقاري تماما، وهو ينتظر على امتداد الســاعات الباردة أن تطلع الشمس التي سوف تبعث فيه الدفء في بــادئ الأمر، ثم الحرارة بعد ذلك، ثم الظمأ، ثم الحمى، ثم الهذيان والهلاوس. في الليلة التالية، لم يدر أين كان، ولم يعد يشعر بالبرد. كانــت الريح تكنس الغبار على امتــداد الأرض إلى داخل فمه بينما كان يغني.

الوادي المستدير

هنـــاك دير مهجــور مقام فوق ربوة صغيرة في وســـط خلاء شاســع في الغابة التــي انحدرت من جميع جهــات الأرض في رفــق نحو الأرض، متشــابكة وكثيفة لدرجة أنهــا ملأت الوادي المســتدير، المحاط في مواطن عدة بمنحدرات صخرية ســوداء شديدة الانحدار. كانت هناك أشجار قليلة في بعض أفنيته، وقد اســتخدمتها الطيور كأماكن لالتقائهــا عندما كانت تطير بعيدا عن الحجرات والممرات حيث قامت ببناء أعشاشــها. ومنذ وقت طويل أخذ قطاع الطرق كل ما كان قابلا للحمل من المبنى. وكان الجنود قد استخدموا الدير في ما مضى كمقر لهم، وكانوا، مثل قاطعي الطرق، يشعلون النيران في الحجرات الكبيرة التي كانت الرياح شديدة فيها حتى أنها بدت في ما بعد مثل المطابخ الأثرية القديمة. وبعدما تم إفراغ كل ما كان في الداخل، بدا أنه لن يأتي أحد مجددا قــرب الدير. اقتربت النباتات من الســور الواقي؛ وســرعان ما أصبح الطابق الأول محجوبا عن الرؤية بواســطة أشــجار صغيرة متســلقة قامت بطرح عرائشها لتحيط بأفاريز وعتبات النوافذ. نمت مراع ملتوية شديدة الرطوبة وكثيفة؛ حتى أنه لم يكن هناك طريق خلالها.

فــي أعلى نهاية الوادي المســتدير كان هنــاك نهر يجري من المنحــدرات ليتحول إلى وعاء من البخــار وصوت هادر كصوت الرعــد في الأســفل؛ وبعد ذلك ينحدر على امتــداد قاعدة من المنحدرات حتــى يجد فجوة في النهاية الأخــرى للوادي، حيث

يسرع خلالها بحكمة من دون منحدرات، ولا شلالات، كان خيط أسـود كثيف من المياه يتحرك في خفة وانسيابية إلى أسفل التل بين الجوانب المصقولة للوادي. ووراء الفجوة حيث تتسع الأرض وتصبح مبتسـمة؛ اسـتقرت قرية على جانب التـل في الخارج مباشـرة. في الأيام التـي كان الدير فيها مأهـولا كان الرهبان يحصلون على لوازمهم من تلك القرية، نظرا لأن الهنود لم يكونوا يدخلون الوادي المسـتدير. منذ قرون عندما كان يجري تشـييد المبنى استقدمت الكنيسـة العمال من منطقة أخرى في الريف. كان هـؤلاء أعـداء تقليديين للقبائـل التي في الجـوار، وكانوا يتحدثون لغة أخـرى، ولم يكونوا مصدرا للخطر نحو السـكان الذيـن كانوا يتواصلون معهـم عندما كانوا يعملون في تشـييد الأسوار الضخمة. استغرق البناء فترة طويلة جدا بالطبع لدرجة أنـه قبل اكتمال الجناح الشـرقي كان جميع العمـال قد ماتوا، واحـدا في أثر الآخر. لذلك أكمل الرهبان بأنفسـهم غلق نهاية الجناح بأسـوار لا نوافذ فيها، تاركين إياها بهذه الطريقة، غير مكتملة ولا توجد بها فتحات، في مواجهة المنحدرات السوداء.

جيلا بعد جيـل، كان الرهبان يفـدون، أولادا صغارا يافعين ثم يصبحون نحفاء ويعتريهم الشـيب، وفي النهاية يموتون، ويتم دفنهم في حديقة تحتوي على نافورة تقع خلف الساحة. في أحد الأيام منذ فترة ليست بالبعيدة تركوا الدير كلهم، ولم يعرف أحد أيـن ذهبوا، ولم يفكر أحد في أن يسـأل. بعد فترة قصيرة من رحيلهم جـاء قاطعو الطرق ثم الجنود. وحتى ذلك الحين، نظرا لأن الهنـود لا يتغيرون، لم يصعد أحد من القرية حتى الآن عبر

الفجوة لزيارة الدير. كانت هنا معيشة الأتلاجالا؛ لم يقو الرهبان على اللجوء إلى قتله كحل وحيد، وفي النهاية استسلموا وذهبوا بعيدا. لم يندهش أحد، لكن شهرة واسعة ومكانة عالية أضيفت لصالح الأتلاجالا بمغادرتهم. على مدار القرون التي بقي فيها الرهبان في الدير، تساءل الهنود عن سبب سماح الأتلاجالا لهم بالبقاء. الآن، أخيرا، ينقادون مطرودين إلى الخارج. لقد كانت معيشة الأتلاجالا هناك بشكل دائم، حسبما قالوا، وستستمر هذه المعيشة هناك لأن الوادي كان بيت الأتلاجالا، ولم يكن من الممكن الرحيل عنه أبدا.

في الصباح الباكر كان تنقل الأتلاجالا في توتر وضجر عبر أروقة الدير. كانت الحجرات المظلمة تمر سريعا، واحدة تلو الأخرى. وفي ساحة صغيرة، حيث اندفعت الأشجار اليافعة المتلهفة للنمو من أحجار الأرضية إلى أعلى لتصل إلى الشمس، كان الأتلاجالا يتوقف لبرهة، حيث يكون الهواء ممتلئا بأصوات صغيرة: حركات ورفيف الفراشات، وتساقط أوراق الأزهار الصغيرة على الأرض، والهواء الذي يتبع مساراته العديدة حول حواف الأشياء، والنمل الذي كان يواصل أعماله التي لا تنتهي في التراب الساخن. في الشمس كان الأتلاجالا ينتظر، وكان على دراية ووعي بكل تعاقب سواء في الصوت أو الضوء أو الرائحة، يعيش في خضم التحلل البطيء المستمر والمتواصل الذي هاجم الصباح وبدله إلى فترة بعد الظهر. عندما كان المساء يحل، كان كثيرا ما ينسل إلى سطح الدير ويتطلع إلى السماء المعتمة: كان الشلال يهدر في البعيد. ليلة بعد ليلة، وعلى مدار السنوات

المتعاقبـــة، كان يحلق هنا فوق الوادي، متحولا في ســـرعة البرق إلى خفاش، أو نمر، أو فراشـــة لدقائق قليلة أو ســـاعات، عائدا إلـــى اســـتراحته الثابتة فـــي مركز الخلاء المحـــاط بالمنحدرات الصخريـــة. عندما تم بناء الدير، كان قـــد أخذ في التردد على الحجرات، حيث لاحـظ لأول مـرة الإشـــارات والإيـماءات التي لا معنى لها الخاصة بالحياة البشرية.

ثـــم أصبح ذات مرة من دون قصد أحد الرهبان الصغار. كان هذا إحساســـا جديدا، وغريبا ومعقدا، وفي نفس الوقت خانقا بشـــكل لا يطاق، كما لـــو كان قد تمّ التخلص إلـــى الأبد من أي احتمال بخـــلاف البقاء منعزلا في عالـــم صغير تحكمه قوانين السبب والنتيجة. كان كالراهب، يذهب ويقف في النافذة، يتطلع إلـــى الخارج حيث الســـماء، فيرى للمرة الأولى، ليســـت النجوم ذاتهـــا، بل الفضـــاء فيما بينها ووراءها. حتى فـــي اللحظة التي شعر فيها بالرغبة في أن يرحل، في أن يخطو إلى خارج المحارة الصغيرة للعذاب حيث كان قد أقام لفترة، دفعه فضول مبهم لأن يبقى قليلا وأن يشارك لفترة أكثر قليلا في ذلك الإحساس غير المعتاد. وقف الراهب، ورفع ذراعه إلى الســـماء في إشارة توسل ومناشدة. ولأول مرة يشعر الأتلاجالا بالمعارضة، بالرعدة الناجمة عـــن الصراع. كان من الممتع والمبهج أن يشـــعر الشـــاب بالكفاح لتحرير ذاته من وجودها، ولم يكن من المحبب له بكل المقاييس أن يبقى هناك داخله. عندئذ أســـرع الراهب مصحوبا بصرخة إلى الجانب الآخر من الحجرة وأمسك بكرباج جلدي ثقيل معلق على الحائط. تجرد من ملابسه وبدأ في ممارسة طريقة ذاتية وحشية

وضارية جدا في عقاب الذات. عند الضربة الأولى للسوط كان الأتلاجالا على وشك تحرير السوط من يده، لكنه أدرك وقتها أن فورية ذلك الألم الداخلي الخادع كانت تبرهن فقط على تأثر الجلد من الخارج، ولذلك تمهل الأتلاجالا وكان الشاب مستمرا وهو يشعر بتزايد الوهن تحت ضربات سوطه هو. وعندما انتهى وصلى إحدى الصلوات زحف إلى فراشه وسقط في النوم وهو ينتحب، وانسل الأتلاجالا إلى الخارج بطريقة غامضة ودخل في طائر كان يقضي الليل جالسا فوق شجرة كبيرة على حافة الغابة، وهو يرهف السمع إلى أصوات الليل، ويطلق صرخة من وقت إلى آخر.

وجد الأتلاجالا بعد ذلك أنه من المستحيل مقاومة الانسلال إلى داخل أجساد الرهبان؛ لقد زارهم الواحد تلو الآخر، وقد وجد تنوعا مدهشا من الأحاسيس في هذه العملية. كان كل واحد منهم عالما منفصلا، وله تجربة منفصلة، لأنه كان لكل منهم ردود أفعال مختلفة عندما كان الواحد منهم يصبح واعيا بوجود الكائن الآخر بداخله. ربما كان الواحد منهم يجلس ليقرأ أو يصلي، أو يذهب للقيام بسير طويل شاق في المراعي، في كل مكان حول المبنى، وكان بعضهم يجد رفيقا ليشتبك معه في شجار عبثي سخيف لكنه مرير، وقليلون منهم كانوا ينتحبون، وكان البعض يقوم بجلد نفسه أو البحث عن صديق ليقوم بجلده. كانت هناك دائما وفرة غنية من المفاهيم بالنسبة إلى الأتلاجالا كي يستمتع بها، ولذلك لم يعد يخطر بباله التردد على أجساد الحشرات، والطيور والحيوانات ذات الفراء، بل ولا حتى التفكير

فــي مغادرته للدير والتنقل فوق في الهواء. بدأ الأتلاجالا يجابه الصعوبــات تقريبا عندما ســقط ميتًا فجــأة راهب عجوز كان يســكنه. كان ذلك الخطر هو الذي ســرى على التعاقب بشــكل متتابع في الرجال، الذيــن بدوا كأنهم لا يعرفـون متى يهلكـون، أو كانوا يعرفون بالفعل، لكنهم تظاهروا بمثل هذه القوة من عدم المعرفة، حتى أن الأمر كان بمثابة الشيء نفسه. الكائنات الأخرى تعرف مســبقا، إلا عندما تكون المســألة كونها تلقى حتفها على حين غرة ويتم افتراســها. ولذلك كان الأتلاجالا قادرا على منع تلك المباغتة التي قد يتعرض لها الطائر الذي كان يبقى بداخله، ويجنبه دائما الخطر المحدق به من جانب الصقور والنسور.

عندما غادر الرهبان الديــر، أطاعوا الأوامر الحكومية، بأن تجردوا مــن أروابهم الكهنوتية، وتفرقــوا وأصبحوا عمالا، كان الأتلاجــالا في حيرة لا يعرف كيف يمضي أيامه ولياليه. كان كل شــيء في ذلك الحين قد صار مثلما كان عليه قبل وصولهم: لم يكن هناك سوى المخلوقات التي كانت تعيش في الوادي المستدير. جرب الأتلاجــالا الدخول في: حية عملاقة، أو غزالة، أو نحلة، لكــن لم يكن أحد يتمتع بالميزة التي تنامت فيه إلى مرتبة الحب. كان كل شيء كما كان من قبل، لكن ليس بالنسبة إلى الأتلاجالا، الــذي عرف الوجود الإنســاني، والآن لم يعد هناك إنســان في الــوادي، فقط كان هناك المبنى المهجــور بحجراته الفارغة التي تجعل غياب الإنسان أكثر إثارة للحزن.

جاء قاطعو الطرق بعد عام واحد، عدة مئات منهم في عصر يوم عاصف. عند الشــفق قام بتجربــة كثيرين منهم بينما كانوا

مسترخين هنا وهناك ينظفون أسـلحتهم ويتشاتمون، واكتشف حتى ذلك الحين أوجه ومظاهر أخرى من الإحســاس: الكراهية التي شـعروا بها تجـاه العالم، والخوف الـذي كان يتملكهم من الجنود الذين كانوا يتعقبونهـم، والميول الغريبة من الرغبة التي كانت تضطرم داخلهم عندما كانوا يتمددون معا ليسـكروا قرب النار التي كانت تحترق وتدخن من دون لهب في وسط الأرضية، وألـم الغيرة غير المحتمـل الذي يبدو أن العربـدة الليلية كانت توقظـه داخل بعضهم. لكـن قاطعي الطرق لـم يمكثوا طويلا. وعندما غادروا، جاء الجنود في أثرهم. كان ما شعر به الأتلاجالا كجندي شـديد القرب مما كان عليه كقاطع طريق. كان الخوف الشـديد والكراهية غيـر متوافرين، لكن ما تبقى كان مشـابها تقريبـا. لم يبد أن قاطعـي الطرق أو الجنود كانـوا على دراية بوجوده داخلهم؛ كان بإمكانه الانسلال من رجل إلى آخر من دون أن يحدث أي تغيير في سـلوكهم. أدهشه هذا، نظرا لأن تأثيره على الرهبان كان واضحا جدا، وشعر بخيبة أمل أكيدة لاستحالة جعل وجوده معروفا لهم.

ومـع ذلك، فقد اسـتمتع الأتلاجالا إلى حـد هائل، بكل من قاطعي الطرق والجنود، حتى أنه كان أكثر شعورا بالوحشة عندما تُرك وحيدا مرة ثانية. كان يصبح أحد طيور السنونو التي صنعت أعشاشـها في الصخور بجانب قمة الشلال. وفي لهيب الشمس الحارقـة كان يغطس مرارا وتكرارا في سـتارة الرذاذ المتصاعد مـن بعيد في الأسـفل، وكان يطلق في بعـض الأحيان صرخات مبتهجة. كان يقضي يوما كاملا كسوسة نبات، ويأخذ في الزحف

ببطء على امتداد الجانب السفلي للأوراق، ويعيش في سكون في العالم الأخضر الضخم هناك في الأسفل حيث يختفي من السماء إلى الأبد. أو يعيش في الليل، في الجسد القطيفي الناعم لنمر أرقت، مما يتيح له أن يعرف متعة القتل. وقد عاش ذات مرة لمدة عام داخل ثعبان الماء في قاع بحيرة أسفل الشلال، وكان يشعر بتراجع الطين أمامه كلما كان يدفعه بأنفه المستوي؛ كانت تلك الفترة تتسم بالراحة والهدوء، لكن فيما بعد عاودته ثانية الرغبة في معرفة لغز الحياة البشرية، كانت محاولته لتخليص نفسه من هذا الهاجس الاستحواذي غير مفيدة وعقيمة. وكان يتنقل الآن في ضجر عبر الحجرات المهدمة، والوجود الأخرس، وحيدا، ومتعطشا لأن يكون متجسدا مرة ثانية، لكن فقط في جسد إنسان. وبسبب عمليات إمداد الطرق السريعة عبر الريف كان من المحتم أن يأتي الناس مرة ثانية إلى الوادي المستدير.

قاد رجل وامرأة سيارتهما حتى قرية في واد سفلي؛ كانا قد سمعا عن الدير المهدم والشلال الذي كان يسقط من أعلى المنحدرات في أرض واسعة منبسطة تحيطها التلال، وكانا قد قررا رؤية هذه الأشياء. جاءا فوق بغلين لأن القرية كانت تقع خارج الفجوة، ولكن هناك حيث توجد الفجوة رفض الهنديان اللذان كانا قد استأجراهما المضي إلى مدى أبعد من ذلك، ولذلك واصلا الطريق بمفردهما. ثم صعدا إلى أعلى الوادي حيث منطقة الأتلاجالا.

كان الوقت ظهرا عندما كانا يسيران في الوادي؛ وكانت العروق السوداء للمنحدرات الصخرية تلمع مثل الزجاج بفعل

أشعة الشمس الحارقة التي كانت تسقط عليها. أوقفا البغلين قـــرب مجموعة مـــن الصخـــور العملاقة عند حافـــة المراعي المنحدرة. نـــزل الرجل أولا عن دابته، واقترب ليســـاعد المرأة علـــى النزول. مالت هي إلى الأمام، ووضعت يديها على وجهه، وتبادلا القبلات لفترة طويلة. ثم أنزلها على الأرض وتسلقا اليد فـــي الأخرى إلى أعلى فوق الصخـــور. حوّم الأتلاجالا قربهما ليشـــاهد المرأة عن قرب: كانت أول امرأة على الإطلاق تجيء إلى الوادي. جلســـا أسفل شجرة صغيرة فوق العشب، ينظران أحدهما إلى الآخر، وهما يبتســـمان. علـــى غير المتوقع، دخل الأتلاجالا في الرجل. على الفور، بدلا من أن يشـــعر بالتواجد وسط الهواء المشـــمس، وصيحات الطيور وروائح النبات، كان واعيـــا فقط لجمال المرأة وقربها الشـــديد. تراجع الشـــلال، والأرض، والســـماء ذاتها، اندفعت إلى حيـــث الفراغ، ولم تكن هناك سوى ابتســـامة المرأة وذراعيها ورائحتها. كان عالما أكثر اختناقا وألما عن ذلك الذي اعتقد الأتلاجالا أنه بالإمكان. ومع ذلـــك ظل، بينما كان الرجل يتكلـــم والمرأة ترد عليه، في داخل الرجل.

«اتركيه. إنه لا يحبك».

«سوف يقتلني».

«لكنني أحبك. أحتاجك إلى جواري».

«لا أستطيع. أنا خائفة منه».

اقتـــرب الرجل منها ليجذبها إليه؛ فتراجعت إلى الوراء قليلا في خفة، لكن عينيها اتسعتا.

«لدينا اليوم بأكمله»، تمتمت، محولة وجهها نحو أسوار الدير الصفراء.

احتضنها الرجل بعنف، وهو يكاد يحطم جسـدها وكأن هذا الفعل سينقذ حياته.

قال: «لا. لا. لا. لا يمكنني الاستمرار هكذا». «لا».

كان ألم معاناته شديدا جدا، فترك الأتلاجالا الرجل في رفق وتسلل إلى داخل المرأة. وكان عليه الآن إقناع نفسه أنه قد سكن اللاشيء، وأنه يوجد داخل نفسه اللامحدودة ذاتها، وكانت نفسه هذه علـى دراية ووعي كلي تام بالريح الهائمة، والرفيف الدقيق لأوراق الشـجر، والجو المشـرق الذي كان يحيـط بها. لكن كان هناك اختلاف: فقد كان كل عنصر من العناصر مضخما بشدة، وكان الكـون كله ضخمـا هائلا، ولا حدود لـه. فهم الأتلاجالا الآن مـا كان يبحث عنه الرجـل في المرأة، وعرف أن الرجل كان يعانـي لأنه لم يبلغ ذلك الإحسـاس بالاكتمـال الذي كان يبحث عنه. لكن الأتلاجـالا، لكونه وحده داخل المرأة وفي توحد معها، فقد بلغ ذلك الكمال، ولكونـه واعيا بامتلاكه لهذا الكمال، فقد ارتعش من البهجة. ارتجفت المرأة عندما التقت شفتاها بشفتي الرجل. هناك فوق العشب أسـفل ظل الشجرة واصلا مرحهما حتـى بلغا ذرى جديدة، وقد شـكل الأتلاجالا، الـذي كان على دراية بطبيعتهما وجسـديهما، قناة واحدة بين رغباتهما الدفينة المتصاعدة المتفجـرة. طوال الوقت، ظل داخل المرأة، وبدأ يبتكر بشـكل غامض طرقا لإبقائها، إن لم يكن داخل الوادي نفسـه، فعلى الأقل على مقربة منه، حتى يتسنى لها العودة إليه.

سـارا بعـد الظهر، في حركات تشـبه الحالم، إلـى البغلين وامتطياهمـا، واقتادا البغلين خلال عشـب المرعى الكثيف إلى الديـر. توقفا داخل الفناء الكبير، وهمـا ينظران في تمهل إلى الأقواس القديمة في ضوء الشمس، وإلى الظلام الدامس داخل المداخل.

«هل سندخل؟» قالت المرأة.

«يجب أن نرجع».

«أريد أن أدخل»، قالت. (ابتهج الأتلاجالا). زحفت حية رمادية رفيعـة على امتداد الأرض في الأحـراش. لم يتمكنا من رؤيتها. نظر إليها الرجل بحيرة. «إن الوقت متأخر»، قال.

لكنها نزلت عن البغل بدون مساعدته ومشت أسفل الأقواس إلـى ممر طويل في الداخل. (لم تبدُ الحجرات من قبل حقيقية جدا هكذا مثل الآن عندما كان الأتلاجالا يشاهدها بعينيها).

استكشـفا جميع الحجرات. ثم أرادت المرأة أن تصعد البرج، لكن الرجل كان له موقف حاسم.

«يجب أن نرجع الآن»، قال بثبات، واضعا يده على كتفها.

«هـذا هو يومنا الوحيد الـذي نقضيه معا، وأنت لا تفكر في شيء سوى الرجوع».

«لكن الوقت ...»

«هناك قمر. لن نضل الطريق».

لم يغير رأيه. «لا».

«كما تشـاء»، قالت. «سـأصعد أنا. بإمكانك العودة بمفردك إذا شئت».

ضحك الرجل بارتباك. «أنت مجنونة»، قال وهو يحاول تقبيلها.

انصرفت ولم تجب للحظة. ثم قالت: «تريدني أن أترك زوجي من أجلك. أنت تطلب مني كل شيء، لكن ما الذي تفعله لأجلي في المقابل؟ إنك ترفض حتى أن تصعد معي برجا صغيرا لكي أشاهد المنظر. ارجع بمفردك. اذهب!»

بكت وأسرعت نحو السلالم المظلمة. فتبعها وهو ينادي عليها، فتعثّر في مكان ما خلفها. كانت واثقة من خطواتها كما لو كانت قد صعدت الدرجات الحجرية من قبل آلاف المرات، وهي تسرع إلى أعلى عبر ظلام المكان.

أخيرا وصلت إلى القمة وأخذت تحدق عبر الشروخ الصغيرة الموجودة في الحوائط المتصدعة. كانت العوارض التي تحمل الجرس تفسخت وسقطت، وكان الجرس الثقيل ملقى على جانبه وسط الأنقاض، مثل حيوان ميت. كان صوت الشلال أكثر ارتفاعا هنا، وكان الوادي ممتلئا بالظلال. من أسفل، نادى الرجل اسمها بشكل متكرر. لم تجبه. وبينما كانت واقفة تشاهد ظلال المنحدرات وهي تتجاوز أعماق الوادي الموغلة في الاتساع وتبدأ في تسلق الصخور العارية متجهة إلى الشرق؛ تشكلت تلك الفكرة في ذهنها. لم تكن بالفكرة التي يمكن لها أن تتوقع أن تصدر عنها هي، لكنها كانت موجودة هناك، تنمو ويتعذر عليها اجتنابها. وعندما أحست بها مكتملة في داخلها، استدارت وعادت بسرعة إلى أسفل. كان الرجل يجلس في الظلام قرب نهاية الدرج، يتأوه قليلا.

«ما الأمر؟» قالت.

«جرحت رجلي. هل أنت مستعدة للذهاب الآن أم لا؟»

«نعم»، قالت ببساطة. ثم أضافت «آسفة لأنك سقطت».

نهض دون أن ينطق بشـــيء وسار خلفها وهو يعرج إلى الفناء فـــي الخارج حيث وقف البغـــلان. كان هواء الجبل البارد قد بدأ في الانســـياب إلى أســـفل من قمم المنحدرات الصخرية. وبينما كانا يمضيان في طريقهما عبر المراعي بدأت هي تفكر في كيفية طرحهـــا للموضـــوع عليه. (يجب أن يتم هـــذا قبل أن يصلا إلى الفجوة. ارتعد الأتلاجالا).

«هل سامحتني؟» سألته.

«بالطبع». ثم ضحك.

«هل تحبني؟»

«أكثر من أي شيء في العالم».

«هل هذا صحيح؟»

نظر إليها سريعا في الضوء الخافت، كانت تجلس في استقامة فوق الحيوان البري.

«أنتِ تعرفين أنه كذلك»، قال برفق.

ترددت المرأة.

«ليس هناك سوى طريق واحد، إذن»، قالت أخيرا.

«لكن ما هو؟»

«أنـــا خائفـــة منه، لن أعـــود إليه. عد أنت. ســـأبقى هنا في القرية». (ولكون القرية قريبة، فســـوف تأتي إلى الدير كل يوم). «عندما ينجح هذا. ستأتي أنت وتأخذني. عندئذ يمكننا الذهاب إلى مكان آخر. لن يعثر علينا أحد».

بدا صوت الرجل غريبا. «أنا لا أفهم».

«أنـــت تفهم فعلا. هذا هو الطريق الوحيد. افعله أو لا تفعله، أنت وما تريد. إنه الطريق الوحيد».

اســـتحثا سيرهما إلى الأمام لفترة في صمت. لاح الوادي في المقدمة، داكنا في مقابل سماء المساء.

عندئذ قال الرجل، بوضوح شديد: «أبدا».

بعد لحظـــة أفضى الطريق إلى الخارج إلى مكان مفتوح عال فوق مياه ســـريعة الجريان في الأسفل. كان صوت النهر المكتوم يصلهما بشكل ضعيف. وكان الضوء في السماء قد ذهب تقريبا؛ واتخذ المنظر في الغســـق معالم خادعة. كان كل شـــيء رماديا - الصخور، والأحراش، والطريق - ولم يكن لشـــيء بعد أو حجم. خففا من سرعتهما.

كانت كلمته لا تزال تتردد في أذنيها.

«أنا لن أعود إليه!» صرخت في عنف مفاجئ. «بإمكانك العودة ولعب الورق معه كالمعتاد. كن صديقه الحميم المخلص مثلما كنت دائما. أنا لن أذهب. ليس بوسعي الاستمرار مع كليكما في نفس البلدة».

(لـــم تنجح الخطة؛ رأى الأتلاجالا أنـــه قد فقدها، ومع ذلك فقد كان بإمكانه مساعدتها).

«أنتِ متعبة جدا»، قال برفق.

كان محقا. بمجرد أن قـــال كلماته تقريبا، بدأ الفرح والخفة غير المعتادين اللذين شعرت بهما منذ الظهر يبارحانها، طأطأت رأسها في ضجر وقالت، «نعم، إنني كذلك».

في نفس اللحظة أطلق الرجل صرخة حادة، فظيعة، نظرت هي على الفور فرأت البغل الذي يمتطيه وهو يغطس من حافة الطريق إلى حيث اللون الرمادي في الأسفل. كان هناك صمت، ثم الصوت البعيد لأحجار كثيرة تتدحرج نحو الأرض. لم تقدر على تحريك أو إيقاف بغلها؛ جلست فوقه في صمت مطبق، تاركة إياه يحملها إلى الأمام، وزن هامد أو خامل فوق ظهره.

وفي لحظة واحدة أخيرة، عندما بلغت الطريق الذي كان الحافة التي ينتهي عندها عالمه، خرج الأتلاجالا من داخلها وهو يرتعد. رفعت رأسها وانتابتها رعدة ابتهاج طفيفة، ثم تركت رأسها يسقط إلى الأمام مرة ثانية.

شاهد الأتلاجالا وهو محلق في الهواء المعتم فوق الطريق، شاهد شكلها غير الواضح وقد أصبح غير مرئي في سواد الليل البهيم. (لو لم تكن قادرا على إبقائها هناك في الوادي، فإنك لا تزال قادرا على مساعدتها هنا).

بعد لحظة كان الأتلاجالا في البرج، يستمع إلى العناكب وهي تصلح شباكها التي كانت السيدة قد مزقتها. ستكون قد مرت فترة طويلة، طويلة جدا، قبل أن يحث نفسه على الدخول في كائن آخر عاقل. فترة طويلة طويلة، ربما إلى الأبد.



المترجم في سطور

أ. محمد هاشم عبدالسلام

- روائي ومترجم.
- من مواليد القاهرة ١٩٧٤.
- حاصل على بكالوريوس علوم الحاسب الآلي العام ١٩٩٦.
- له عدة كتب منشورة مثل:

ظلمة زائلة (رواية - ٢٠٠٢)، بيت المرايا (رواية - ٢٠٠٦)، محاورات مع أعلام السينما الأوروبية - ٢٠٠٦. كما أن له كثيرا من الكتب قيد الطبع والنشر.

- له كثير من المقالات والترجمات والنصوص الإبداعية المنشورة في الصحف والمجلات.

المراجع في سطور

د. سليمان خالد الرباح

- من مواليد الكويت العام ١٩٥٣.
- حاصل على شهادة البكالوريوس - في الآداب - قسم اللغة الإنجليزية وآدابها العام ١٩٧٦، وعلى شهادة الماجستير في تخصص اللغة الإنجليزية - كلغة أجنبية العام ١٩٩٠.
- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة ولاية أوهايو في كولومبوس في تدريس اللغة الإنجليزية كلغة أجنبية العام ٢٠٠٢.
- شغل عضوية كثير من اللجان العلمية وغيرها.
- يعمل حاليا أستاذا مساعدا في قسم اللغة الإنجليزية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، ويشغل منصب رئيس وحدة اللغة الإنجليزية في كلية التربية الأساسية.
- راجع لسلسلة إبداعات عالمية رواية «الشحاذ» العدد ٣٧٦، أكتوبر ٢٠٠٨.

الفهرس



العقرب وقصص أخرى
(الجزء الأول)

- أحدثت ثلاث من قصص هذه المجموعة ردود أفعال شديدة في الأوساط الأدبية في نيويورك عندما نشرت، وهي على الترتيب «صفحات من النقطة الباردة، فريسة رقيقة، حادث بعيد»، وقدم فيها «بولز» واحدا من موضوعاته الأساسية: كيف ينظر أهل الثقافات الأجنبية إلى مخلوقات العالم المتحضر. واستخدم فيها، وفي غيرها من قصص المجموعة، ما يشبه وقائع وأسلوب «إدجار آلان بو» في سرد قصص الرعب بسلاسة إلى درجة أنك بصعوبة تستطيع أن تلحظ الرعب فيها.

- يتسم إنتاج «بولز» الأدبي بصفة عامة بالاغتراب والحس الوجودي العميق، بالإضافة إلى العنف الفني الجميل غير المباشر. إذ تدور أحداث أغلب قصصه ورواياته، وكثير من قصص هذه المجموعة ينطبق عليها هذا، في مدن المغرب والصحراء الكبرى وأفريقيا.

- يعد الأمريكان عالم «بولز» الفني بصفة عامة عالما أجنبيا اغترابيا، لا يمت إلى الواقع الأمريكي بصلة، كما يزعمون أنه «كاتب يكتب بالمصادفة باللغة الإنجليزية»، لكنه بالطبع يزعم عكس ذلك.

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٠٧٨
ردمك: ٩-٢٥٧-٠-٩٩٩٠٦